الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي
عميد كلية اللغة العربية بأسيوط

الآداب العربية

في العصر العباسي الثاني

الناشر
مكتبة الكليات الأزهرية
حسين محمد امبابي وشركاه
٩ شارع الصنادقية بميدان الأزهر
ص ب ٩٨٢٠٨ — ت ٩٣١٢٩٦

الحيـاة الأدبيـــة

فى العصر العباسى الثـانى

٣٣٤ — ٦٥٦ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد

هذه دراسات جديدة للحياة الأدبية فى عصر كبير من عصور الأدب ، هو العصر العباسى الثانى ، وقد اقتضت هذه الدراسات مناهج علمية ، فرض أن نترسم حدودها وقيودها .

ولا غنى لنا ونحن نقدم هذه الدراسات إلا أن نشير إلى أن أدب هذا العصر لا يزال مجهولا أو شبه مجهول ، إذ لم تخرج أية دراسة جدية أصيلة فيه حتى اليوم .

بينما كان كتابى (الحياة الأدبية فى العصر العباسى) أساساً كبيراً من أسس الدراسة العلمية للأدب العباسى فى العصر الأول والثانى ، إلا أن البحث فيه لم يكن مقيداً بحـدود العصر الثانى وحده من جانب ، ولا بحدود مناهج معينة ملتزمة من جانب آخر .

وفى هذا الكتاب نحاول مخلصين أن نضع أساسا قويا لدراسة أدب هــذا العصر ، وبالله التوفيق ؟

المؤلف

الحياة السياسية وأثرها فى الأدب

الدولة البويهية :

قام العصر العباسى الثانى فى عام ٣٣٤ هـ ، بسقوط بغداد فى أيدى البويهيين ، وخضوع الخلافة العباسية لسلطانهم ، وهيمنتهم على العالم الإسلامى باسم الخلافة والخلفاء[١] . وقد كان الصراع بين الفرس والترك فى ظلال الخلافة العباسية واضحا بينا ، فقد اشتد نفوذ الفرس الاجتماعى بقيام الدولة العباسية لأنهم كانوا سندها وعمادها ، ثم قوى نفوذهم السياسى على أيدى القواد والوزراء الفارسيين ، ثم بنشوب الخلاف السياسى بين الأمين والمأمون . ولكن العنصر التركى بدأ يحقد على الفرس ، ويحاول اغتصاب نفوذهم السياسى ، ووجد من المعتصم عوناً وسنداً حين أخذ يكون فرقة عسكرية من الأتراك ليقاوم بهم نفوذ الفرس وسلطانهم ، وتأييدهم وتحريضهم على قتل المتوكل فى أواخر عام ٢٤٧ هـ ، وبذلك انتقلت سياسة الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى الأتراك وامتد نفوذهم إلى أوائل القرن الرابع الهجرى .

وتجمع الفرس ليقاوموا النفوذ التركى ، وأخذوا يتحينون الفرصة لاسترداد مجدهم المفقود ، وسلطانهم المسلوب ، وكانت هناك أسرة فارسية تتجمع لتنشر نفوذها فى بلاد فارس ، تلك هى أسرة آل بويه ، الديلمية[٢] ، التى تنتمى إلى بلاد الديلم الواقعة فى الجنوب الغربى من شاطىء بحر الخزر ، ولم يكن لها تاريخ مذكور قبل التوسع الديلمى ، وكان عميدها هو أبو شجاع بويه ، وكان فقيراً يعيش هو وأولاده الثلاثة على صيد السمك ، واحتطاب الحطب . ثم أدخل أولاده فى خدمة قواد الديلم جنوداً ، فتقلبت بهم الأحوال حتى أصبحوا ملوكا تخضع لهم الرقاب ، ودانت لهم البلاد بالطاعة بعد ما كانوا يعانونه من الفقر والمسكنة ،

---

(١) راجع ٢٤٩ ، ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى .

(٢) سبق هذه الأسرة ثورة فارسية قادها يعقوب بن الليث الصفار الذى أنشأ دولة فارسية (٢٥٤ – ٢٩٠ هـ) هددت الخلافة لولا أن جندت العناصر التركية نفسها حتى قضت عليها ، متعاونة مع جيوش السامانيين ملوك الدولة السامانية التى قامت بفارس وماوراء النهر (٢٦١ – ٣٨٩ هـ) .

ومنذ ذلك الحين أصبح لهذه الأسرة ـ التي دعم كيانها هؤلاء الإخوة الثلاثة : على والحسن وأحمد أبناء بويه ـ مكانة مرموقة فى التاريخ الإسلامى ، وتوسعوا فى فتوحاتهم حتى بسطوا نفوذهم على فارس والعراق ، وانتهى الأمر بدخول أحمد بن بويه بغداد فى ١١ جمادى الأولى من عام ٣٣٤ هـ فى خـــلافة المستكفى بالله ، وأصبح بجوار الخليفة سلطاناً على الشعوب الإسلامية ، ولقب معز الدولة (٣٣٤ ـ ٣٥٦ هـ) ولقب أخوه الحسن ركن الدولة ، ولقب أخوهما على عماد الدولة . وحكم هؤلاء الثلاثة العالم الإسلامى باسم الخليفة وقضوا على النفوذ التركى فيه ، أينما كان . . وأقام على فى شيراز ، والحسن فى الرى ، وأحمد فى بغداد .

وبذلك زاد تعداد المواصم الإسلامية . وتولى الخلافة فى ظلال النفوذ البويهى خمسة خلفاء . هم : المستكفى ، والمطيع ، والطائع ، والقادر ، والقائم .

واشتهر من أسرة البويهيين هذه: عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) وعضد الدولة بن ركن الدولة الحسن (٣٦٧ ـ ٣٧٢ هـ) ، وبهاء الدولة بن عضد الدولة (٣٧٩ ـ ٣٨٣ هـ) ، وجلال الدولة (٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ) وسواهم من سلاطين آل بويه . وسام البويهيون الخلفاء والشعب والأتراك سوء العذاب ، ثم قامت الخصومات والمؤامرات بينهم ، وأخذ نفوذ الترك يظهر من جديد فى الخلافة ، وقامت دويلات مستقلة فى أطراف العالم الإسلامى تناوئهم ، وتنتصب منهم النفوذ والسلطان ، ومن أشهر هذه الدويلات : الدولة الإخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ) ، والدولة الحمدانية بحلب والموصـــل (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) والدولة الغزنوية فى السند وأفغانستان (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ) ، والدولة الفاطمية بمصر والشام (٣٥٩ ـ ٥٦٧ هـ) ، والعقيلية فى الموصل (٣٨٦ ـ ٤٨٩ هـ) ، والمرداسية فى حلب (٤١٤ ـ ٤٧٢ هـ) ، والزيدية فى الحلة (٤٠٣ ـ ٥٤٥ هـ) والإيليكية بتركستان (٣٢٠ ـ ٥٦٠ هـ) ، وسواها ، وهى دول إما عربية أو تركية ، وبتأثير كل هذه العوامل تمكن السلجوقيون الأتراك من القضاء على البويهيين عام ٤٤٧ هـ .

الدولة السلجوقية :

نشأت هذه الدولة أولا فى تركستان ، ثم جمع جدهم سلجوق عشيرته ونفر بهم من

بلاد الترك إلى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الإسلام هو وأولاده ، وما زال أمرهم يعظم حتى ملك طغرلبك ـ وهو أول سلاطينهم ـ بلاد العجم ، وكان قيامه فى خلافة القائم العباسى ، ثم تقدم إلى بغداد بدعوة من القائم لينصره على البساسيرى الثائر ، وكان البساسيرى قد ملك بغداد حينا ودعا فيها للفاطميين ، فاستولى طغرلبك على بغداد ، وذلك فى ٢٥ محرم ٤٤٧ هـ ، وتولى خلفاؤه الأمر بعده ، وساسوا الخلافة بالشدة والبطش ، وكانوا أصحاب شوكة عظيمة ، وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر المتوسط ، وأخذوا يسوسون الأمور فى بغداد ، وكان على الخلافة فى عهدهم : القائم ، والمقتدى ، والمستظهر ، والمسترشد ، والراشد ، والمقتفى ، والمستنجد ، والمستضىء ، والناصر ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعصم . وفى عهد السلجوقيين قامت دويـــلات مستقلة من أشهرها : الأيوبية فى مصر والشام (٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ) ، والنورية ، والأتابكة ، والزنكية ، والأرتقية ، والأذربيجانية ، والخوارزمية وسواها ، وتلقب السلجوقيون بركن الدين ، ومعز الدين ، وعضد الدين ، وغياث الدين ، وجـــلال الدين ، وناصر الدين الخ . . وانتهى الأمر بهم إلى الضعف والوهن . . وزحف التتار على بغداد بزعامة هولاكو ، فاستولوا عليها عام ٦٥٦ هـ ، وقضوا على الخلافة العباسية ، وورثوا مقاليد الحكم فى العالم الإسلامى . .

هذا الانقسام السياسى :

ومن ذلك نرى كيف انقسم العالم الإسلامى من بدء العصر العباسى الثانى حتى نهايته إلى دويلات وممالك ، لكل دولة رئيسها ونظامها وجيوشها وسياستها وعاصمتها ، وبعد أن كانت الخلافة فى قبضة الخليفة الذى يحكم العالم الإسلامى من بغداد ، تفرق السلطان فى بيوت كثيرة ، وتوزع الحكم فاستوطن أكثر من عاصمة ، واضطربت أمور العالم الإسلامى بتأثير سياسات متضاربة متخاصمة فى أغلب الأمر ، مما أوهن من نفوذ المسلمين فى العالم ، وفل غرب سلطانهم[1] .

(١) راجع فى الجانب السياسى : تجارب الأمم لمسكويه ، وتاريخ المسلمين لابن العميد ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ، وذيل تجارب الأمم لأبى شجاع ، والمختصر فى أخبار البشر ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ ابن الأثير ، والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع لآدم متز .

تأثير هذا الانقسام السياسي في اللغة العربية :

١ — كان للغة العربية السيادة على الألسنة في العالم الإسلامي إبان العصر العباسي الثاني، لأنها لغة القرآن والدين ، ولغة الحكم والسياسة ، ولكن سلطان العامية واللغات القومية في الأقاليم الإسلامية بـدأ يزحمها ، وظهرت اللغة الفارسية في المشرق ، وشرع الفرس في تجديد آدابهم بلغتهم ونقل علوم الإسلام إليها . فنجحوا في الأولى بعض النجاح ، وأخفقوا في الثانية ، إذ كان ذلك يستدعي وضع كثير من الاصطلاحات والرجوع إلى الإحاطة بلغة قديمة كانت قد نسيت أو كادت ، وخلفتها عامية لا تنهض بمثل هذا العمل العظيم ، فضلا عن أن علوم الإسلام مستمدة من القرآن والحديث ، وهما في قمة اللسان العربي ، وأن الرابطة بينهم وبين الخليفة وبقية الممالك الإسلامية لا تكون إلا باللسان العربي .

ولذلك لم تجد هذه الممالك المستقلة بدًّا من اتخاذ العربية لغة الدين والعلم والأدب والسياسة دهراً طويلا ، وزادها في ذلك رغبة استيلاء أكثرها على مقر الخلافة ومنازعة الخليفة السلطة فيها وغلبتها على بعض البلاد العربية ، كالعراق والجزيرة . وطاول ملوكها الخلفاء في كل شيء من تعلم العلم والأدب والفصاحة ، ونافسوهم في اقتناء الكتب وتقريب العلماء إليهم ونفحهم بالمال العظيم واتخاذ الوزراء ورؤساء الدواوين من علية الكتاب وفحول البلغاء ، وقصارى القول أن العربية بقيت غالبة على أكثر مرافق هذه الدول إلا ألسنة العامة التي غزتها العامية .

ولكن سلطان اللغة قد تقلص في أرجاء القاصية ، وقل عدد المتكلمين بها من العامة والدهماء بجلاء العناصر العربية منها أو اندماجها في غيرها ، بحيث لم يمض قرن من العصر العباسي الثاني حتى كانت اللغات الوطنية الأعجمية لشعوب المشرق هي اللغات المتداولة في التفاهم والتعامل ، وبقيت العربية الفصحى مستعملة في رسوم الدول ، وفي تفاهم الخواص في بعض الأحوال، إذ كان جل ملوك المشرق وقتئذ يجيدون العربية والفارسية ولسانهم الوطني إن لم يكونوا فرساً ، ويلمون بآداب العرب والفرس ، بل كان كثير منهم شعراء بالعربية والفارسية ، وكانت الآداب الفارسية تلي العربية عندهم في المنزلة والكرامة ، وحاول كثير

من ملوك المشرق ، ولا سيما ملوك القاصية كالسامانية والغزنوية أن يستعيدوا مجد اللسان الفارسي ، وينقلوا إليه علوم الإسلام والعلوم التى نقلت إليه فعز عليهم ذلك ، وغاية ما أمكن علماءهم وشعراءهم إحياء شيء من الأدب والتاريخ، إذ لم يكن بهما حاجة شديدة إلى الأوضاع العربية واصطلاحها ، كما فعل ذلك الأمير نصر السامانى أمير بخارى وخراسان ، إذ أمر أحد علماء عصره فنقل كتاب كليلة ودمنة إلى فارسية زمانه ، ونظمه شاعره رودكى حسن بالفارسية أيضاً ، وكذلك أمر بهرام شاه الغزنوى أبا المعالى نصر الله بن محمد بن الحميد بنقل هذا الكتاب إلى الفارسية من نسخة ابن المقفع نفسها ، وجدد الترجمة بعده المولى حسن الكاشفى .

وأمر نوح بن منصور السامانى شاعره الدقيق بنظم الشاهنامة فى تاريخ الفرس ومفاخرهم وأيامهم ومبلغ عظمتهم ، فنظم شيئاً منها ، ومن الغريب أن السلطان محمود الغزنوى التركى بذل جهده فى إتمامها ، فنظمها له الفردوسى فى ستين ألف بيت أبتعد فيها عن الألفاظ العربية كل الابتعاد . وهى عندهم قرآن اللغة الفارسية فى الفصاحة .

وهكذا كان ملوك المشرق من غير الفرس كالدولة الغزنوية والسلجوقية أشد عصبية وانتصاراً للفارسية من أهلها ، ولعلهم كانوا يتحببون بذلك إلى رعاياهم إذ كان أجلهم من الفرس ، والتركية يومئذ ليست لغة علم ولا أدب . فما زالت سلجوقية المشرق وملوك خوارزم يعملون على إحياء الفارسية وآدابها ونقل العلوم إليها حتى أوشكت أن تزاحم العربية قبيل غارة التتار .

فلما خرج التتار من صحراء المغول اكتسح سيلهم فى طريقه أثر العربية وهاض الإسلام إلى ما به ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ، فكان ذلك آخر العهد بامتداد سلطان العربية السياسى بالمشرق ، وبقى لها بعض السلطة الدينية والعلمية بين العلماء خاصة حتى عصرنا هذا.

وقد بقيت أغراض اللغة كما كانت فى أواخر القرن الماضى أكثر من نصف قرن مدة عظمة الدولة البويهية والسامانية أو زادت ؛ إذ كانت الدولة الأولى منهما تدخل فى حوزة بعض ملوكها بغداد والعراق وأكثر الجزيرة وهى بلاد عربية ، والثانية تدخل فى حوزتها

بخارى ومدن خراسان العظيمة ، وكانت آهلة بأهل العلم وكان ملوك هاتين الدولتين يباهى بعضهم بعضاً بتعضيد العلم وترغيب العلماء والأدباء والمؤلفين والأطباء ، منافسة لخلفاء بغداد ومصر أن يستأثروا بعقبة ترغب فيهم أهل الفضل فوق منقبة النسب .

ولما خفت صوت هاتين الدولتين فى الشرق ، وورثتهما الغزنوية والسلجوقية وهما تركيتان مصطبغتان بصبغة الفرس ، وكان أمر خلفاء بغداد ومصر قد هان ووهن ، وأحس الرعايا من الفرس والترك باستقلال جنسهم ونشت بالتدريج العصبية الجنسية بين هذه الأمم ، فتناقصت أغراض اللغة العربية وموضوعاتها فى الآداب ، وزادت فى العلوم ، إذ كانت الأولى فى غير حاجة إلى مواضعة واصطلاح ، والثانية لا تستقل بها لغة إلا بعد جهاد علمى طويل .

فنشأ فى هـــذه المدة كثير من شعراء الفرس وأدبائهم ، نظموا القصائد الطنانة ، والقطعات الجيلة ، بلغتهم ، وثنوا بترجمة كثير من كتب الآداب والحـكمة والأخلاق بلغتهم ، وخاصة ما كان منها فارسى الأصل .

وزادت موضوعات العلوم على العصر الماضى عـــلوم السياسة والعمران وتدبير الممالك والمنازل والاقتصاد وفنون الحرب وآلاته ، وتعددت رحلات العلماء والسياح . فـكتبوا كثيراً من أخبار المسالك والممالك ، وشرحت العلوم الدخيلة وفصلت وكملت ، وأضيف إليها كثير من استنتاج علماء المسلمين ، وتألفت شوارد الـكيمياء وصارت علماً متميزاً ، فتقدم بهذه الأعمال العظيمة الطب والفلك وعلوم الحـكمة والـكلام والمنطق وألفت فيها كتب كثيرة ، وكان للفارابى وابن سينا والرازى فى أواخر العصر المـاضى وأوائل هذا العصر أبقى أثر فى ذلك .

أما العلوم اللسانية والشرعية فلم يحدث فيهما وضع جديد إلا تـكملة بعض الفروع واختلاف فى المذاهب ، وكان أوفرها نصيباً من عناية الباحثين البلاغة ، فقد صارت علماً مستقلا فى هذا العصر بفضل عبد القاهر والسكاكى والزمخشرى . . وقد كان حظ العلم فى ممالك المشرق أعظم من حظ الادب ، لأن العلوم صناعات ذات أثر عملى سريع فى تقدم

الممالك واستيفاء عدتها ومرافقها ، فكانت أولى بالعناية والتأييد ، ويضاعف فى هذه العناية قيام كثير من دول الشرق فى آن واحد أو فى أزمان متتالية ، وكل دولة جديدة تحتاج فى تأييد حضارتها وملكها إلى اصطناع أهل الذكر فى العلوم الصناعية . . أما الآداب فآثارها نفسية تكفى فى بثها لغة الوطن ، بل ربما فضلت غيرها فيه . ولولا الإسلام وانتشار لوائه وعلومه وقرآنه على هذه الأرجاء للحق لغة العلوم ما لحق لغة الأدب .

وكان للعلوم أبلغ التأثير فى ترقية الفكر والخيال والوجدان ورقة معانى اللغة فى مبدأ هذا العصر ، وما استنبطه مجتهدو المذاهب وابتدعه علماء الكلام والفلاسفة والأطباء كالباقلانى وإمام الحرمين والغزالى والفخر الرازى والفارابى وابن سينا وأبى بكر الرازى ، وابتدعه المتنبى وأبو العلاء المعرى فى الشعر ، واخترعه ابن العميد والصابى والبديع والخوارزمى والحريرى فى الكتابة . كل ذلك كان ثمرة ذلك الغراس . ثم تقاصرت الهمم فى العلوم والآداب وقلت عناية الملوك والرؤساء باستجادتها ، وشغل الناس عنها بتفاقم الفتن وانتشار الهرج فى الشرق الأقصى وإغارة الصليبيين بالشرق الأدنى ، فخمدت جذوة العقول ، وفترت حركة الخيال ، ووقفت الاستزادة فى العلوم بالابتكار والاختراع ، وأعيا الأدباء من الكتاب والشعراء تصور المعانى الفخمة ، فأربوا على من سبقهم فى المبالغة الممقوتة ، وراقهم زبرج اللفظ حين فاتهم شرف المعنى . . وقد هجر فى المشرق استعمال الغريب بالتدريج ، وزاد استعمال الألفاظ الفارسية فى أوائل هذا العصر ، ثم دخل اللغة كثير من الألفاظ التركية ، ونسيت بالتدريج الأساليب البليغة والعبارات الحصيفة وزاد استعمال الصناعة اللفظية البديعية ، فكان للسجع والطباق والجناس والاستعارة الغلب على كل مقال خطابة وترسلا وشعراً . بل دخلت إلى كتب العلم . وازداد الترسم للألقاب والعنوانات واصطلاح العلوم والدواوين ونحو ذلك ، وغلب على العلماء استعمال العبارات المنطقية أو الجدلية فاضطروا إلى اختصار البرهانات والأقيسة ، وصعبت عبارة العلم على الناشئين بل على الشداة وخاصة علوم الكلام والأصول والفلسفة .

أما لغة تخاطب الخاصة من الخلفاء والرؤساء والعلماء فكانت فى الشرق وسطا بين

الفصيحة وعامية زمانهم لقلة أخذهم باللغة الفصيحة من صغرهم ، إذ كان القيم على الخليفة وأهل بيته من الديلم أو الترك أو النساء وأكثرهن من جوارى القصر ، ولأن أكثر الرؤساء كانوا من الأعاجم الذين لم يغلبوا على السلطان إلا بالقوة والاغتصاب لا بعلم ولا حسن تربية ، والناس على دين ملوكهم . . وأما لغة تخاطب العامة فكانت هى اللغات الأعجمية الوطنية لهذه الأرجاء ، وأهمها الفارسية الحديثة لانقراض العناصر العربية من العامة باندماجها فى غيرها ، وَفشو الجهل بينها ، وقد قصد أبو الطيب عضد الدولة بفارس ، فما زايل بغداد ، حتى وقع فى عجمة لا إفصاح معها وأنشأ من قصيدة له يقول :

مغانى الشعب طيباً فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

٢ ـ وتأثير الانقسام السياسى فى المغرب ـ ونعنى به (بلاد الجزيرة والثغور والشام ومصر ـ واضح ، وكانت حالة اللغة العربية فيها تباين حالها فى الممالك الشرقية ، إذ كان حكامها وشعوبها القاطنون بها إما سلائل عربية أو مستعربة لم يعد للعجمة أثر بينهم ، لأن معظم هذه الممالك كان يكون تابعاً لصاحب مصر فى غالب الأحيان ، فالحوادث التى تؤثر فى أحوالها واحدة : . ولما غلب متغلبو الفرس والترك على خلفاء بنى العباس لم يجد أمراء العرب وجهاً لخضوعهم لهؤلاء المتغلبين ، فاستقلوا هم أيضا بالجهات التى كانت تنزلها قبائلهم ،ووجد الخلفاء الفاطميون بالمغرب أنهم أولى من هؤلاء الديالم والأتراك ، فاكتسحوا مصر والشام وبعض الجزيرة واستولوا على الحجاز وأسسوا دولة عربية ضخمة بقيت نحو ٢٥٠ سنة ، ثم ضعف أمرهم بغارة الصليبيين ومنازعة مواليهم ووزرائهم لهم فى السلطان على مثل ما كان فى الدولة العباسية ، حتى أبادهم صلاح الدين الأيوبى ، وأسس هو وأولاده وأولاد أخيه وأحفادهم دولة كردية النسب عربية اللسان وَالنزعة ، وبقيت دولتهم حتى انتزعها منهم مواليهم من المماليك ، وسقطت أثناء ذلك الدولة العباسية .

ومن أمراء العرب الذين استقلوا ببعض الإمارات فى أواخر العصر الأول إلى أواسط

الثانى ، بنو حمدان بالجزيرة وحلب ثم بنو عقيل وبنو منقذ فى هذه البلاد أيضاً ، وبنو أسد بالحلة وكان أكثرهم فصحاء شعراء يجزلون عطايا الشعراء ويكرمون الأدباء .

ولهذا بقيت العربية زاهية زاهرة فى هذه الممالك غالبة على لسان أهليها ، ولبثت الآداب من الشعر والخطابة والكتابة متمكنة من ملكات أدبائها إلى عصرنا هذا ، على حين أنها انقرضت من ممالك المشرق منذ أواسط القرن السادس ، ولكن قرب الجوار أعداها ببعض ما اعترى اللغة من الصبغة الفارسية فى العصر الأول والثانى .

وكان اشتغال أهل هذه الأقاليم بالأدب يربو على اشتغال المشرق حتى بغداد ، كما كان انكباب هؤلاء على العلوم العقلية واستخراج نفائسها ودقائقها لا يعادلهم فيه أحد ، وكانت أساليب اللغة فى المغرب ترق وتسهل فى الزمن الذى كان ترك وتصعب فيه فى المشرق .

وقد كانت لغة تخاطب أهل هذه البلاد ولا تزال عربية الصبغة ، بينما كانت فى ممالك المشرق أعجمية ، وكانت الآداب العامية فى المغرب التى تظهر فى المواويل ، والأزجال ، قريبة إلى أصول العربية قرباً شديداً .

٣ ـ أما اللغة فى الجزيرة العربية نفسها فقد بقيت سليمة فى البادية مدة طويلة ، ولذلك كان الرواة واللغويون والنحاة يستمدون شواهدهم منها ، ويجمعون أخبار العرب وأدبهم من ألسنة أهليها ، ينتقلون إلى الأعراب فى مضاربهم ، أو ينتقل الأعراب إليهم فى حواضرهم حيث السلامة غالبة إلى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس . أما لغة الحواضر فى الجزيرة العربية ، فقد دب إليها بعض الفساد بتأثير الاختلاط وخاصة فى مواسم الحج ، وكذلك كان الحال فى إقليم صحار من البادية ، فقد كان نداء أهله وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس ، إلا أن اللسان عربى ، وبعض المواطن لحصانة موقعه وبعده وتشدد أهله فى معاملة الغريب ، قد ظل بمنأى عن الفساد مثل عكاد ، فأهله باقون على اللغة العربية إلى عهد قريب .

٤ ـ وبعد فإن الانقسام السياسى لم ينتقص العربية شيئاً من القدر الذى وجدها عليه . فقد حفظ لها البقاء فى نطاقها الذى وقفت عنده ، فبقيت كما كانت لسان العمل الحكومى فى

الدواوين ولغة الدرس والتأليف فى العلم ،وميدان التنافس والتسابق فى الأدب . بل لقد عمل هذا الانقسام على انتشار الفصحى أكثر من ذى قبل ، حيث انفتح لنشاطها آفاق جديدة ، واتجهت إليها الرعاية والمنافسة فى تلك الدواوين التى نشأت، وتلك المراكز العلمية ،والندوات الأدبية التى تعددت وضارعت أو فاقت بغداد .

غير أن هذا الانقسام قد عرض لغة العلم والأدب فى مواطنها الجـــديدة لهجات من الأعجمى والعامى .

على أن بعض هذه البقاع الجديدة التى انفتحت أمام الفصحى فى المشرق لم تدم لها طويلا، فسادتها الفارسية ، وآدابها .

تأثير الانقسام السياسى فى الأدب :

كان من أثر نشوء هذه الدول فى العالم الإسلامى أن نشأت مواطن جديدة للأدب ، وأخذ النثر والشعر ينتشران فى مراكز كثيرة ، هى غالبا عواصم هذه الدول الناشئة .

وكان الخليفة الراضى فيما يروى آخر خليفة دون له شعر ، ولم يعد العراق وحده ملاذ الأدب وموئله ، بل نشأ فى الإمارات المستقلة حواضر زاحمت بغداد فى الشعر والأدب وحمل رسالة الثقافة العربية الإسلامية ، نذكر من ذلك مدينة حلب عاصمة الحمدانيين ، فقد جذبت إليها الأدباء والشعراء والعلماء والفلاسفة ، ووجدنا بها أمثال : ابن خالويه ، وابن نباتة ، وأبى فراس ، والمتنبى والنامى والفارابى والسرى الرفاء والخالديين ، وكانت الرى وشيراز وجرجان وأصفهان بتشجيع البويهيين ومن اتصل بهم : كابن العميد والصابى والصاحب بن عباد مراكز كبيرة للثقافة والأدب ، وعطفهم على العلم والعلماء مشهور ، وقس على ذلك ما كان يفعله السامانيون ، وكذلك ما كان يجرى فى سائر الدول الناشئة فى فارس والعراق والشام ومصر والمغرب ، وقد ظلت العربية لغة الأدب والدين والسياسة فى أكثر البلاد الإسلامية إلى أيام العثمانيين ، بتأثير رعاية الملوك لها ، وحدبهم عليها .

وكان الأمراء من عرب وغير عرب يتنافسون فى العطف على الأدباء والعلماء ، وفى جمع الـكتب ، وخدمة العلم ، وأظهر من فعل ذلك من غير العرب الأيوبيون ، وهذا التنافس

فى تشجيع الأدب كان هو العامل الأول فى ازدهار الأدب العربى مع ضعف العرب وذهاب السيادة من أيديهم، فابن سينا م ٤٢٨ هـ نشأ فى دولة السامانيين فى بخارى وفى رعايتهم، والبيرونى م ٤٤٠ هـ استظل بعطف الغزنويين وحدبهم . وابن فارس اللغوى م ٣٩٠ هـ ألف كتابه (الصاحبى) للصاحب بن عباد، وابن مسكويه صحب ابن العميد وخدم بنى بويه ، وابن البيطار النباتى المشهور كان فى خدمة الملك الكامل الأيوبى ، أما المدن التى نافست بغداد أو زاحمتها فى تشجيع الأدب فمنها : القاهرة والقيروان وقرطبة وأشبيلية ، وحلب ودمشق وخوارزم ونيسابور وبخارى وطبرستان[1] وغزنة ، وسواها .

لقد أخذ ملوك الدويلات الناشئة ينافس بعضهم بعضا ، فى العلوم والآداب ، فجمعوا حولهم نوابغ العلماء ، والشعراء والكتاب ، وأجزلوا لهم العطاء ، فكانوا فى كل مملكة يبالغون فى مدح مليكها ، ويصفون مناظرها الطبيعية ويصورون آمال سكانها وآلامهم ، فتنوعت الآداب بتنوع الممالك ، لاختلاف البيئة والعادات فيها ، ونشأت الآداب القومية المختلفة ، التى يربطها جميعا اللسان العربى ، والذوق العربى فى جميع الأقاليم ، لأن اللغة العربية هى لغة الدين والثقافة ، وارتقى الأدب نظماً ونثراً ، مع ضعف الدولة السياسى ، وانقسامها ممالك صغيرة .

كان انقسام الدولة العباسية سبباً فى ضعفها من الوجهة السياسية ، أما من الجانب الأدبى ، فقد ازدهرت الآداب ونضجت ، ويرجع ذلك إلى :

١ ـ بقاء اللغة العربية الرسمية للدويلات الجديدة .

٢ ـ نضج العلوم التى وضعت أو ترجمت فى العصر العباسى الأول وظهور أثرها فى تنمية العقول وتوسيع المدارك .

٣ ـ تعدد الحواضر التى يقصدها الأدباء لعرض أدبهم ، فبعد أن كانت بغداد هى القبلة الوحيدة للأدباء ، أصبح أمامهم القاهرة وحلب وغيرهما من العواصم

(١) كان قابوس بن وشمكير أمير طبرستان ، وهو شاعر وكاتب وأديب معروف .

٤ – تنافس الأمراء فى جذب الأدباء إليهم ومنحهم وافر العطاء ليذيعوا صيتهم ويخلدوا ذكرهم .

٥ – رغبة كل أمير أن يقيم دولته على أساس من العلم والأدب ليكون محبوباً من رعيته .

٦ – تنافس الأدباء فيما بينهم وإجادتهم فيما يقولون لينالوا رضاء الأمراء والحكام ، وليحصلوا على جزيل عطائهم ، وسنى هباتهم .

فالأدب فى العصر العباسى الثانى قد تعددت مواطنه ، واتسعت عواصمه ، وتنافست هذه البيئات الأدبية الجديدة فى رعاية الأدب والأدباء ، وزاحمت بغداد فى تقريب الشعراء ، والعطف على العلماء ، ووجد رجال الأدب أمامهم مواطن عدة يهاجرون إلى ما يريدون منها ، وملوكاً كثاراً يستظلون بظل أى منهم وفق ما يريدون وحسبما يرون .

وقد اندفع الملوك إلى تشجيع الأدب والأدباء منافسة لبغداد وللخلافة ، وكسبا للذكر الحسن والثناء الجميل ، واستجابة من بعضهم لأصولهم وثقافتهم العربية ولأذواقهم وملكاتهم وفطرهم الأدبية .

وكسبت هذه العواصم الجديدة لنفسها ثروات أدبية كبيرة ، ونمت فيها بيئات الأدب ، ووجدت من يسجل نهضتها ، ويخلد حضارتها ، ويدون ثقافتها ، ويؤرخ لعلمائها وأدبائها وشعرائها ، فالثعالبى يؤلف (يتيمة الدهر) يستقصى فيها أخبار الأدب فى كل إقليم ، وفى ظل كل ملك أو أمير .

وقد تنافس الملوك والأمراء والوزراء والولاة فى تشجيع الأدب ورعاية الأدباء ، فابن العميد كان له أثره الضخم فى الحركة الأدبية ، وكذلك الصاحب بن عباد الذى يقول فيه الثعالبى : « احتفت به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى[1] قبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساروا فى طريقه ترسما وترسلا[2] ،

---

(١) ٣ : ٣٢ اليتيمة .   (٢) ٣ : ١٢٩ المرجع .

وكان يقترح عليهم الموضوعات ، وينقد شعرهم ، كما كان يرسل إلى بغداد كل عام خمسة آلاف دينار تفرق فيها على الفقهاء وأهل الأدب[١] ، وكان للوزير المهلبي في بغداد أثر كبير في الحياة الأدبية ، وكان ابن سعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة ويشملهم برعايته كأبي حيان التوحيدي وأستاذه أبي سليمان المنطقي . وكان سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفي بالأدب والأدباء ويرعى طائفة كبيرة منهم كالسلامي والحدوني والنامي وابن بابك وسواهم .

وتولى الصاحب بن عباد الوزارة لبني بويه ، قلده إياها مؤيد الدولة . ثم أقره فخر الدولة عام ٣٧٣ هـ ، وقد شجع الأدب والشعر والثقافة ، ورعى العلماء والأدباء والشعراء رعاية ظاهرة ، ويصفه الثعالبي فيقول: هو صدر الشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، ولما كان نادرة عطارد في البلاغة ، وواسطة عقد الدهر في السماحة جلب إليه من الآفاق كل خطاب جزل ، وقول فصل . وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعد في السحر ، ويكاد يدخل في حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتي الشرق والغرب ، واحتفى به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربي عددهم على شعراء الرشيد[٢] .

وذكر ابن خلكان أنه اجتمع عنده من الشعراء ما لم يجتمع عند غيره[٣] .

الحياة الاجتماعية وأثرها في الأدب :

— ١ —

١ — تعددت العناصر والأجناس في الخلافة العباسية ، فمن عرب إلى ترك وفرس وهنود ، وروم وزنوج ، وغيرهم . ولكل منهم مقوماته النفسية والثقافية والاجتماعية . ومع ذلك فإن الإسلام قد وحد بينهم جميعاً ، واللغة العربية الفصحى أو العامية كانت هي لغتهم

(١) ٧ : ١٨٠ المنتظم ، ويصف ابن خلكان ابن العميد فيقول : كان متوسعا في علوم الفلسفة والنجوم ، أما الأدب والترسل فلم يقاربه فيه أحد زمانه وكان يسمى الجاحظ الثاني (٢ : ٥٧ وفيات الأعيان).
(٢) ٣ : ١٦٩ وما بعدها اليتيمة . (٣) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان .

التى ينطق بها غالبيتهم ، وبجوارها اللغة الفارسية أو الهندية أو الرومية فى أقاليم هذه الفئات لغة ثانية تستعمل فى التخاطب وأحيانا قليلة فى العلم والثقافة . وقد وحد كذلك بين هذه العناصر والأجناس : الجوار والمصاهرة ، والاختلاط فى ميادين الحياة ، ومختلف أوجـــه نشاطها .

٢ ـ وكانت الثروات كبيرة فى هذا العصر نتيجة لاتساع التجارة والعمران والحضارة ونهضة الصناعة والزراعة ، وكانت المصادرة دائماً جزءاً من رأس مال الدولة ، إلى جانب الجباية ، وكان الدخـــل القومى مرتفعا ، لحرية التجارة ، وكثرة الذين يجوبون أنحاء العالم الإسلامى للمشاهدة والسياحة ، وكانت الثروات كثيرة ومذهلة عند الخاصة . أما العامة فكانت الحروب والمصادرات ، وعدم استقباب الأمن يؤثر بعض التأثير فى حياتهم ، إلى جانب الضرائب الفادحة التى تفرض عليهم .

٣ ـ وكثرت الجوارى والغلمان فى بيوت المترفين ، التى كانت تمتلىء بمجالس الغناء والشراب ، وتمج بكثير من مظاهر التأنق فى إقامة المآدب ، وفى الأثاث ، والمفروشات والملابس .

٤ ـ وكثرت ـ بتأثير تعدد العناصر ، واختلاف اتجاهات السياسة ـ الخصومات الدينية والعقلية ، وكان لأهل السنة والشيعة والمعتزلة أكبر الأثر فى هذه الخصومة الدينية والثقافية فى هذا العصر .

٥ ـ وتعددت العادات والتقاليد والأزياء ، والمواسم والأعياد والمواكب والحفلات ، وألوان اللهو فى هذا العصر .

— ٢ —

وقد أثرت الحياة الاجتماعية فى الأدب تأثيراً كبيراً ، فرأينا أدب الترف والنعيم يعيش فى مجالس الملوك والأمراء والوزراء والمترفين من وصف للمتنزهات والقصور ، والحفلات والمآدب ، ومجالس الغناء واللهو والترف ، ورأينا أدب الإخوانيات أو الرسائل الإخوانية يذيع فى هذا العصر ، ورأينا كذلك أدب الحرمان والفقر الذى كان صدى لحياة المحرومين

والمكدودين ، ومنه أدب الكدية (الأدب الساسانى[1]) الذى كان أدب المقامات لونا منه ، واشتهر من شعراء الكدية والصعلكة : الأحنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجى ، وللعكبرى دالية ساسانية ، وللخزرجى قصيدة رائية عارض فيها دالية العكبرى . . وذاع كذلك أدب الشكوى ، وأدب الزهد الذى كان ردا على أدب الترف . . كما شاع أدب المجون واللهو ، من وصف للخمر والغناء ومجالسهما ، ومن غزل بالجوارى والغلمان ، ومن عبث ، وتحلل مثلهما : ابن الحجاج ، وابن سكرة ، وشاع كذلك أدب النقد للمجتمع ولأوضاعه المختلفة . . إلى غير ذلك من مظاهر تأثير الحياة الاجتماعية فى الأدب .

الحياة العقلية وأثرها فى الأدب :

١ ـ انتشرت المدارس والمكتبات والعلوم فى هذا العصر ، وتعددت الثقافات ، وكثر الأساتذة والطلاب ، وقامت الحلقات العلمية والدينية واللغوية فى المساجد والكتاتيب فى كل مكان ، وقد كانت حركة الرقى العلمى أثراً للإسلام نفسه وحضه على المعرفة ، ولحركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية ، ولتنافس الأمراء فى العالم الإسلامى فى رعاية العلوم والثقافة ، وللرحلات العلمية ، بين عواصم الخلافة الإسلامية ، ولإنشاء المكتبات والمدارس والجامعات وكثرة حركة النسخ ، وتنافس العلماء فى خدمة المعرفة ، وحظوتهم لدى الملوك والأمراء ، ولكثرة الفرق وجدلها ومحاولة كل منها الغلبة على الفرق الأخرى .

وأخذت الحركة العقلية فى هذا العصر عن اليونان والفرس والهند وسواهم من الأمم العريقة فى الثقافة والحضارة بالترجمة والاقتباس ، مما ظهر فى الترجمات المختلفة ، ثم فى الاقتباس من العلوم والمعارف الأجنبية ، ثم فى تآليف العلماء والفلاسفة المسلمين .

٢ ـ وقد أثرت الحركة العقلية فى الأدب تأثيراً كبيراً ، فالعلوم الإسلامية والترجمة قد أمدت الأدب بكثير من المعانى والأفكار والأخيلة والموضوعات والأساليب . وقد ظهرت علوم الأدب ، وظهرت كذلك فنون النقد والموازنة ، وإعجاز القرآن والبلاغة . فأثرت فى نمو الأدب وازدهاره تأثيراً كبيراً وابتكرت فنون أدبية جديدة نشأت بتأثير نمو الثقافة

(١) نسبة إلى طبقة الساسانية التى احترفت الكدية .

والحركة العقلية كالأدب الفلسفى ، الذى كان منه لزوميات المعرى، وكأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، وسوى ذلك ، ولا شك أن الأدب القصصى ومنه فن المقامات مدين لنمو الثقافة والعلوم ومتأثر بالحركة العقلية فى العصر العباسى الثانى .

هذا بالإضافة إلى ظهور مصطلحات العلوم الجديدة وذيوعها فى أساليب بعض الأدباء والكتاب ، مما أثر فى أساليب الأدب وألفاظه تأثيرا واضحا فى هذا العصر .

وهذه العلوم قد فتحت مجالات واسعة أمام الكتاب والأدباء والشعراء للحديث عن مشكلات المجتمع والأخلاق والسياسة المدنية وتدبير الملك والفلسفة ، وسوى ذلك مسائل الحضارة ومباحثات التفكير ، على أن كثيراً من الأدباء قد اشتغل بعلوم الفلسفة والعلوم الجديدة ، كما أن كثيراً من العلماء قد كان الأدب هوايته ، وبذلك أصبح الفاصل بين الأدب والعلم ضئيلا ، ونشأ أثراً لذلك الشعر الفلسفى الذى يتجلى واضحاً فى لزوميات المعرى، وهو ديوان من الشعر ضمنه نتائج عزلته الفكرية خلال أربعين سنة ؛ من آراء فى الإلهيات والنبوات والمعجزات والأديان والوجود والزمان والمكان والمادة والصورة والقدم والخلود والحدوث والفناء والأفلاك والنجوم والروح والجسد ، والطبائع والأخلاق وسواها .

٣ ــ وكان التدوين فى المشرق سائراً فى منهج التقدم فى هـــذا العصر بل وفر عدد المتوفرين عليه ، وتمددت أغراضه وموضوعات علومه، وتنوعت أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة وسائط بينهما معتدلة ،ورغب العلماء والمصنفين فى الإفادة والاستفادة وجود عدة دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص أن تفوق الأخرى فى إحراز ووسائل القوة وعتاد الملك وترفيه العيش ، ولا يكون ذلك إلا بتأثيل الحضارة وتعضيد العلم ، وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء وتنافسوا فى ضمهم إلى مجالسهم ، وأغراهم هؤلاء بتأليفهم الكتب بأسمائهم واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم ،فكثرت الكتب والمصنفات فى العلوم التى وضعت فى العصر العباسى الأول وفى علوم أخرى اشتقت منها كعلوم الأخلاق وآداب الملوك ، وسياسة الملك ، وقيادة الحرب ، وتعبئة الجيوش، واستعمال الأسلحة وتدبير المال وتصرف وجوه الكسب فى التجارة وتدبير المنزل والبحث فى معرفة أسباب العمران،

واتسع مجال البحث فى الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الحيل ، والمنطق والكلام وعلم النفس ، وسائر العلوم الحكمية والدخيلة ، فثبتت أصولها ، وتشعبت فروعها ، وتعددت المذاهب ، وأصبحت بعيدة الشبه بأصولها اليونانية ، وانصبغت بصبغة إسلامية ، وامتزجت بكل فن حتى الأدب والشعر .

واستفحل أمر اختراع الأساطير والأسمار الخرافية وقصص الشجعان ، واستمر الحال على ذلك فى الدول البويهية والسامانية والغزنوية حتى جاءت السلجوقية فكان لها أيضا على عصبيتها مساعدة للعلم بإنشاء المدارس الخاصة بالتدريس وتوظيف الوظائف والجرايات للعلماء والطلاب وتخصيص كل عالم بعلم ومرتبة . وكان التدريس قبل فى المساجد على غير نظام محدود أو جراية دائمة ، وحاكتهم فى ذلك الممالك المجاورة ، وأشهر مدرسة من هذا النوع هى المدرسة النظامية ببغداد ، شرع فى بنائها نظام الملك أبو على الحسن بن على الطوسى سنة ٤٥٧ وافتتحت للتدريس سنة ٤٥٩ ، ثم كان له ولغيره مدارس أخرى على هذا النمط بالرى ونيسابور وهراة وبخارى ، وكان يكون غالبا بجانب هذه المدارس أربطة للصوفية والسابلة وكتاتيب لصغار المتعلمين ، ودور كتب عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب ، غير خزائن كتب الملوك والوزراء التى كانت تحوى مئات الألوف من المجلدات .

ثم فترت هذه الحركة فى المشرق بضعف ممالكه واستعجام حكوماتها واستيلاء الجهل على رؤسائها قبيل إغارة التتار وأثناء غلبة الدولة الخوارزمشاهية ، حتى اجتث سيل التتار الجميع ، وطمس فى المشرق آثار العرب والمتعربين بإبادة العلماء وتحريق الكتب .

وكانت طريقة التأليف فى العلوم اللسانية والشرعية يحرص فيها على ذكر الروايات باختلاف طرقها ، وإثبات أسانيدها ، وأشد ما روعى ذلك فى الحديث والتفسير ، ثم يلى ذلك كتب الأدب كالأغانى ، ثم يلى هذا التاريخ . وفى أواسط هذا العصر وأواخره أهملت هذه الطريقة فى كتب الأدب وقل الإطناب ، واكتفى من الروايات بذكر محصلها ، واختصرت القواعد والأحكام ، وأدخلت تحت حدود وضوابط عامة وخصوصا كتب الفقه والأصول والنحو لاتساع دائرة العلوم ؛ وضيق العمر عن الإحاطة بالمطولات .

أما العلوم الدخيلة فقد كانت ترجمت وهذبت وصححت ونبغ فيها فطاحل تصرفوا فيها وتعمقوا فى إيجاز عباراتها وإخفائها على غيرهم من الفقهاء المنكرين عليهم حتى كادت كتب الحكمة والتوحيد حتى كادت كتب الحكمة والتوحيد يكون لها لسان قائم بنفسه ، وبقيت هذه الطريقة مراعاة فى كتبها حتى سكنت ريح التأليف فى العلوم العقلية أواخر القرن الثامن ، غير أنه كان هناك جماعة من الحكماء ضجروا من كتم علوم الفلسفة وإغماض عباراتها ، فتآخوا على بث علومها وإيجاد الصلات بينها وبين مسائل الشرع وعقائد الدين، وألفوا بعبارة سهلة عدة رسائل فيها سموها رسائل إخوان الصفا ، وأخفوا أسماءهم ، وما لبثت أن عرفت وأقبل الناس عليها درسا ومحاكاة وهى باقية إلى وقتنا هذا مطبوعة بمصر والهند وأوربا وغيرها ، وترجمت إلى كثير من اللغات . . وظهر فى هذا العصر فى كل فن من العلوم اللسانية والدخيلة رسائل مكتبية لأحداث المبتدئين روعى فيها الاقتصار على أصول القواعد بعبارة سهلة ، فكانت أفضل وسائل نشر العلم فى هذا العصر .

ومن العلوم التى ألف فيها فى هذا العصر علوم الأدب، فقد انقضى العصر الأول وقد فرغ العلماء والرواة من جمع أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور ، وانضم إليها أخبار الفتوح والمغازى وَسير الخلفاء والقواد البلغاء، فينعت بها قرائح الأدباء ، ولهجت بها ألسنة الندماء والسمار ، وفاضت أقلام الكتاب ، وَبقيت أخبار المحدثين وَبلاغة المولدين وَنوادرهم وأشعارهم وَجدهم وهزلهم مجالا لعناية مصنفى الأدب من أهل عصرهم، وتلك سلسلة لا تنقطع مادام للغة حياة، وللأمة سلطان وحضارة ، وللقرائح حرية ، وللعلماء مكانة ، وبعض ذلك قد كان بالمشرق فى مبدأ هذا العصر إلى أواسط القرن الخامس .

ولا غرو أن جاء هذا العصر وللأدب أقلام سيالة فى أيدى كتابهم ثمرة العصر الماضى ونقلة آثاره للعصور الخالفة ، ضموا ما كتبه سلفهم من كتب أو حدثوه من روايات إلى ما عرفوه وشاهدوه وسمعوه ، وأودعوا الجميع كتبا مطولة جامعة لكثير من فنون الأدب المتنوعة أو رسائل قاصرة على فن منه ، وكثير من الكتب المطولة لم يكن لجامعيها كفاية كثيرة

فيها فوق الربط بين العبارات المنقولة والشواهد الموردة ككتاب الأغانى وأكثر كتب أبى منصور الثعالبى ، وكتاب الفرج بعد الشدة وكثير من كتب الأمالى والمجالس. ومنها ما هو ابتداع بحت ككتب المقامات للبديع والحريرى والزمخشرى ، وكتب نقد الشعر والموازنة بين الشعراء وكتب الأدب الممزوجة بمباحث البلاغة .

ومن توابع كتب الأدب المبتدعة كتب الأسمار والخرافات والأساطير والقصص الحكمية الحكية على ألسنة الحيوان وسير الأبطال والشجعان ، وابتدأ الأدباء يعنون بوضعها أو ترجمتها منذ صارت المنادمة والسمر صناعة فريق عظيم منهم أى منذ زمن الواثق إلى آخر الدولة حين استبد الجند من الأتراك ثم الديالم من بعدهم على الخلفاء وآل العباس وكفوا أيديهم عن العمل فى شؤون المملكة وقصروهم على المقام فى قصورهم وقلت العناية بتربيتهم فلم يجدوا ما يقضون به أوقاتهم ويخففون عنهم ضجر بطالتهم ، غير مجاذبة أسباب اللهو والجلوس إلى الندماء والسمار ومطالعة القصص والخرافات واللعب بالشطرنج أو النرد ونحوها ، وبذلك وجد كثير من هذه الكتب فى العصر الماضى ، واتسعت دائرتها فى هذا العصر ، وصار كل سامر ونديم يزيد فى أصل كل قصة نادرة طريفة أو شعراً يناسبها ويزخرفها بأنواع الغرائب والتهاويل ، وأخبار الجن والسحرة ، وأعمال الشجعان التى تخرج عن الطوق . وقد ذكر ابن النديم فى فهرسته عدداً وافراً من هذه الكتب .

ومن كتب الأسمار التى ترجمت فى المشرق أواخر العصر الماضى ، وفرعت بما أضيف إليها فى هذا العصر وما بعده إلى وقتنا هذا كتاب ألف ليلة وليلة . وأصله من وضع الفرس، وكان يسمى بلغتهم (هزارافسان) ى كتاب اللهو والخرافات، ولا يعلم أصل مترجمه، وابتعد بما أضيف إليه من الحكايات البغدادية والمصرية من أصله، ولا يزال عليه بعد مسحة فارسية.

وراق الأوربيين هذا الكتاب فترجموه إلى جميع لغاتهم محافظين على أصله أو متصرفين فيه ، ويسمونه الليالى العربية ، ويعدونه من أجل الآداب العربية ، وهو عند العرب كذلك، ووصفه ابن النديم قبل إدخال كثير من الحكايات البغدادية والمصرية فيه فقال: إنه «غث بارد» وهو عند ذوى الذوق السليم من أدباء العرب من الكتب الخالدة ، وفى كتاب « ألف

ليلة » كثير من الألفاظ والعبارات العامية لأجيال مختلفة ، ويشتمل فوق هذا على كثير من العادات والأخلاق والآداب والخيالات والتصورات للحياة الاجتماعية فى العصور القديمة..

٤ — أما فى المغرب ، فقد كان اشتغال علماء الجزيرة والشام بتدوين العلوم الأدبية والشرعية والتاريخ لا يقل عن اشتغال علماء المشرق ، غير أن استيلاء بنى حمدان وبنى عقيل وبنى منقذ والفاطميين على هذه الممالك أكثر من ثلاثمائة سنة ، والجميع شيعة غالية ، جعل قرائح علمائها تنصرف إلى تدوين فقه الشيعة والتفنن فيه وفى عقائدهم . وكان هؤلاء الخلفاء والأمراء أولى شغف عظيم بالحكمة والنجامة وسائر العلوم العقلية والطبيعية . فدون لهم علماؤهم فيها وفى فقههم وعقائدهم ألوف الكتب ،وجمعوا فى دور كتبهم وخزائنهم منها ومن كتب غيرهم مئات الألوف من المجلدات فى مصر القاهرة وطرابلس الشام ودمشق وحلب وغيرها ، فلما توالت المحن والمصائب على بلاد الجزيرة والشام بالثورات الأهلية وبغارة الصليبيين وأحرقت المدن وخربت انقرضت الكتب وعفت آثارها . ويقال إن دار الكتب التى أحرقها الصليبيون بطرابلس الشام كانت تحتوى على ثلاثة آلاف ألف مجلد ، ولو قدر أن هذا العدد مبالغ فيه إلى عشرة أمثاله لكانت البقية شيئاً جما . وعقب هذا ما قام به صلاح الدين الأيوبى من تبديد كتب الفاطميين وبيعها للوراقين وأصحاب المواقد تمفية لآثارهم وتدميراً على عقائدهم ، ففقد مع كتبهم شىء خطير من كتب غيرهم وبقيت الكتب الأدبية والتاريخية اقتناها واحتبسها منها لنفسه القاضى الفاضل ، ومن خزائنه انتشرت فى بقاع الأرض .

وفى عصر الدولة الأيوبية كانت حركة التدوين منصرفة إلى تنويع كتب الحديث وتجديد فقه الشافعية والمالكية وتأييد مذهب الأشاعرة فى الكلام وسير الأبطال والغزوات بمعاضدة صلاح الدين وآل بيته . فألفت فى جميع ذلك كتب مختلفة لا يزال كثير منها باقياً بعد .

ومع كل هذا لم تصل عناية علماء هذه الممالك بتدوين العلوم ولا سيما العقلية منها مبلغ عناية علماء المشارقة لتأثير عظمة بغداد والمدرسة النظامية فى الشرق ، ولاشتغال بال المسلمين فى الجزيرة والشام ومصر بالغارات الصليبية أكثر من مائتى سنة ، وأعقبها غارة التتار المشئومة على الجميع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

كانت كتابة التأليف فى المغرب على نحـــو ما كانت عليه فى المشرق من حيث النظام والتقسيم ، غير أنها كانت أقرب إلى الفصاحة والسهولة ووضوح المعانى والأغراض وتحرير العبارة وإحكامها ، من كتابة المشارقة. ويظهر هذا الفرق كل الظهور فى كتب العلم وخاصة كتب فقه الشافعية أواخر هذا العصر . أما كتب المالكية فبقيت خالية من مزايا صناعة التأليف حتى أتى ابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ هـ وعمل مختصره فكان من أجل كتبهم .

وكان الأدب فى الجزيرة والشام ومصر فاشياً فى كتابة الدواوين ، وقول الشعر وحفظ مادته ورواية أخباره ومحاضرته أكثر من فشوه فى صناعة التأليف ، فكان الأدباء جلهم شعراء أو كتاباً بحيث لم يغلب على أديب منهم التأليف فى الأدب حتى نعده فى عداد كتابه فحسب ، بل إن كثيراً من العلماء والمؤرخين والمحدثين والنحاة كانت لهم كتب فى الأدب كما كانت لهم فى فنونهم .

ومن أفضل من صنف فى الأدب من الشعراء أبو العلاء المعرى ، ومن الكتاب العماد الكاتب الأصبهانى والقاضى الفاضل، وعلى بن ظافر صاحب بدائع البدائه المتوفى سنة ٦٢٣هـ، وعلى بن منجب بن الصيرفى المصرى المتوفى بعد سنة ٥٥٠ هـ ، وابن الأثير نصر بن محمد المتوفى سنة ٦٣٧ هـ . ومن المؤرخين محمد بن عبيد الله المسبحى المؤرخ المشهور المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، والحسن بن إبراهيم بن زولاق المصرى المتوفى سنة ٣٨٧ ، والقاضى على ابن يوسف القفطى ثم الحلبى المتوفى سنة ٦٤٦ وغيرهم ودخل فى غمار كتاب الأدب فى الجزيرة والشام ومصر أزمان الحروب الصليبية جماعة صنفوا قصصاً حماسية تتضمن سير الشجعان ومكايد الحروب ويرجع أكثرها إلى أصول تاريخية بولغ فيها . منها قصة عنترة ابن شداد وزاد فيها القصاص على طول الزمان أشعاراً ووقائع ، ويغلب على عبارتها السجع ، وقصة ذات الهمة ، ويظن أن مؤلفها لم يتمها وكثير غيرها من كتب القصص التى حوكى بها كتب المغازى وفتوح البلدان ، وهى محشوة بالمبالغات ومكتوبة بعبارة منحطة عن كتابة أصحاب المغازى ، والتبس أمرها على بعض من يتعاطى التأليف فى زماننا فذكرها فى عداد كتب الواقدى وابن إسحق وغيرهما لأن بعض الناسخين نحلها هذه الأسماء كما نحلوا رواية قصة عنترة الأصمعى ، وعدوه ممن عمر وأدرك الجاهلية والإسلام .

الادب فى العصر العباسى الثانى

شمل العصر العباسى الثانى نهضة أدبية مزدهرة ، عمت جميع ألوان الأدب وفنونه ، وتناولت موضوعاته وصوره وأشكاله ، وأخيلته ومعانيه وأساليبه وألفاظه ، بالتحوير والتجديد ، وسار التجديد فى سبيله فى ظلال الدولتين : البويهية والسلجوقية معاً .

الأدب فى ظلال البويهيين :

١ ـ تأثر الأدب والأدباء فى العهد البويهى بالحياة السياسية والاجتماعية والعقلية تأثراً واضحا . كذلك كان للبيئة والطبيعة ، أثرها الواضح فى الأدب فى هذا العصر ، وقد أثرت الروح الفارسية ، والحياة الدينية ، كذلك فى الأدب . . هذا بالإضافة إلى تشجيع ملوك بنى بويه ووزرائهم للأدب والأدباء . . مما كان من أثره ازدهار النهضة الأدبية ازدهاراً عظيما لم يصل إليه الأدب فى أى عصر من عصوره .

٢ ـ وقد كان من عوامل النهضة الأدبية فى هذا العهد ، وأسبابها أن بعض ملوك بنى بويه تفرغوا للأدب والشعر ، فعز الدولة وأبو العباس ابن ركن الدولة كانا شاعرين ، وتاج الدولة بن عضد الدولة كان آدب آل بويه وأشعرهم ، وكان يلى الأهواز ، وعضد الدولة كان شاعراً وأديبا ، وقد قصده فحول الشعراء من أطراف البلاد كالمتنبى وغيره ، وقال فيه الثعالبى : « كان يتفرغ للأدب ، ويتشاغل بالكتب ، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، ويقول شعراً كثيرا »[1] .

واستوزر البويهيون أبرع الكتاب وأبرزهم ، من مثل : ابن العميد والصاحب والمهلبى ، وسواهم . وكان ابن سعدان من وزرائهم يميل إلى الفلسفة ، وكان ابن العميد يميل إلى العلم ، وكان المهلبى والصاحب يميلان إلى الأدب وكان سابور بن أردشير يحب الكتب ويعنى بها ، وأنشأ مكتبة كبيرة فى بغداد عام ٣٨١ هـ . . ويقول الثعالبى فى ابن العميد : والكثيرون جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساروا فى طريقه ترسما وترسلا[2] .

---

(١) ٢ : ٢ اليتيمة .   (٢) ٣ : ١٢٩ اليتيمة .

وكذلك كان الصاحب (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ) ، التف الأدباء والشعراء حوله ، وعاشوا فى كنفه وعطفه ، وبره، وحدبه[1] . . . وكان المهلبى أديبا كاتبا شاعراً، يترسل ترسلا مليحا، ويقول الشعر قولا لطيفا يضرب بمحسنه المثل[2] .

وقد اجتهد الأدباء والشعراء فى العهد البويهى فى التأنق فى الأسلوب واستعمال المحسنات البديعية ، وكان رأسهم فى ذلك ابن العميد ، وقلده الأدباء والكتاب فى طريقته . وكان الصاحب شديد الولع بالسجع إلى حد الإفراط ، وكذلك كان الصابى[3] الذى يقول فيه ابن خفاجة : « من كتاب المحدثين من كان يستعمل السجع ولا يكاد يخل به ، وهو أبو إسحاق الصابى » وكانت المبالغة والإفراط فى المعانى واضحة فى أدب هذا العصر .

الأدب فى ظلال السلجوقيين :

وسار الأدب فى طريقة الرسوم فى العصر السلجوقى أيضا ، لا لشىء إلا أثراً للنهضة الأدبية السالفة . أما تشجيعهم للأدب والشعر فقد كان معدوما ، لأنهم أتراك لا إدراك لهم فى الأدب ، ولا ذوق عندهم فى الشعر ، ولا ثقافة لهم فى علوم العربية ومعارفها ، ولأنهم كانوا جد مشغولين بالحروب ، وحفظ سلطانهم من الدسائس والفتن . فلم يشجعوا شاعراً ، ولم يرعوا أديبا ، وفعل كذلك وزراؤهم وولاتهم ، فضاقت أنفاس الشعر ، وبارت سوق الأدب ، ووجدنا شاعراً كبيراً مثـــل ابن التعاويذى المتوفى عام ٥٣٨ هـ ، والذى كان يعد شاعر العراق فى زمنه يقول فى ممدوحه :

فيامولاى هل حدثت عنى ... بأنى من ملائكة السماء ؟
وأن وظائف التسبيح قوتى ... وما أحيا عليه من الدعاء ؟
وأنى قد غنيت عن الطعام ... الذى هو من ضرورات البقاء ؟
وهل فى الناس لو أنصفت خلق ... يعيش كما أعيش من الهـــواء ؟
فلا فى جملة الأحرار أدعى ... ولا بين العبيد ولا الإماء

(١) راجع يتيمة الدهر ٣ : ١٦٩ وما بعدها . (٢) ٢ من اليتيمة .

(٣) ولد ببغداد عام ٣٢٠ هـ، وتوفى بها عام ٣٨٤ هـ . راجع يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ وما بعدها.

وكان الأبيوردى شاعر العرب فى القرن الخامس ، كما كان المتنبى شاعرهم فى القرن الرابع ، وكان شعره ينطق بإباء العرب وعزتهم ، ويعرب عن طباعهم وأخلاقهم ، ويتحدث بمآثرهم ومفاخرهم ، ويمدح كثيراً من رؤسائهم ، ويرثى لحالهم فى عصره ويأنف ألا ينالوا حقهم ، وهو كثير الحنين إلى بلاد العرب ، نزاع إلى البداوة تشبهاً بهم ، وكان يقـــول مثل قوله :

وإنى إذا أنكرتنى البـــلاد   وشيب رضــا أهلها بالغضب
لـكالضيغم الورد كان الهوان   يدب إلى غابه فاغترب

ويقول :

رأت أميمة أطمارى وناظرهـــا   يعوم فى الدمع منهلا بوادره
وما درت أن فى أثنــائها رجلا   ترخى على الأسد الضارى غدائره
أغر فى ملتقى أوداجــه صيد   حر منــاصله ، بيض عشائره
إن رث بردى فليس السيف محتفلا   بالغمد وهو وميض الغرب باتره

ويقول :

قضت وطراً منى الليالى فلم أبح   بشكوى ولم يدنس على قميص
أغالى بعرضى والنــوائب تمترى   وغيرى يبيع العرض وهو رخيص
وقد علمت عليــا كنانة أننى   على ما يزين الأكرمــين حريص
فظهرى بأعباء الخصاصة مثقل   وبطنى من زاد اللئــام خميص

الأدب فى ظلال الدول الناشئة :

٣ ـ أما حياة الأدب فى ظلال الدول الناشئة التى قامت أثناء حكم البويهيين والسلجوقيين ، فنستطيع أن نتحدث عنها فى إيجاز شديد :

١ ـ الأدب فى ظلال الحمدانيين (٣١٧ ـ ٣٩٤ هـ) :

كانت الدولة الحمدانية تسيطر على حلب والموصل وديار بكر ، وهى تنتمى إلى عرب تغلب ، وكان رأس أسرتهم عبد الله بن حمدان ولى الموصل للخليفة المكتفى ، ولقب الخليفة ولده حسناً بناصر الدولة ، وولده عليا بسيف الدولة ، وبعد سنة ٣٣٣ هـ استـــولى سيف

الدولة على حلب ، ثم استقل سيف الدولة بن حمدان (٣٣٣ – ٣٥٦ هـ) بحكم شمال الشام ، وكان أميراً عربياً وأديباً شاعراً ، نافس غيره من ملوك الدول الأخرى فى العلم والأدب ، فجمع حوله العلماء ، ومنهم أبو الفرج الأصفهانى ، والشعراء وعلى رأسهم : المتنبى ، وفتح لهم خزائن أمواله ، فجادت قرائحهم بأعذب الشعر وأجله ، ووصفوا بلاد الشام الجميلة ، وبساتينها العظيمة ، والمعارك التى كانت بين سيف الدولة والروم ، فنهض الشعر ، وراجت سوق الأدب فى أيامه وبتشجيعه ، وقد جمع (بلاط) سيف الدولة الكثير من الأدباء والشعراء ، حتى قيل : لم يجتمع فى قصر ملك من الأدباء والشعراء مثلما اجتمع فى قصر الرشيد وسيف الدولة والصاحب بن عباد .

وكان بعض أمراء الأسرة الحمدانية أدباء وشعراء ، ومن بينهم : أبو فراس الحمدانى الشاعر المشهور[1] . . ولعروبة الحمدانيين ومواهبهم الأدبية ومنافستهم للعباسيين أثر فى تشجيعهم للأدب والأدباء ، ويروى عن سيف الدولة فى ذلك مالم يرو عن الكثيرين ، حتى روى أن طباخه كان شاعراً ، وقيم دار كتبه كذلك كان شاعراً ، وأحاط به من نجوم الشعر أمثال : أبى الطيب المتنبى ، وأبى العباس النامى ، وابن نباتة السعدى ، وأبو فراس الحمدانى ، وأبو الفرج الببغاء ، والوأواء الدمشقى ، والخليع الشامى ، والسرى الرفاء الموصلى ، والأخوين الخالديين قيمى دار كتبه ، وكشاجم طباخه غير من كانوا يفدون ويرحلون ، وغير من كان يقيم بحضرته ، أو يمر بها من شيوخ الأدب وأفاضل علمائه ، فزها قصره بهؤلاء وأولئك على قصور زمانه ، ولقوا بفنائه أكرم لقاء ، وأجزل عطاء . وفى سيف الدولة ، وبره بالأدب والأدباء ، وكثرة من طاف ببابه من الشعراء يقول الثعالبى : « حضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء ، ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك – بعد الخلفاء – ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر »[2] .

---

(١) راجع فنون الشعر عند الحمدانيين للشكعة .

(٢) يتيمة الدهر ص ١١ – ١٢ جـ ١ ، وص ٨٠ دراسات فى الأدب العربى وتاريخه .

ويقول الثعالبي في بني حمدان : « كان بنو حمدان ملوكا وأمراء ، أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ؛ وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم ، وكان غرة الزمان ، وعماد الإسلام[1] » .

ب ـ الأدب في ظلال الفاطميين (٣٥٩ ـ ٥٦٧ هـ) :

كان الفاطميون عربا ، ينتمون إلى البيت النبوي العظيم ، وهم مثل الحمدانيين ، ثقافتهم عربية . وميولهم إلى الأدب والشعر ظاهرة ، فهم يحبون الأدب، ويتذوقون الشعر ، ويحتفلون به احتفالا شديداً ، وهم يعرفون للأدب والشعر تأثيرها في النفوس ، وسحرها في القلوب لذلك أكثروا من استرضاء الأدباء ، وأغدقوا الأموال على الشعراء ، وقصتهم مع ابن هانيء معروفة ؛ وكانوا قد أعدوه ليكون شاعرهم بمصر بعد الفتح ، لولا أن سبقت منيته أمنيتهم فمات قبيل الرحيل ، وأسف المعز لدين الله حين بلغه نعيه بمصر ، وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك » . وهي عبارة تدل مع إيجازها على تقدير المعز للشعر ، وعرفانه بقوة أثره في النفوس، فهل كان له وقد فاته مدح ابن هانيء[2] ، أن يقعد عن اجتذاب غيره من الشعراء ، لينال من قربه ما يريد ؟ . بل لقد كان في ديوانهم نائب يختص بالشعراء ، يقدمهم في نظام على حسب أقدارهم ومنازلهم بين أيدي الخلفاء في أحفال المواسم والأعياد ، وما أكثر ما كان لهم من مواسم وأعياد ؛

ويروي المقريزي عن الخليفة الآمر بأحكام الله ، أنه بنى منظرة فيها طاقات تطل على بركة الحبش صور فيها الشعراء كل شاعر واسمه وبلده ، وعند رأسه قطعة من شعره ، وإلى جانب كل صورة رف لطيف مذهب ، ثم يدخل الآمر بعد الفراغ من ذلك فيقرأ الأشعار ، ويأمر أن يحط على كل رف صرة مختومة ، فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ، ويأخذ صرته ، وهذه الرواية تدل على حبهم بالشعر ، ورعايتهم للشعراء .

---

(١) ١ : ١١ اليتيمة .

(٢) هنأ ابن هانيء المعز بفتح مصر بقصيدته :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر — فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وقد ازدهر الأدب نثره وشعره فى عهدهم، وعنوا بالكتابة والكتاب وبديوان الإنشاء عناية ظاهرة ، حتى ليقول القاضى الفاضل : «كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد — الفاطميين — غضا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا[1] » . وكان كثير من الفاطميين أدباء وشعراء ، ولا ننسى تميم بن المعز الفاطمى (٣٣٧ — ٣٧٤) الشاعر الكبير الذى يقرن بابن المعتز .

وكان كثير من القضاة والولاة فى دولتهم يحتذون حذو الفاطميين فى تشجيعهم للأدب والأدباء ، والشعر والشعراء ، وكان قاضيهم مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد ، المعروف بابن حديد قاضيهم على الإسكندرية ، وكان — على ما يذكر المقريزى — يحتذى أفعال البرامكة ، فتجمع حوله الشعراء ومنهم ظافر بن الحداد ، وأمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، ولهما ولغيرهما فيه مدح كثير .

وكان لديوان الإنشاء والمكاتبات أثر كبير فى النهوض بالأدب ، ويقول فيه المقريزى : « كان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف ، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة من يده ، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب ، والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المثول بين يديه » .

وقد رثى عمارة اليمنى الفاطميين ودولتهم بعد سقوطها بقصيدة مشهورة يقول فيها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل	وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة	على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها	من المكارم ما أربى على الأمل

وفيها يندد بالفظائع التى أوقعها بهم بنو أيوب :

ماذا ترى كانت الأفرنج فاعلة	فى نسل آل أمير المؤمنين على ؟
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما	ملكتم بين حكم السبى والنفل

(٢) ١ : ٢٠١ الروضتين .

ومنها فى ذكر مكارم الفاطميين وأيامهم وعاداتهم :

دار الضيافة كانت أنس وافـــدكم — واليوم أوحش من رسم على طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم — تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست — ورث منها جـــديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لـكم — يأتى تجملـكم فيه على الجمـــل
وأول العام والعيدان كان لـكم — فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما — يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية — مثل العرائس فى حلى وفى حلل
ولا حملتم قرى الأضياف من سعة الـ — أطباق إلا على الأطباق والعجل
وما خصصتم ببر أهـــل ملتـكم — حتى عممتم به الأقصى من الملل
وللجوامع من أحباسكم نعم — لمن تصدر فى عـــلم وفى عمـــل

وبسبب هذه القصيدة قتل عمارة . .

ومن أشهر شعرائهم : ابن وكيع التنيسى م ٣٩٣ ﻫ ، والشريف العقيلى م ٥٤٥ ﻫ ، وهما من شعراء الطبيعة ومن كتابهم : ابن الصيرفى ، وابن فادوس م ٥٥١ ﻫ ، والموفق بن الخلال ، وسواهم[1] .

جـ ـ الأدب فى ظلال الأيوبيين (٥٦٧ ـ ٦٤٨ ﻫ) :

ورث الأيوبيون ملك الفاطميين ودولتهم ، واقتفوا آثارهم فى رعاية الأدب وتشجيع الشعر ، وتابع الأدب سيره ، بتأثير رعاية سلاطين الأيوبيين له وانتشار العلوم والثقافة بكثرة ما أنشأوا من مدارس ، ومكتبات ، وتنافس الأدباء ليصـــلوا إلى أعلى المناصب وينالوا وافر العطاء ، وقد قامت الحروب الصليبية فى عهدهم ، نهضت بالشعر والخطابة ، وقد كان لاتصال الأدب المصرى بالشامى أثره فى نهضة الأدب وازدهاره[2] .

(١) راجع كتاب «فى أدب مصر الفاطمية» محمد كامل حسين، وكتاب قصة الأدب فى مصر ـ ٥ أجزاء، للمؤلف.
(٢) راجع كتاب الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى تأليف عبد اللطيف حمزة، وكتاب قصة الأدب فى مصر للمؤلف .

ظفر صلاح الدين بملك الفاطميين ، وهو فارس مغوار ، مجاهد فاتح ، لا ينتهى من غزوة إلا ليأخذ العدة لأخرى فى سبيل نصر الإسلام ، ورد غارات الصليبيين ، فالتف الأدباء والشعراء بمصر والشام حوله ، وأحاطوا بعرشه ، وما أسهل القول إن وجد الأدب مجالا ! وما أسلس قياده إن ثار عن نازعة ووثب عن عقيدة ! وهل هناك أقوى لإثارة الشعر من نازعة الدين ولا سيما إذا أحس الضعيف قوة بعد ضعف ، وعزة بعد ذل ، وقد كانت حال المسلمين كذلك . فهتف الشعراء بمخلصهم وبطلهم ، وتوجوه بتيجان المجد والفخار . وكان صلاح الدين يفهم الشعر ويهتز له ، وكان جواداً سخيا ؛ اجتمع عنده وفود القدس ولم يكن بخزانته شىء ، فباع قرية وخصص ثمنها بهم ، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم مهم ، لعلمهم أنه متى علم به أنفقه ، وكذلك كان خلفاؤه كرما ورعاية للأدب واحتضانا للشعر .

ومن أشهر الشعراء فى الدولة الأيوبية : ابن النبية المصرى ، والبهاء زهير . ومن أشهر الكتاب القاضى الفاضل .

والأيوبيون أكراد ، ولكنهم تعربوا كما تعرب البويهيون بالعراق ، ونبغ منهم جماعة فى الأدب والشعر ، نذكر منهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، فهو من أمرائهم وملوكهم ، وهو مع ذلك شاعر وأديب . ثم إنهم جاءوا بعد الفاطميين ، وللأدب والشعر فى دولتهم صولة وللبلاغة الكتابية عندهم جناب مرعى ، فتقفوا آثارهم فى رعاية الأدب رعاية تذوق وتقدير ، واحتضنوا الشعراء عرفاناً بأقدارهم ، ورغبة فى نشر مناقبهم على ألسنتهم . وإذاعة محامدهم فى أشعارهم ، فكثر عددهم حولهم ، وسواء فى برهم من بقى من شعراء الفاطميين ومن نشأ بعد ذلك فى أكنافهم ، وحسب مصر فى عهد الفاطميين والأيوبيين ، أنها تلقفت زعامة الكتابة الإنشائية من العراق وما والاها من البلدان ؛ واتجهت أنظار الكتاب إلى ديوانها يقلدون أساليبه ، ويأتمون بصاحبه وينسبون إليه الطريقة التى يحتذونها فى كتاباتهم وهى الطريقة الفاضلية . نسبة إلى القاضى الفاضل ، آخر رؤساء ديوان الإنشاء فى دولة الفاطميين ، وأولهم فى ديوان الأيوبيين [1].

(١) ٨٨ دراسات فى الأدب العربى وتاريخه .

د ـ الأدب فى ظلال الدول الأخرى :

وكذلك نهض الأدب فى كثير من الدول التى قامت فى العصر العباسى الثانى، غير تلك التى ذكرناها ، كالدولة الزيارية التى نبغ منها قابوس بن وشمكير المعدود بين الأمراء الزياريين ، وفى طبقة المجودين من الكتاب ، وكان ينزع إلى الأدب ، ويكلف بالأدباء ، يجتمع الشعراء على بابه كل نيروز ومهرجان ، فيرسل إليهم جوائزهم مع أحد أصحابه ، ويقول له : وزع عليهم الهدايا بحسب رتبهم ، ولكنى لا أستطيع سماع أكاذيبهم ، التى أعرف من نفسى خلافها.

وكذلك كان حظ الأدب كبيراً فى ظلال الدولة السامانية والدولة الغزنوية، فشجعوا الأدباء وبالغوا فى إكرام الشعراء ، مجاراة ومنافسة للملوك المعاصرين لهم ورغبة فى أن تزدان بهم قصورهم ومجالسهم .

وإذا كانت أذواقهم الأعجمية ، ونأى مزارهم عن قلب المواطن الإسلامية ، قد جعلاهم دون البويهيين مثلا فى الاحتفال بالشعر ، واجتذاب كثير من الشعراء إليهم فقد جهدوا أنفسهم أن يساموهم فيما استقدوه لمنصب الوزارة ، إذ كانوا لا يوسدونه إلا الصفوة المختارة من نوابغ الكتاب وقد حاول نوح بن منصور السامانى أن يجتذب الصاحب بن عباد ويستأثر به دون البويهيين ، فراسله يعرض عليه ، ما يغريه بالرحلة إليه ، والوزارة له ، لولا اعتذار الصاحب بما يشق عليه من نقل متاعه ، ومن بينه كتبه التى تحتاج وحدها فى النقل إلى أربعمائة جمل كما قال ، ولعل بلاءهم يذكر فى احتضان الكتاب ،فقد ظهر فى كتابهم بعدها، من يقاربون ابن العميد ، وابن عباد ، فى الدرجة البلاغية ، وإحياء الحركة الأدبية ، مثل الوزير البلعمى ، والوزير الجيهانى ، فى دولة السامانيين ، ومن حولهم من آل ميكال الأمراء والكتاب الشعراء ، ومثل أبى القاسم الميمندى وأبى الفتح البستى وأبى نصر العتبى ، فى بلاط الغزنويين .

وعلى الجملة فقد تعدد بتعدد الدول موارد الأدباء ، وتبارى الملوك من العرب والمتعربين ومن ساماهم من الأعاجم فى تقريبهم ،والاحتفال بهم،فسعد العصر من الشعراء والكتاب بعدد وافر لم يكن مثله من قبل ، ومن الإنتاج الأدبى بما لم يضارعه مثله من بعد ، وفى يتيمة الدهر

للثعالبي صورة للمشرق الإسلامي حينذاك ، وفي كل ركن منه ندوة أدبية والأدباء بها في أرجائه تطواف البلابل في الروض الأغن ، لها منه الزهر الندى والجنى الشهي منها التطريب والتغريد باللحن الفريد[1] .

نشأة الآداب القومية :

وفي ظلال هذه الدول وبتشجيعها نشأت الآداب القومية ، التي تمثل حياة الأمة نبع من ضميرها هذا الأدب ، ويصور كل منها الحياة في الإقليم ، الذي ينشأ منه و فيه . ويتأثر بتاريخ الأمة وبيئتها وما يرى في موطنها من مشاهدومناظر ، وأخلاق و وعلوم وثقافات .

وقد نشأت الآداب القومية بعد انقسام الخلافة العباسية إلى دويلات ، لأن الأدبا كل إقليم ، صرفوا هممهم إلى مدح أمرائهم ، ووصف بيئتهم والتحدث عما حولهم ، مم سببا في ظهور هذه الآداب الخاصة بكل إقليم ، والتي سميت باسم الآداب القومية .

وهذه الآداب القومية التي نشأت في أقاليم الخلافة لم تتباعد كثيراً لاتحاد ممالك ا في الدين واللغة والثقافة والأخلاق ، ولكثرة الهجرات والرحلات بينها ، ولا تحاد م الثقافة فيها .

وقد ذكر الثعالبي في « يتيمة الدهر » أن الصاحب بن عباد — حين إقامته ببلاد فار كان يعجب بأدب أهل الشام ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملي الطا عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من بدائعهم وطرائفهم ، وجمع له من ذلك دفتراً ض الحجم ، لا يفارقه ، ولا يمل مطالعته ، وكان لذلك آثار واضحة في محاضراته ، وفي أ شعره ونثره ، ويروى ياقوت في « معجم الأدباء » أن الصاحب بن عباد سأل رجلا طرأ من الشام ، عن الرسائل التي يتدارسها الناس في بلاده ، فأجابه إنها رسائل ابن عبد ك ورسائل الصابي ، والأول من كتاب ديوان القاهرة ، والثاني من كتاب الديوان ببغد ويروى ياقوت أيضاً أن ابن خيران — وهو من كتاب مصر في زمن الفاطميين — أر

---

(١) ٨٥ دراسات .

بمجموع رسائله إلى بغداد ، ليعرض على الشريف المرتضى كى يودعه فى دار العلم هناك لمن يريد مطالعته من الأدباء .

٢ ـ وقد ارتقى الأدب القومى فى مصر بعــد الانقسام ، وكثر استخدامه فى وصف البيئة المصرية ، ومناظر البلاد الطبيعية ، ونيلها ومزارعها وخيراتها وآثارها ، وفى مدح الخلفاء الفاطميين والإشادة بدعوتهم وفى وصف الحفلات والمواسم والأعياد ، التى أكثر منها الفاطميون إرضاء للمصريين ، كعيد وفاء النيل وعيد المولد النبوى الشريف وأول العام الهجرى ، وفتح الخليج ؛ إلى غير ذلك . .

وفى الشام فى عهد الحمدانيين ظهر الأدب القومى ، وأخذ يصف بيئة الشام ومناظرها وجبالها وثلوجها وجداولها وفاكهتها ، وينطق بمدح أمراء بنى حمدان وبالاشادة بكرمهم وشجاعتهم وأدبهم ، وبخاصة سيف الدولة ، ويصف الحروب التى كانت تنشب بين سيف الدولة والروم، محرضا على خوض غمارها، واستخلاص المدن والأسرى من أيدى الأعداء، كما كثر فى الفخر والحكمة والفلسفة .

ونشأ كذلك أدب قومى فى فارس والعراق فى ظلال البويهيين والسلجوقيين ، أكثر من وصف البيئة والتحدث عن التاريخ، وأغرق فى مدح الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ، كما أكثر من الفخر والحكمة والفلسفة .

النثر الأدبي

في العصر العباسي الثاني

نهض النثر الفني في العصر العباسي الثاني نهضة لم يبلغها في عصر من العصور ، فازدان بالأعلام والبلغاء ، وأئمة الكتاب ، وحفل بكثير من روائع النثر وأوابده ، وألفت أمهات الأدب وأصوله ، ولقى النثر عناية كبرى من الدول التي قامت في هذا العصر ، للحاجة إليه في شئون الملك ، والسياسة والثقافة والاجتماع ، ولازدهار الفكر الإسلامي وتأثره بما حوله من ثقافات .

ويتجلى النثر الفني في مظهرين ، ويتضح في معرضين : هما الخطابة ، والكتابة . وسنتحدث هنا عن الكتابة بشيء من التفصيل .

الكتابة الفنية

في العصر العباسي الثاني

نهضتها :

ازدهرت الكتابة الفنية في العصر الثاني في العراق وفارس ، ازدهاراً كبيراً ، تمثل في منزلتها التي بلغتها وحدها من بين فنون الأدب ، وفي منزلة الكتاب الاجتماعية التي كانت لهم ، ومدى ما صلوا إليه من جاه ونفوذ وسلطان ، حتى كان الوزراء يختارون غالباً منهم ، كابن العميد ، والصابي والمهلبي ، وهم كذلك يحصلون على ثروات طائلة لا يحلم بها إنسان ، مما لهم من مراتب ومنح وإعانات وإنعامات .

وكذلك كان شأن الكتابة في مصر والشام ، فصاحب ديوان الإنشاء عند الفاطميين كانت منزلته ترتفع على كل منزلة ، ومكانته تسمو على كل مكانة ، وهو — كما يروى — مستشار الخليفة ونجيه ، لا يحجبه عنه حجاب ، وله من المراتب ، والإنعامات والأعوان ما ليس لغيره من رجالات الدولة . . . وكذلك كانت مكانته في ظلال الأيوبيين .

وقد تعددت ألوان الكتابة وفنونها ، فمن كتابة ديوانية إلى كتابة الرسائل ، إلى كتابة إخوانية ، إلى كتابة القصص والمقامات ، إلى الكتابة العلمية التي تمثلت في أسلوب التأليف .

ونحن نعلم ما آلت إليه الكتابة في العصر العباسي الأول ، وكيف أخذت تنحو بالتدريج منحى خاصا في كل شيء ، من تنوع عباراتها بتنوع موضوعاتها وترسم آثار النظام والتقسيم والتفصيل فيها وترجيح كفة اللفظ على المعنى ، وذلك بعد أن نضجت العلوم ووضعت اصطلاحاتها وتميزت مسائلها واضطلع بها كثير من ناشئي الأعاجم وقلت المراقبة عليها من العناصر العربية ساسة وعلماء . إذ كانت العناصر الفارسية شرعت في الاستقلال بحكومتها وعاداتها ونزعاتها ، فأثر ذلك في الكتابة تأثيراً ظاهراً اشتد أمره باستيلاء الديالم ثم السلاجقة على ما بقي في يد خلفاء العرب من النفوذ . فصار لكل علم كتابة خاصة تباعدت عن غيرها كلما طال الزمان .

ولما كانت الكتابة الأدبية من الرسائل والأخبار والقصص مثاراً للخيال ومظهراً لحركات الوجدان والشعور ومرآة لما يجيش فى الإنسان من الرغبات والميول والأخلاق . اختلفت كل الاختلاف بجميع المؤثرات التى أحدقت باللغة . وما جاء العصر الثانى حتى كان لها صبغة تختلف كل الاختلاف عن صبغتها فى أوائل العصر الماضى، وخاصة كتابة الرسائل .

ولقد نبغ فيها فى هذا العصر ، حرصاً عليها ، واهتماما بها كثير من الأمراء ، ومن بينهم : شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، فقد كان من مشاهير الكتاب ، وهو واحد من ملوك الدولة الزيارية بجرجان ، وطبرستان .

وكانت أسباب هذه النهضة كثيرة متعددة ، ترجع فى جملة الأمر إلى :

١ — رقى صناعة الكتابة بجهود عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وإبراهيم الصولى والجاحظ وابن المدبر وسواهم .

٢ — انتشار الثقافة الأدبية والعقلية انتشاراً كان له أثره فى أذواق الكتاب وعقولهم ، وكذلك كان للعلوم المترجمة أثرها فى أخيلتهم ، وتفكيرهم .

٣ — رقى الحياة الاجتماعية ، وازدهار الحضارة والمدنية فى ظلال الخلافة العباسية .

٤ — نبوغ أكثر الكتاب فى الشعر والنثر معاً ، وتمكنهم من صناعتى : النظم والنثر جميعاً ، كابن العميد والصاحب والخوارزمى والبديع، والصابى وأبى الفرج الببغاء وأبى الفتح البستى . وكذلك اشتغل كثير من الشعراء بالكتابة : كالمعرى والشريف الرضى ، وسواهما . . ولا شك أن ذلك أمد الكتابة بخيال الشعر وخصائصه وسماته .

٥ — ذيوع وسائل الترف والوشى الفنى فى الأسلوب ، مما سماه النقاد « بديعاً » ، واهتمام الكتاب بصور هذا البديع وألوانه ، اهتماما يضارع اهتمام الشعراء ، على الرغم من نقد اللغويين لكل من يحرص على استعمال البديع فى نثره وفى شعره . وقد دافع ابن المعتز عن البديع ، وألف فيه كتابه المشهور : « البـــديع » ، وكذلك كتب فيه : قدامة ، وأبو هلال العسكرى ، والآمدى والقاضى الجرجانى ، وسواهم .

٦ — كثرة الدول التى تتنافس فى تشجيع الكتابة ، ورعاية الكتاب وتقريبهم .

ويقول الثعلبي في مقدمة كتابه « نثر النظم » عن أهمية الكتاب : « إن الكتاب — وهم ألسنة الملوك — إنما يتراسلون في جباية خراج ، أو سداد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهي عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية في رزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، وأعاظم الشئون ، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ، ومعارف مفتنة » .

ثقافة الكتاب :

وقد تعددت ثقافة الكتاب في هذا العصر بتعدد العلوم والثقافات ، فشملت الثقافة الدينية واللغوية والأدبية ؛ وشملت العلوم الجديدة التي استحدثت ، والعلوم الدخيلة التي ترجمت ، وشملت الإلمام بسياسة الملك وتدبيره ، وبالنظم الاقتصادية التي تسير عليها الدولة من جباية للخراج ، وتحصيل للجزية ، وحساب للأموال وللمصارف والموارد ، ومن ثم جرى الكتاب في شتى ميادين الثقافة مسافات بعيدة ، فشاركوا كل طائفة فيما تخصصت فيه من علوم ، حتى الفلاسفة والمنطقيين شاركوهم في الإلمام بمسائل هذين العلمين ، وفي الإحاطة بفروعهما ، وكان الأدب في رأيهم هو الأخذ من كل فن بطرف ، ويروى عن الصابي أنه كان مع معرفته بأحكام الإسلام ، وإحاطته بثقافات العربية وآدابها ، واسع العلم بالهندسة والهيئة ، والرياضيات ، وكذلك كان ابن العميد متفوقا — مع الثقافة الأدبية الواسعة في الفلسفة والمنطق ، والهندسة والطبيعة والإلهيات والتصوير وغيرها ، ويروى ابن مسكويه عنه ، وهو قيم دار كتبه ؛ أنه كان أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات الكتابة ، حفظا للغة والغريب ، وتوسعا في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما تأويل القرآن ، وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ؛ فكان منه أرفع درجة وأعلى رتبة ، ثم إذا ترك هذه العلوم وأخذ في الهندسة والتعاليم : لم يكن يدانيه فيها أحد . فأما المنطق . وعلوم الفلسفة ، والإلهيات منها خاصة ، فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته ، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة ، كعلوم الحيل (الميكانيكا) التي يحتاج إليها في أواخر علوم الهندسة والطبيعة ،

والحركات الغريبة ، وجر الأثقال ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على الحصون، ثم معرفته بدقائق علم التصاوير ، ولقد رأيته يتناول - من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه - التفاحة وما يجرى مجراها ، فيعبث بها ساعة ، ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره، لو تعمد لها بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ، ما استوفى دقائقها . ولا تأتى مثلها ؛ وكذلك كان الصاحب من المحدثين والمتكلمين من المعتزليين ، ومتبحراً فى علوم اللغة ، وبصيراً بالنقد ومشاركا فى الطب ، يؤلف فى كل هذه الثقافات ، ويحاضر فيها ، ويحاور العلماء من أهلها .

وكذلك كان الأمر فى الخوارزمى والبديع وأبى حيان التوحيدى الذى كان يلقب بالجاحظ الثانى ، وسواهم .

ويروى أن الخوارزمى استأذن على الصاحب بن عباد بأرجان - قبل أن يعرفه - فبعث إليه حاجبه يقول : إنى قد ألزمت نفسى ألا يدخل على أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب : فراجعه الخوارزمى يسأل عن هـذا القدر : من شعر الرجال هو أم شعر النساء ؟ .

كتابة الرسائل فى المشرق :

١ - كانت كتابة الرسائل فى هذا العصر ببغداد ومدن العراق وممالك المشرق الإسلامية جميعها باللغة العربية ، إلا قليلا من الإمارات القاصية فى أواخر هذا العصر فقد استعملت فيها الفارسية أو التركية بحروف عربية ، وكان فى كل مملكة جملة من أفاضل الوزراء والكتاب ورؤساء الدواوين ، يلقب كل منهم (بالشيخ) فى شرق خراسان وخوارزم، و (بالأستاذ) أو (الرئيس) بفارس وما يليها .

٢ - وقد امتازت كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لا سيما فى الرسائل السلطانية ، واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع من غـير إفراط ، واستخدام معانى الشعر وألفاظه فيها بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى كادت الرسائل تكون شعراً منثوراً ، وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشأنهم ، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر .

وكان أكثر كتاب دول المشرق الذين اشتهرت على أيديهم هذه الطريقة من الفرس ، وهم أميل الناس إلى الحلية اللفظية والغلو فى عبارات التمجيد والتعظيم ، فنقلوا طرق الفرس إلى العربية ، وحاكاهم فيها كتاب سائر الأقاليم حتى الأندلس ، وسرت عدواها من الرسائل الديوانية إلى كتب التأليف ، فكتب العتبي تاريخه اليمينى سجعا ، وحاكاه العماد الكاتب من كتاب دول الجزيرة والشام فى تاريخ : السلجوقية ، والفتح القدسى . .

ومع هذا لم تفت كتابة هؤلاء جزالة اللفظ وانتقاؤه وحسن استعماله فى مواضعه وجمال أسلوبه ، غير أن هذه القيود والأغلال التى كبلت بها الكتابة عاقتها أن تمثل للقارئ أغراض الكاتب واضحة جلية كاملة نافذة إلى خاطره من أقرب الطرق وأقومها ، كما هو الشأن الطبيعى فى الكتابة . وتتجلى هذه الطريقة بأكمل صفاتها فى مقامات بديع الزمان الهمذانى ومقامات الحريرى ، وكانت هذه الطريقة تكون غير منهكة لقوى البلاغة لو لم يستشر داؤها ويسوء استعمالها بعد عصر الذين انتحلوها ، إذ لم يكن من بعدهم على مثل سننهم فى الإحاطة باللغة وعلومها وتربية ملكتها ، فأخطأوا التقليد فى اللفظ كما حرموا الإجادة فى المعنى .

ومما زاد من أغلال أسلوب كتابة الرسائل فى هذا العصر العدول عن ذكر صريح أسماء الخليفة والرؤساء وألقابهم إلى الكناية عنها فيكنون عن الخليفة (بالحضرة المقدسة النبوية) أو (السدة النبوية) أو (الخدمة الشريفة) أو (الديوان الشريف) أى ديوان الإنشاء ، ونحو ذلك ، ويكنون عن الوزراء (بالحضرة الوزيرية) ونحوها ناسبين إلى نفس الألقاب. وأول من سن ذلك أبو الحسن على بن حاجب النعمان الكاتب للفاطميين ، وشاعت هذه الطريقة بعده فى سائر الممالك ، وأزالت بهجة البلاغة العربية .

ومن الأمور التى زادت على موضوعات كتابة الرسائل فى هذا العصر : إحلالها محل الشعر فى المناقضة والمفاخرة والمهاجاة والملاحاة والمداعبة ؛ وكان البديع والخوارزمى فيها فرسى رهان .

ابن العميد وأسلوبه :

ومن أشهر الكتاب فى المشرق : ابن العميد ، وهو الأستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل

محمد بن الحسين العميد بن محمد كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، والملقب بالجاحظ الأخير .

وابن العميد فارسي الأصل من أهل مدينة (قُمّ) وكان أبوه كاتبا مترسلا بليغا ، تولى ديوان الرسائل لنوح بن نصر الساماني ملك بخارى ، ونشأ له أبو الفضل شغوفا بتحصيل العلوم العقلية واللسانية، فبرع فيعلوم الحكمة والنجوم ونبغ فى الأدب والكتابة نبوغا جعله واحد عصره فكان يقال : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » .

ولما صلبت قناته ، وكملت أداته ، لم تتسع بخارى له ولأبيه ، فأقام ببلاد الجبل من ملك آل بويه ، وتقلد شريف الأعمال فى دولتهم ، ومازال تترقى به الحال من حسن إلى أحسن حتى تولى وزارة ركن الدولة بن بويه الديلمي أبى عضد الدولة بعد موت وزيره أبى على القمى سنة ٣٢٨ هـ ، فساس دولته ووطد أركانها ، وتشبه بالبرامكة ، ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وكان له مشاركة معهم فى كل شيء ، ما عدا الفقه ، ولذلك كان يتهمه الفقهاء بأنه كان يرى رأى الأوائل من اليونان ، فانتقل إليه أهل الأدب من بغداد والشام ومصر ، وكان ممن قصده أبو الطيب المتنبي بعد صدوره عن كافور الإخشيدى ، فمدح عضد الدولة ومدح ابن العميد بقصيدته المشهورة التى أولها :

باد هـــواك صبرت أم لم تصبرا ... وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى

وفيها يقول :

من مبلغ الأعراب أنى بعدهـا ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وملت نحر عشارهـــا فأضافنى ... من ينحر البدر النضـار لمن قرى
وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملكا متبديا متحضراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما ... رد الإله نفوسهم والأعصرا

وكان الصاحب بن عباد ممن ينتجعه ويلازم صحبته فى أول أمره وبذلك لقب الصاحب وله فيه مدائح طنانة . وما زال فى وزارته نجعة الرائد وقبلة القاصد حتى توفى سنة ٣٦٠ هـ ، ويعتبر ابن العميد فى الرسائل البديعية المسجوعة عميد رفقته وضليع طبقته ، وكلهم

كارع من حياضه ، قاطف من رياضه ، إن لم يكن باقتباس منه فبالمشا كلة له ، غير أنه كان أقلهم التزاما للمسجوع ، وأقربهم إلى الكلام المطبوع ، وكان كثيراً ما يحمل فقر رسائله أبياتا منثورة ، ويلمح فيها إلى الأمثال المشهورة والأحاديث المأثورة ، حتى انطبعت كتابته على التمثيل والحكمة ، فكان له منها فصول سائرة ومعان نادرة ، ويكفيه فضلا وشرفا أن يكون الصاحب بن عباد من جملة مادحيه وفى عداد خريجيه ونستطيع أن نتبين خصائص كتابته من مثل رسالته إلى عبد الله الطبرى التى يقول فيها :

كتابى إليك وأنا بحال لو لم ينغصها الشوق إليك ، ولم يرنق صفوها النزوع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح ، لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك . ويخلو ذرعى مع خلوى منك ، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك . وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ؟ وناظم لشمل أنسى ، وقد حرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ،وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سروراً بملاحظة خطك وتأمل تصرفك فى لفظك وما أقرظهما، فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى،وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك. فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى .

أسباب نبوغ ابن العميد فى الكتابة :

كان ابن العميد أستاذ الكتاب فى عهد البويهيين ، يجمعون على أستاذيته ، ويقر له النقاد بها ، ولا ينكر فضله وبراعته وبلاغته أحد اتصل به من قريب أو بعيد . وقد ألف أبو حيان التوحيدى كتاباً فى ذمه هو والصاحب بن عباد ، سماه : « مثالب الوزيرين » ، وكان يكرههما ، ومع ذلك فقد سلم لهما بالكتابة فقال فيما قال فى كتابه « ولو أردت أن تجد مع هذا لهما ثالثاً فى جميع من كتب للجبل والديلم لم تجد »

وقد كان لهذه الأستاذية والمهارة فى الكتابة أسباب كثيرة فى نفس ابن العميد : فبيئته

وثقافته ، وملكاته ومواهبه ، وما أخذه عن أبيه فى الكتابة ، وتنافس الكتاب وازدياد منزلتهم من حوله ، واعتداده بنفسه واعتماده على مواهبه ، وإحاطته بشئون الملك ودرايته بأمور الحياة والسياسة والاجتماع . . كل ذلك كان له أثر فيما بلغه من منزلة فى الكتابة .

هذا بالإضافة إلى ثقافته العربية والأدبية الواسعة، فقد كان ـ فيما يقال عنه ـ أجمع أهل زمانه « لآلات الكتابة » ، حفظا للغة والغريب ، وتوسعا فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا لدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . . إلى ما كان عليه من أرفع جهة فى تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، وللمرنة باختلاف فقهاء الأمصار ، كما كان لايدانيه أحد فى الهندسة ، والتعاليم والمنطق وعلوم الفلسفة ، والإلهيات منها خاصة ، ويختص بغرائب من العلوم الغامضة التى يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، كعلم الحيل (الميكانيكا) ويمتاز بلطف كف لم يسمع بمثله ، ومعرفة بدقائق التصوير وتماط له بديع » .

هذا كله إلى الترف الذى ساد فى عصره ، والنعمة التى كان فيها فى عيشه مما أثر فى نفسه ، وظهر فى أسلوبه . وذلك كله مما جعله كاتبا من أعظم كتاب العربية وأرفعهم منزلة فى صناعة الكتابة . وقلده الكتاب عامة فى أسلوبه ، وصارت طريقته هى الطريقة السائدة فى الكتابة .

مميزات الكتابة فى هذا العصر :

١ — ولقد انتقلت الكتابة العربية فى هذا العصر بفضل ابن العميد من الاقتصار على جزالة اللفظ ووضوح الدلالة والإيجاز وقلة السجع إلى التعمل والمغالاة فى الصناعة اللفظية ، باستعمال المحسنات البديعية ، من التزام السجع بأنواعه ، والجناس والطباق والتورية ، والتكلف فى ذكر المجاز والاستعارة والتشبيه ، وكثرة التضمين ، والاقتباس للأحاديث والأمثال والحكم والأبيات المشهورة . وبث الفرس فى الكتابة كثيراً من ألقاب التعظيم والتبجيل ، وأدخلت بعض العبارات الفلسفية فى كتابة الرسائل كما فى كتابة ابن العميد وغيره . وأصبحت الصناعة غرضاً من أغراض الكتاب يمتاز بالبراعة فيها كبار

الأدباء ، كابن العميد والبديع ، والخوارزمى والحريرى والصابى ، والعماد الأصبهانى . ولم تعرف اللغة مثل هؤلاء بعد الجاحظ وابن المقفع ومن عاصرهما .

ولكن الكتاب اقتصروا على كتابة الدواوين والإخوانيات والرسائل الأدبية ولم يمدوا بالموضوعات العامة ، كالقصص والتوسع فى أخيلة المقامات وأغراضها . ولاشك فى أن استيلاء الأعاجم على الدولة الإسلامية كان من أسباب اتجاه الكتابة إلى العناية بالزخرف اللفظى ، والمحسنات البديعية ، وإهمال جانب المعنى إهمالا قليلا أو كثيراً . .

ومن هذا نرى أن أهم مميزات الكتابة هى :

١ — التزام الجناس والسجع والطباق والاقتباس والتضمين ، وسواها من ألوان البديع .

٢ — التزام الإطناب والترادف .

٣ — الولع بالخيال الشعرى ، والهيام فى أوديته .

٤ — الإغراق فى عبارات التبجيل والتعظيم ، والتفخيم للملوك والأمراء والوزراء والولاة .

وبذلك وبغيره أصبحت الكتابة فنا عريقا من فنون الأدب ، وصارت صناعة الرسائل أفضل الصناعات الأدبية وأشرفها .

وقد تعددت موضوعات الكتابة فشملت : الأمور السياسية والاجتماعية والأدبية ، واستخدمت فى موضوعات الشعر من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية ومدح ، واستمتاح واستنجاز وإهداء واستهداء وشوق ، وشكوى ، وموازنة ومناقضة ، وفكاهة وسخرية وتهكم ، ووصف ، وسواها .

٥ — وظلت هذه المميزات سمة غالبة للكتابة فى العصر السلجوقى الذى استمرت نهضة الكتابة وازدهارها فيه ، وإن كان كتابه قد ساروا على تقليد أترابهم فى العصر البويهى ، لما كانوا عليه من اضطراب سياسى واجتماعى ، ولأنهم لم يكونوا فى مثل كفاية أسلافهم ، ولم يمنحوا مثل مواهبهم وملكاتهم ، ومن ثم كان للفظ الغلبة على المعنى ، وكان

التزام البديع وتـكلفه يجنيان على المعنى جناية شديدة، وقد كان أئمة النحو يعينون فى العصر السلجوقى فى ديوان الإنشاء لمراقبة الرسائل خوفا من الخطأ واللحن ؛ وممن عين منهم فيه : ابن بابشاذ م ٤٦٩ هـ ، وابن برى م ٥٨٢ هـ .

ومن أشهر كتاب العصر السلجوقى الحريرى بن على المتوفى سنة ٥١٦ هـ ، وجار الله الزمخشرى محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨هـ، ورشيد الدين الوطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، وعماد الدين الأصفهانى محمد بن صفى الدين المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وأبو الفرج الجوزى عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، وضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .

طريقة ابن العميد :

وتتلخص طريقة ابن العميد فيما يلى :

أولا : الإكثار من السجع ، وإيثار الجناس والطباق ، مع اتباع طريقة الجاحظ فى الإطالة والإكثار من الترادف والإطناب ، مع حب الترصيع واللجوء إلى الازدواج إن فاته السجع ، ومع كثرة التشبيهات والاستعارات ، التى تقرب المعنى إلى الذهن ، وتؤديه إلى العقل ، واضحا غير خفى أو غامض . . وقد يشير إلى مثل مشهور ، أو حكمة مأثورة ، أو إلى أحداث التاريخ وأعلامه ، مما يسمى اقتباسا ، أو يضمن أسلوبه ما يناسبه فى المعنى من الشعر ، مما يسمى تضمينا، أو يشير إلى بعض المعانى العلمية . . ومع ذلك ، ومع مايؤثره أو يلتزمه ابن العميد فى أسلوبه من ألوان البديع ، فإنه كان يأتى به مطبوعا لا متـكلفا ، لقوة طبعه ، وسمو ذوقه ، وعلو كعبه فى ثقافات الأدب ، وعلوم العرب ، فلا نحس تعقيدا ولا نبوا ولا قسراً ، ولا جوراً على المعنى والفـكرة .

وقد شاع السجع فى الرسائل الـكتاب الذين قلدوا ابن العميد فى طريقته كالصاحب ، الذى يقول فيه أبو حيان ، وإن كان يبدو فى أسلوبه التهـكم به والسخرية منه[1] : « كان

(١) معجم الأدباء ٦ : ٢٠٧ .

كلفه بالسجع فى الكلام والقلم عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد، قلت لابن المسيبى : أين يبلغ ابن عبـــاد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل وكلفة صعبة ، وتجشم أمور، وركوب أهوال، لما كان يخف عليه أن يخليها، بل يأتى بها ويستعملها ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » . ثم قال ـ نقلا عن ابن العميد ـ : « إن الصاحب خرج من الرى متوجها إلى أصفهان ومنزله « ورامين »، وهى قرية كالمدينة فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشىء إلا ليكتب إلينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار[1] » .

ثانياً : إيثار الفقر القصار فى التعبير ، وكذلك كان أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ ، وقد زاد ابن العميد عليه بالتزامه المعادلة فى الوزن بين المفردات المتقابلة فى الجمل المتتابعة ، كأن يقول : « قد يعزب العقل ثم يثوب ، ويعزب اللب ثم يثوب » ، وقوله : « عزت بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة » .

ثالثاً : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبإيثار الترادف أو لإلحاح عليه، وقد تأثر فى ذلك بالجاحظ فى كتابته، فنجده يقول مثلا . «عرفت حالها ، وعلمت شطرها» ويقول : « ركن ركين ، وحصن حصين ، ومكان مكين » ، ويقول : « يكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من غوائل الحدثان » ، وإلى غـــير من جمله المترادفة ، التى يبدو فيها الافتنان فى التعبير ، والحرص على تأكيد المعنى وتثبيته ، وعلى أداء ما يحبــــه من ازدواج وسجع وجناس وطباق .

رابعاً : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ظاهراً ، وإعطاء الموضوع ما يستحقه من عناية ، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو يأخذ هذه المعانى بالتحليل والتفصيل والتدقيق والتشقيق ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه إلى العقل من دليل أو نظـــير ، ويولد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ٢٢٠ .

وعقليته ، وسعة إدراكه ، وعمق تفكيره ، ومن ثم صارت الرسالة عند ابن العميد تشملها وحدة موضوعية ينتفى فيها الاستطراد ، كما تشملها وحدة فنية كذلك ، وأصبحت معانى الرسالة عند ابن العميد دقيقة الترتيب والتقسيم والتنسيق ، قوية الترابط والتلاحم والالتصاق :

تزين معانيه وألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

وهذه الميزات والسمات قد قلده فيها كتاب عصره وعدوه لهم أستاذاً وإماماً ، وقالوا فيه إنه عين المشرق ، وأوحد العصر فى الكتابة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة .

ابن العميد وكتاب عصره :

ولا ريب فى أن ابن العميد ، قد صبغ الكتابة الفنية بصبغته ، فى عصره وبعد عصره ، وقلده كتاب الرسائل تقليداً واضحا فى طريقته ، فسار الأدباء يسجعون ويجانسون ويطابقون، وشاع هذا الأسلوب حتى فى التأليف، فكتب المقدسى كتابه «أحسن التقاسيم» التزم فيه السجع .

وليس فى كتاب هذا العصر من كان يراوح نثره بين السجع والمزاوجة كابن العميد إلا أبو حيان التوحيدى، وأبو هلال العسكرى، أما سائر الكتاب فقد كانوا يلتزمون السجع التزاماً، ويتخذونه لإنشائهم طابعاً، حتى لقد تعدوا به الرسائل الأدبية إلى الموضوعات العلمية. وقد كتب كل من الخوارزمى وابن عباد رسالة فى الطب لم يخلها من السجع ، بل نقلوه إلى لغة التأليف . والتزموه فى الكتب الطوال ، فقدم به الثعالبى لفصول اليتيمة وجرى عليه الصابى فى كتابه « التاجى » وهو كتاب أرخ فيه لبنى بويه ، وكذلك العتبى فى كتابه « اليمينى » الذى كتبه فى بعض تاريخ الغزنويين .

وكذلك كان شأنهم فى الطباق شأن ابن العميد ، وقد يكون ذلك لأن المعنى يتحكم فيه فيقتضيه المقام فلا سبيل إلى تركه اللهم إلا أن يكون العمد والاقتسار، وهذا مالم يقعوا فيه . أما الجناس فقد أربوا على ابن العميد فى تناوله ، فتنوعت لديهم أنواعه وفنونه، واشتد إقبال بعضهم عليه حتى عرف به ، ومنهم أبو الفتح البستى الذى يورد الثعالبى كثيراً من تجنيسه ،

ويقول فيه : « وهو صاحب الطريقة الأنيقة ، فى التجنيس الأنيس ، البديع المأنوس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة[1] » .

والتزم الكتاب كذلك من بعده التكرار والتقابل والتوازن والتماثل ، فيقول البديع مثلا : « العرب أوفى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأسمى وأسمح ، وأحمى وأحصف » ، وكذلك كان يفعل غيره من أمثال : الصاحب والصابى ، والخوارزمى والميكالى ، والضبى ، والبستى ، والثعالبى ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العلاء المعرى ، وقابوس بن وشمكير ، وسواهم .

ولا شك أن كتابة ابن العميد أصبحت نموذجا للكتاب ، وطريقة تحتذى للمترسلين .
وقد كان لشخصية ابن العميد ونفوذه ومنزلته ، ولتلاميذه كذلك أثر فيما أحيط به فى فن الكتابة من عبارات التبجيل والتقدير ، وما أضفى عليه من ألقاب الريادة والإمامة والسبق فى فن الرسائل .

كتابة الرسائل فى مصر والشام :

١ ـ أما فى مصر والشام فقد كانت كتابة الرسائل فى النصف الأول من هذا العصر على مثل ما كانت عليه فى المشرق ، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع ، أى مدة بنى حمدان والفاطميين . وكان آخر من نسج على هذا المنوال العماد الكاتب الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ .

٢ ـ ولما نبه شأن القاضى الفاضل فى أواخر الدولة الفاطمية أراد أن يجارى كتاب المشرق فى البديع ، فزاد عليهم وأربى ، واخترع طريقة جديدة يصح أن تسمى « الطريقة الفاضلية » ، وذلك أنه جارى من قبله من كتاب المشرق فى التزام السجع والجناس والطباق ، وزاد عليهم أن استعمل فى رسائله أكثر أنواع البديع التى كانت فاشية وقتئذ فى الشعر كالتورية والاستخدام والتلميح وغيرها ، وأكثر من حل المنظوم ، واقتباس الآيات ، وتضمين الأمثال ، ومشهور الأقوال ، وأمعن فى التشبيه والاستعارة ، مع قلة المبالاة بالمبالغة والإغراق فى ذلك ، حتى

---

(١) ص ١٢٢ دراسات فى الأدب وتاريخه .

جاءت معانى رسائله منقادة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا التكلف لم يظهر فى رسائله بقدر ما ظهر فى رسائل من خلفه فى دواوين الإنشاء بمصر والشام ، لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته فى اللغة ، ووفرة محفوظه من الأدب . فلما جرى فى حلبته من ليس فى صفاته حسب أن البلاغة تملك ناصيتها بمشرات من أنواع البديع ، فاسترسل فى تكلفها تكلفا أبعد الكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة ، ولم يظهر أثر ذلك جليا إلا بعد سقوط بغداد ، وتراجع الرسائل العربية إلى دواوين مصر والشام والمغرب .

وبرع فى كتابة الرسائل الديوانية فى مصر والشام كتاب بلغاء مشهورون منهم :

١ ــ ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن الأثير صاحب المثل السائر المتوفى سنة ٦٣٧ ، وأبو القاسم على بن منجب بن الصيرفى المصرى المتوفى بعد سنة ٥٥٠ ، وموفق الدين يوسف ابن محمد المعروف بابن الخلال كاتب المصريين وصاحب ديوان الإنشاء المتوفى سنة ٥٦٦ ، والأمير أبو المظفر أسامة بن مرشد الشهير بابن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ ، وأبو عبد الله محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ، والقاضى الفاضل ، وقد كان رئيس الكتاب وإمامهم .

٢ ــ والقاضى الفاضل : هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على البيسانى اللخمى كاتب الديار المصرية وصاحب الطريقة الفاضلية ، والكتابة البديعية ، ووزير صلاح الدين ومدبر مملكته فى الحروب الصليبية ، وهو عربى الأصل من بيت علم وقضاء ، وكان أبوه من أهل عسقلان قاضيا عليها ، ثم تولى نيابة الحكم بمدينة بيسان من أرض فلسطين فنسب إليها .

وقد ولد القاضى الفاضل بمدينة عسقلان سنة ٥٢٩ هـ ، وتعلم على أبيه وغيره . ولما شدا العربية قدم مصر وهو شاب صغير لتعلم الكتابة والخدمة فى الديوان فى أواخر الدولة الفاطمية ، وتوجه إلى ثغر الإسكندرية للخدمة فى ديوان ابن حديد قاضى الإسكندرية وكاتبها ، نتعلم عليه ، وكانت كتبه البليغة ترد بإنشاء القاضى الفاضل إلى القاهرة ، وظهر بها فضله ، فاستقدم أيام الظافر إلى القاهرة ودخل فى عداد كتاب ديوانه ، غير أنه لم يقنع بما حصل بل لازم

خدمة أكابر القضاة والكتاب فى الديوان، وأخذ عنهم وحاكاهم، مثل القاضى أبى الفتح محمود بن قادوس وموفق الدين يوسف بن الخلال وغيرهما من رؤساء دواوين الإنشاء ، فمهر فى الكتابة، وطوح به استقلاله إلى توليد طريقة غريبة أخذ أصولها من بعض كتاب الشام والعراق وبعض كتاب الدولة المصرية ، فجمل أصولها السجع والاستعارة والطباق ومراعاة النظير والتلميح ، وغالى جدا فى التورية والجناس ، فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعية محضة تجرى مع مناسبات الألفاظ أكثر من جريانها مع إصابة الغرض والبلاغة العربية .

وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود مقبولة بليغة فى ذاتها لطول باعه فى اللغة وكثرة اطلاعه على صنوف الكتابة وسرعة بديهته وصفاء خاطره ، إلا أن طريقته تدعت بعده كتاب مصر والشام وغربت إلى الأندلس ، فجاراه فى كتابته كل قليل البضاعة من الأدب معتمداً على تعمل البديع الذى لا يكلف صاحبه أكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعا من أساليب الكلام . وظهرت سيئات هذه الطريقة مجسمة فى القرن السابع والثامن فى دولة المماليك، فضربت بها الكتابة ضربة لم تنتعش منها حتى فاجأتها ضربة أشد وأنكى بجعل اللغة الرسمية هى التركية زمن العثمانيين .

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى القاضى الفاضل وزارة صلاح الدين وكان يتردد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية ودبر المملكة أحسن تدبير ، وصدرت عنه مكاتبات بين مصر والشام وبينهما وبين دار الخلافة فى العراق مما لو أحصى لبلغ مجلدات ، ولا تزال كتب التاريخ والأدب ملأى بكثير منها ؛ وبقى فى وزارة صلاح الدين حتى مات ، فوزر لابنه العزيز على مصر ، ثم وزر من بعده لأخيه الملك الأفضل ثم نازع الملك العادل أخو صلاح الدين ابن أخيه وملك مصر ، فمات القاضى الفاضل فى يوم دخوله القاهرة سنة ٥٩٦ هـ .

وكان القاضى الفاضل خيراً ديناً محسناً وفياً محباً لجمع الكتب، وبلغ عدد كتبه التى جمعها من أقطار الأرض مائة ألف مجلد ، ووقف أوقافا على مدارسه التى بناها للشافعية والمالكية وفك رقاب الأسرى . وله رسائل كثيرة مطولة . . وله شعر بديع ، وشعره أرق من كتابته ،

ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عيذاب إلى صلاح الدين يتشفع له فى توليه خطابة الكرك وهى :

« أدام الله السلطان الملك الناصر صلاح الدين وثبته ، وتقبل عمله بقبول صالح وأنبته ، وأخذ عدوه قائلا أو بيته ، وأرغم أنفه بسيفه وكبته . خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب ، ولما نبا به المنزل عنها ، وقل عليه المرفق منها ، وسمع هذه الفتوحات التى طبق الأرض ذكرها ، ووجب على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، ساريا فى ليلة أمل كلها نهار فلا يسأل عن صبحها ، وقد رغب فى خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوسل بالمملوك فى هذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ، ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام » .

طريقة القاضى الفاضل :

ولقد ذاع أسلوب ابن العميد فى العراق وما جاوره ، وفتن به الكتاب . ووصلت الصناعة اللفظية الذروة فى فن الرسائل . فوقف القاضى الفاضل على صنعة الكتابة ، لدى كبار الكتاب فى المشرق والمغرب ، وعمل على ابتكار طريقة جمل أساسها الصناعة اللفظية ، وأخصها السجع والتورية والجناس ومراعاة النظير والاستعارة وغيرها . وكان الناس يعشقون التلاعب بالألفاظ ، ويرون بلاغة القول فى ذلك . فانتشرت طريقة القاضى الفاضل بمصر حتى كانت مذهباً لكتابها ، جرى عليه كبارهم ، وأصبحت الكتابة ضرباً من المبالغة فى الصناعة ، وتمكن ذلك من نفوس الناس ، وبقيت هذه الطريقة بمصر إلى زمن قريب جداً ، بل تخطت مصر إلى غيرها من البلدان ، كما تخطت طريقة ابن العميد بلاد الجزيرة وما حولها إلى غيرها من المدن الإسلامية ، وقد كان من جراء ذلك أن شغل الكتاب بالألفاظ والصناعة عن المعانى فكانت الكتابة أشبه بطلاء لامع يبهرك منظره ولا يروقك مخبره .

ومن ثم نرى أن طريقة القاضي الفاضل تتلخص فيما يلي :

العناية المسرفة في اقتناص حلى البديع ، والترصد لزخارفه ومراكمة الصور البيانية والإفراط فيها ، فهو يقبل كل الإقبال على السجع والجناس والاقتباس ، ويكثر كثيراً من الاستعارات والتشبيهات ، ولا ينسى مع ذلك الطباق ، والتورية ، والتضمين ، وغيرها من أصباغ البديع التي تنوعت حينذاك . وفي سبيل تلك الزخارف وتحقيقها تتسع عليه العبارة ، فيردف الجملة بأخريات في معناها ، وتكثر في أسلوبه الجمل الفرعية ، لا يدفعه إلى ذلك مقتضى من المعنى ، وإنما تدفعه الرغبة في تحقيق حلية لفظية ، أو إعطاء صورة من صور البيان .

وأشهر كتاب الطريقة الفاضلية هم : عماد الدين الأصفهاني م ٥٩٧ هـ ، وابن الأثير ضياء الدين م ٦٣٧ هـ ، وابن الجوزي م ٥٩٧ هـ ، وسواهم .

تراجم لأشهر الأدباء والكتاب

أبو الفرج الأصبهاني

هو الكاتب الشاعر الراوية النسابة العلامة المصنف أبو الفرج على بن الحسين بن محمد المرواني النسب ، الشيعي المذهب، صاحب كتاب الأغاني ديوان العرب . . ولد سنة ٢٨٤ هـ بأصبهان ، ونشأ ببغداد، فروى عن أكثر من لقيه من أئمة زمانه وأدبائه وشعرائه وظرفائه وندمائه ، وجمع من علم هؤلاء وآدابهم ما لا يجتمع لغيره ، وظهر فضله والشرق يتنازعه جملة دول وإمارات تنازع الخليفة فى الملك ، وينازع بعضهم بعضاً فى السلطة . فسوغ لأبى الفرج وعلمه وفضله أن يستدر ضروع هؤلاء الخصوم ، ويحملهم على المنافسة فى استلحاقه بهم ، ولم يكتف بسيب ملوك الشرق حتى أمم غربه من خلفاء الغرب ، فكان يؤلف الكتب للأموية بالأندلس سراً ، ويشايع الشيعة بالشرق جهراً ، وكان من أكثر محبيه ومؤثريه الوزير المهلبى وزير معز الدولة بن بويه ، واتخذه من أخص ندمائه .

وكان أبو الفرج على علمه وفضله وبلاغته سليط اللسان ، موجع الهجاء ، يتقى الملوك والرؤساء لسانه ، لسعة علمه بالأنساب ومثالب القبائل ، وأصول البيوتات . وكان قذرا وسخاً لا يعرف لشيء من ثيابه غسلا ، ولا يطلب منه فى مدة بقائه عوضا ، وكان الوزير المهلبى مع تنطسه وعزوف نفسه وتقذره كل شيء يحتمل منه كل هذا لموضعه من العلم . . والظاهر أن تشيعه كان مداراة وأن ذلك كان سنة فى أهل بيته حيث نشأوا فى أصبهان عش الشيعة ، ونشأ هو فى بغداد والأمر لبنى بويه ، وهم أول من أحدث المنادب والمناح فى عاشوراء على بن الحسين رضى الله عنه ، ولم يكن آل حمدان ملوك الجزيرة وحلب ينقصون كثيراً عنهم فى التشيع ، فلو انحازوا إلى مذهب الأموية والعثمانية بين هؤلاء الشيعة لقطع دابرهم ، فسمى أبوه : الحسين ، وسمى هو : عليًّا . ودليل هذا أنه لم يختلف أحد ممن ألم بذكر كتبه فى أنه ألف كثيراً منها لخلفاء الأندلس كان يبعثها إليهم سراً ، ويأتيه عليها

الإنمام ، وأكثرها فى نسب عبد شمس ، والقبائل التى نزحت إلى الأندلس ، وجمهات أخبار سلفها ومفاخرها .

وكان أبو الفرج أعرف أهل زمانه : بعلم وأدب وأخبار وأحاديث ونسب ، ولم ير فى عصره أحفظ منه ، ويحفظ دون ذلك من علوم أخر منها النحو والخرافات والسير والمغازى ومن آلة المنادمة شيئا كثيراً، مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك . وفاق أهل زمانه فى معرفة الأغانى والمغنين ، وفى ذلك صنف كتابه : الأغانى الكبير .

وقد أجمع أهل الأدب والمؤرخون على أن كتاب الأغانى لم يصنف فى بابه مثله ، وأنه حوى من مادة الأدب ما جعل كل كتاب بعده فى الأدب عالة عليه . وقد ألفه فى خمسين سنة ، ونسخة مرة واحدة، وحمل هذه النسخة إلى سيف الدولة بن حمدان فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه. ويحكى عن الصاحب بن عباد أنه كان فى أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها ، فلما وصل إليه كتاب الأغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها . وكذلك كان يفعل عضد الدولة فلا يكاد يفارقه سفراً ولا حضراً .

وقال الأديب المؤرخ الرحالة ياقوت الرومى بعد أن أثنى عليه بما هو حقيق به :

« وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به وطالعته مراراً ، وكتبت منه نسخة بخطى فى عشرة مجلدات ، ونقلت منه إلى كتابى الموسوم بأخبار الشعراء ، فأكثرت ، وجمعت تراجمه ، فوجدته يعد بشىء ولا يفى به فى غير موضع منه ، كقوله فى أخبار أبى العتاهية « وقد طالت أخباره هاهنا ، وسنذكر خبره مع عتبة فى موضع آخر » ولم يفعل ، وقال فى موضع آخر: «أخبار أبى نواس مع جنان إذ كانت سائر أخباره قد تقدمت» ولم يتقدم منها شىء. إلى أشباه لذلك . والأصوات المائة هى تسعة وتسعون وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شىء ، أو يكون النسيان غلب عليه » .

وقد ذكرت ذلك أيضا ابن مكرم فى كتاب:أخبار الحسن بن هانىء أبى نواس ، ولا يزال الكتاب كما وصفاه .

وجملة القول أن هذا الكتاب هو الكنز الذى حفظ فيه الأدب العربى ، وإن ضم بين دفانه كثيراً من الأخبار الموضوعة على الخلفاء وروايات المجان ، والخلعاء والمستهترين ممن لا يبالون بما يقولون صدقا أم كذباً ، فلا يعتبر من هذه الوجهة مصدراً للتاريخ الحقيقى لمنافاة أخباره الكثير من كتبه الصادقة ولمناقضة بعضها البعض .

ولم يكن أبو الفرج يقصد من ذلك إلى أكثر من نقل الأخبار على علاتها أسوة بكثير من رواة الأخبار والسير والأسمار . وقد اختصر أبو الفرج بنفسه كتابه فى مجلد فقد مع غيره من كتبه ؛ واختصره بعده كثيرون ، منهم ابن مكرم صاحب لسان العرب وغيره ، وطبع كتاب الأغانى بمصر فى عشرين جزءاً ، ثم عثر على جزء آخر فطبعه المستشرق رودلف برونو سنة ١٨٨٨ م .

أبو إسحاق الصابى

هو أبو إسحاق بن إبراهيم بن هلال الحرانى الصابى، صاحب الرسائل المشهورة، والنظم البديع، وأكتب كتاب العراق فى زمانه . .

نشأت أجداده فى حران من بلاد الشام على دين الصابئة، ومذهبهم منتزع من عقائد القدماء من السريان واليونان فى الكواكب ووثنيتها، وكانت صناعة آبائه ببغداد الطب والترجمة من السريانية، وكان أبوه هلال من أطباء بغداد، ورن أبا إسحاق فى صناعته على غير رغبة منه، إذ كان ميالا للأدب من صغره، فغلب عليه الأدب، وترك صناعة أبيه، وعمل فى ديوان الخلافة، وما زال يترقى به الحال عند الوزير المهلبى حتى وزر المهلبى لمعز الدولة البويهى المتغلب على خليفة بغداد من آل بويه، فولاه ديوان الرسائل، وكان يخلفه فى أعمال الوزارة عند غيبته، وصدرت منه العهود والمنشورات والمراسيم والكتب البليغة المسهبة عن الخليفة وعز الدولة وكان يعرض بتصغير عضد الدولة فى الكتب التى تصدر عن الخليفة إليه ويوجهه، فحقدها عليه حتى تغلب على بغداد فقبض عليه وأمر بسجنه، فشفع فيه، فقال : قد سوغته نفسه، فإن عمل كتابا فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته، فشرع فى محبسه فى عمل كتاب التاجى، فسعى بعضهم به إلى عضد الدولة بأنه زاره فى السجن، فرآه فى شغل عن التعليق والتبييض، فسأله عما يعمل، فقال : أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها، فأمر بالقائه تحت أرجل الفيلة، فترامى عظام الكتاب على أقدامه، وشفعوا فيه، حتى أمر باستحيائه، واستصفاء أمواله، وتخليد سجنه، إلى أن تخلص فى أيام صمصام الدولة بن عضد الدولة، وبقى بعد خروجه من السجن الذى لبث فيه بضع سنين متعطلا لا يعمل لأحد أنفة منه حتى مات سنة ٣٨٤ هـ وكان الصاحب ممن يديم صلته . وبقى أبو إسحق على دينه يتشدد فيه، وجهد عليه عز الدولة أن يسلم ويوليه الوزارة فلم يفعل، وكان يحسن حفظ القرآن ويكثر من اقتباسه فى رسائله والاستدلال به، وكان يحسن عشرة المسلمين ويصوم معهم شهر رمضان .

وكان أبو إسحاق أحد كتاب الدنيا، وكان الصاحب يقول : « كتاب الدنيا وبلغاء

العصر أربعة ، الأستاذ ابن العميد ، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو إسحاق الصابى ، ولو شئت لذكرت الرابع (يعنى نفسه) أما الترجيح بينه وبين الصابى فى الكتابة فقد خاض فيه نقدة زمانهما . ومن أشف ما قيل فيهما أن الصاحب كان يكتب ما يريد ، والصابى يكتب ما يراد ، والصابى من طوال النفس فى الكتابة ، وذلك ما كان زمانه يقتضيه من الإطالة فى التفخيم والتعظيم والتهويل وتكرير الوعد والوعيد ، وبالصابى ختم تاريخ الفحول من كتاب الدواوين . . وخلف من بعد ذلك خلف جعلوا همهم البديع اللفظى وطرحوا المعانى جانبا ، ويعتبر الصابى فى مقدمة الكتاب الذين التزموا السجع فى الرسائل السلطانية ، فكان ذلك من أقبح آثارهم . . . ومن رسائله كتاب لبعض أصحابه فى الشكر : وصل كتابك مشحونا بلطيف برك ، موشحا بغامر فضلك ، ناطقا بصحة عهدك ، صادقا عن خلوص ودك ، وفهمته وشكرت الله تعالى على سلامتك شكر المخصوص بها ، ووقفت على ما وصفته من الاعتداد بى ، وتناهيت إليه من التقريظ لى فما زدت على أن أعرتنى خلالك ، ونحلتنى خصالك ، لأنك بالفضائل أولى ، وهى بك أحرى .

العماد الأصبهانى

هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ، الملقب بعماد الدين الأصبهانى . نشأ فى أصبهان ثم ودرس فى مدينة بغداد بالمدرسة النظامية[1] ، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، فولاه البصرة ثم واسط ، وانتقل إلى مدينة دمشق سنة ٥٦٢ هـ فى حكم الملك العادل نور الدين ، وكان معاصراً للقاضى الفاضل ، اتصل بنجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبى ، ثم ولاه السلطان نور الدين ديوان الإنشاء ، وأحبه صلاح الدين حتى صار من المقربين إليه ، وتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ هـ ، وكان أديباً من كبار الكتاب ، اشتهر بالكتابة المسجعة البليغة ، وله مؤلفات فى التاريخ والأدب .

ومن رسائله ما كتبه العماد منشوراً عن لسان الملك العادل نور الدين لاتخاذ الحمام وتدريبه على الطيران لنقل الكتب : « هى رائد الأنباء ؛ المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهى فيوج[2] الرسائل المأمونة الإبطاء والسابقات الهوج[3] فى الاهتداء ، والحاملات ملطفات الأسرار ، فى أقرب مدة إلى أبعد غاية ، والموصلات مهمات الأخبار فى وقتها من أقاصى الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات فى ساعتها إلى البلاد أجواز القفار والموامى ، والنافذات بنجح المرام إلى المرامى ، وهى تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط فى ساعة ، وتنتهى إلى أقصى غايات الطاعة بأتم استطاعة ، وقد عم بهـا نفع المرابطين ، والغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فى إهداء أخبار الكفرة إليهم فى أماكنها ، دالة على مكايدها ومكامنها طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ، وإنها لميمونة المطار ، مأمونة المثار ، سالمة على الأخطار مهدية فى فى الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار من الأقطار » .

---

(١) هى المدرسة التى بناها نظام الملك الطوسى وزير السلطان ملكشاه فى أواسط القرن الخامس الهجرى.

(٢) جمع فوج وهو الجماعة من الناس ، والمعروف فى كتب اللغة أن الجمع فؤوج لا فيوج .

(٣) المسرعة .

ومن فصوله رثاؤه للقاضى الفاضل . وقد جاء فيه : « . . . وهو الولى القاضى الأجل الفاضل الأسعد أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف أبى المجد على بن الحسن بن البيسانى. صاحب القران، العديم الأقران ، وواحد الزمان العظيم الشان . رب القلم والبيان . واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة . والبصيرة النقادة . والبديهة المعجزة . والبديعة المطرزة، والفضل الذى ما سمع له بمماثل فى الأوائل ممن لو عاش فى زمانه لتعلق بغباره أو جرى فى مضماره. فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع . ورسخت بها الصنائع . يخترع الأفكار . ويفترع الأبكار . ويطلع الأنوار . ويبدع الأزهار ، وهو ضابط الملك بآرائه . ورابط السبل بآلائه . إن شاء أنشأ فى يوم واحد بل فى ساعة مالو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة . أين قيس فى مقام حصافته . وحاتم وعمرو فى سماحته وحماسته، وفضله بالأفضال حال ، ونجم قبوله فى أفق الإقبال عال ، لا من فى فعله ، ولا مين فى قوله ، ولا خلف فى وعده ، ولا بطء فى رفده . الصادق الشيم ، السابق بالكرم ، ذو الوفاء والمروءة ، والصفاء والفتوة ، والتقى والصلاح ، والندى والسماح ، منشر رفات العلم ، وناشر راياته ، وجالى غيابات الفضل وتالى آياته وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته ، وأخلصوا لولايته ، قد وفقه الله للخير كله ، وفضل هذا العصر على الأعصار السالفة بفضله ونبله . فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المتفرقة فى العاجلة ، لا يغفل عن الآجلة ، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلواته ، وحفظ أوراده ووظائفه . . .

المقامات وأثرها فى الأدب

ما هى المقامة :

١ ـ يقول الشريشى فى شرحه لمقامات الحريرى : « المقامات المجالس، واحدتها مقامة؛ والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين المحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير، والبديع نفسه يبين ذلك بقوله فى المقامة الوعظية: « قال عيسى بن هشام: فقلت لبعض الحاضرين : من هذا؟ فقال: شخص قد طرأ لا أعرفه، فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبىء عن علامته » فالمقامات جمع مقامة ، وهى : كالمقام، اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه ، وعلى هذا المعنى قول المسيب بن علس :

وكالمسك ترب مقاماتهم وترب قبورهم أطيب

ثم توسع فى استعمال اللفظ ، فانتقل إلى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان وبهذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هذا المعنى أيضا، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه، ودونها فى أماليه فصولا سمى كل واحد منها مجلسا على هذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار فصلا لكلام الزهاد بين أيدى الملوك، وجعل عنوانه: « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » ، وقال الجاحظ فى كتابه « البخلاء » فيما قال : ويذكرون من الشعر الشاهد ، والمثل ، ومن الخبر الأيام والمقامات .

٢ ـ هذا هو معنى المقامة اللغوى ، أما معناها الفنى فهو هذا الفن البليغ البديع المنمق، الذى صيغ فى أسلوب قصصى لطيف ، ويمثل قصة وقعت لشخص أو أشخاص ، يتخيلهم الكاتب ، ويضع على ألسنتهم حواراً يجتهد فيه فى التحسين والتزيين والوشى ، ويلتزم فيه

السجع أو يكثر منه ، ويودعه ما أراد له ذوقه من طرائف وروائع وملح وبدائع ، ونقد للأشخاص والمجتمع ، ووصف للأخلاق والبلاد والناس . .

ولقد كان من أثر اتصال كتاب العربية بالفرس ، وتنقلهم فى أفغانستان وخراسان وبلاد فارس ، أن اتصلوا بالحياة الاجتماعية ، وخالطوا العامة من الناس ، وسمعوا شيئا من أقاصيصهم وأحاديثهم ، وعرفوا بعض الأشخاص الذين يتحدث بأوصافهم وأخلاقهم ، وكان بعض هؤلاء الكتاب يجيدون اللغة الفارسية ، وربما كانوا يعجبون بها وبأساليبها ، فأخذوا فى محاكاة بعض تلك الأحوال والكتابة على نمطها باللغة العربية ، وقد كان أثر الحياة الفارسية قبل هذا العصر دخل فى لغة العرب ، بما كتبه ابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما ، فظهر أثر ذلك فى الكتابة النثرية ، فلما كان هذا العصر ظهر أسلوب المقامات المحتوى على قصص قصيرة ، يصف فيها الكاتب أحد الناس وأخلاقه ، ويذكر بها بعض الحوادث والأماكن بأسلوب مسجع ظريف . وكان النثر إلى هذا العصر مقصوراً على الرسائل وكتابة الدواوين والفصول الأدبية ، ولم يكن الأسلوب القصصى قد تسرب بعد إلى الكتابة العربية ، فلما كتب بديع الزمان مقاماته ، كانت تلك المقامات نوعا جديداً فى أساليب النثر العربى؛ وسار على أسلوب الهمذانى من جاء بعده من الكتاب أصحاب المقامات كالحريرى وغيره .

وواضح من المقامات المروية عن البديع والحريرى أن الكدية (الشحاذة) أهم أغراضها ، ومن ثم قيل عن المقامات إنها تطلق على ما يقصه أهل الكدية والشحاذون من الأدباء بلغة عربية فصيحة تعد فى أسلوبها من نماذج النثر الفنى الرفيع فى الأدب العربى .

ظهور المقامات ونشأتها :

١ ـ نسب الحريرى فى مقدمة مقاماته فضل ابتداع المقامات إلى بديع الزمان وعلامة همذان ، وكذلك يجعل الثعالبى البديع أبا عذرتها ، وأصل نشأتها .

ولكن الحصرى يقول : « ولما رأى ـ البديع ـ أبا بكر بن دريد أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وأهداها للأفكار

والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا[١] . ويقول الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا الكلام : مؤدى ذلك أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى فيها ابن دريد فى أحاديث ، ولكن لا ينفى ذلك أن البديع له فضل فى نشأتها . وظاهر أن هذه الأحاديث هى ما دونه صاحب الأمالى فى كتابه من أحاديث ومجالس لغوية يرويها عن ابن دريد ، ويذهب البعض إلى أن هذه الأحاديث المدونة فى « الأمالى »[٢] مصنوعة منتحلة على ابن دريد ، والبعض الآخر يذهبون إلى أن ابن دريد قد اخترع هذه الأحاديث ونحلها لبعض الأعراب ليجعل منها صوراً عربية تروى وتحكى وتحتذى ردا على الشعوبيين وعلى الفرس الذين أخذوا يحيون لغتهم وأدب بلادهم القديم فى عصر ابن دريد ، ولتكون هذه الأحاديث نماذج للتعليم[٣] . وينفى باحث أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامات كما عرف عند البديع[٤] ، وكان ابن دريد كاتبا لآل ميكال ، وكانوا ولاة على فارس .

وذهب أحد الباحثين إلى أن أبا المطهر الأزدى صاحب « حكاية أبى القاسم البغدادى » التى كتبها عام ٣٠٦ هـ هى الأصل الذى احتذاه البديع فى مقاماته ، وأن الأزدى هو مبتكر فن المقامة ، وشخصية أبى القاسم البغدادى فى حكايته هى شخصية أبى الفتح الإسكندرى .

٢ — ويروى لابن فارس الإمام اللغوى المتوفى عام ٣٩٠ هـ مقامات، ويقول فيه جورجى زيدان : « له فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليها اشتغل بديع الزمان . تلميذ ابن فارس » ويقول فيه ابن خلكان : لابن فارس رسائل أنيقة ، ومسائل فى اللغة اقتبس منها الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ، ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية .

---

(١) ١ : ٢٣٥ زهر الآداب .

(٢) مثل حديث مصاد بن مذعور وما جرى له مع الجوارى الطوارق بالحصى الذى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومثل مقام بعض الأعراب بالمسجد الحرام مستجدياً ،مما يشبه مقامات عيسى بن هشام ، بالمساجد مكديا .

(٣) ص ١٣٧ دراسات فى الأدب . (٤) ص ٢٠٧ بديع الزمان للشكعة .

٣ ـ ثم جاء بديع الزمان ، فرويت له خمسون مقامة ، والراجح أنه أنشأ أربعمائة مقامة ، على ماروى الثعالبي وياقوت وابن خلكان، ويؤكد ذلك البديع نفسه في رسالته إلى أبي المظفر، حيث يقول : « ومن أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا ومعنى ، حقيق الإنهاج لكشف عيوبه[1] »، والظاهر أن أكثر مقامات البديع قد ضاع، ولم يبق إلا ما تضمنته مقاماته المطبوعة .

ومن كتاب المقامات بعد البديع : ابن نباتة السعدى م ٤٠٥ هـ ، والحريرى م ٥١٦هـ ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى ألف مقاماته عام ٤٩٠ هـ وتوفى فى القرن السادس ، وكذلك ابن الجوزى م ٥٩٧ هـ ، ثم ابن الوردى ، والشيخ العطار، وأحمد فارس الشدياق، وناصيف اليازجى ، وعبد الله فكرى ، وسواهم .

المقامة والقصة :

والمقامات هى صور للقصة القصيرة ، ونموذج لها ، ففيها من القصة القصيرة العقدة ، وتحليل الشخصيات[2] .

وتحسب المقامات من أول بذور النثر القصصى فى الأدب العربى، لأنها ترمى إلى تصوير بعض النفوس والشخصيات بطريق قصصى ، ولولا انصراف الكتاب إلى الصناعة اللفظية لخطت المقامات خطوات واسعة فى سبيل النثر القصصى الذى يصور حياة النفوس والاجتماع. على أن أسلوب المقامات تمشى فى الأدب العربى ، وذاع أثره فى بلاد المشرق والمغرب ، لولوع الناس بالصناعة اللفظية .

ويشير أسلوب المقامات ـ على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم ـ إلى أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالبا ، وأنها من ناحية الموضوع كانت محاولة كبيرة لخلق القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها كانت تنحدر بانحدار الأدب جيلا إثر جيل ، من استمساك فى الأساليب ، إلى هلهلة وركاكة جريا وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض .

(١) ٢٢٢ رسائل البديع .

(٢) ١ : ٢٠٧ النثر الفنى لزكى مبارك .

وتعتمد القصة الناجحة أكثر ما تعتمد على العقدة والعرض ، وعنصر الحركة والمفاجأة والوقائع المثيرة والتفاصيل الدقيقة ، وتسجيل ألوان من الحياة الاجتماعية . . وهذه الأصول متوافرة فى كثير من المقامات التى تدخل فى باب القصة من أوسع الأبواب ، ومن أمثلة ذلك المقامة الموصلية ، والأسدية وسواها[1] .

لماذا نشأ فن المقامة :

١ — من الطبيعى أن توجد المقامة فى الأدب العربى فهى قصة قصيرة مستطرفة تروى ، وحوار يؤثر ، ومن طبيعة الإنسان أن يقص قصصه وقصص الآخرين ، وقد ساعد رقى النثر الفنى فى القرن الرابع على كتابة القصة القصيرة أو فن المقامة بأسلوب رائع جذاب مشوق ، ومن تمام التشويق اختار البديع موضوع مقاماته فى الكدية ، وقلده فى ذلك الحريرى وسواه ، والحريرى كذلك يقلد البديع فى فن المقامة ، بمعارضته له فيها إذ أنشأ خمسين مقامة على نمط المروى للبديع[2] .

٢ — ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، إذ لم تعرف المقات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وإنما عرفت بعده بقرن ونيف ، وأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بإنشائها عام ٥٥١ هـ ، وتوفى عام ٥٥٩ هـ — ١١٦٤ م كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار فى كتابه « تاريخ تطور النثر الفارسى » أن لفظ مقامة من اختراع البديع وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صدى فى الفارسية ، وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته . ويذكر الأنورى إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين هذه[3] .

(١) راجع ٢٧٩ وما بعدها — بديع الزمان للشكعة .

(٢) سبق أن قلنا إن البديع كتب أربعمائة مقامة ، ويرجح البعض أنه لم يمل إلا أربعين مقامة عارض بها أحاديث ابن دريد الأربعين ، وهذا خطأ ، ومقامات البديع المطبوعة خمسون فى طبعة الشيخ محمد عبده ، وإحدى وخمسون فى طبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى طبعة أخرى ، وقد أسقط الإمام محمد عبده المقامة الرصافية لما اشتملت عليه من فحش ومجون .

(٣) راجع ٢١٢ — بديع الزمان للشكعة .

٣ ـ ويذكر بعض المستشرقين أن أساطير التوراة عند اليهود، وقصة لقمان ، قد أوحتا إلى بديع الزمان بفكرة المقامات ، وكذلك يذكر آخرون أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والتركية والعربية من ملهمات البديع لفن المقامات . . وهذا استنتاج لا يؤيده الدليل ، فالواقع أن الظروف السياسية ، والاجتماعية والعقلية ، والأدبية والفنية فى المجتمع العربى أوحت إلى كاتب عربى هو البديع بإنشاء القصة الصغيرة وكتابتها .

سمات مقامات البديع أو خصائصها :

١ ـ الحوار فى المقامة عند البديع يدور بين رجلين هما : عيسى بن هشام الراوية ، وأبو الفتح الإسكندرى البطل . وكلاهما شخص خيالى مجهول كما يقول الحريرى ، ويذكر بعض الباحثين أن عيسى بن هشام الراوية كان شيخا للبديع ، ومنهم مؤلف « تاريخ همذان » أبو شجاع شيرويه م ٥٠٩ هـ ، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، ولعل ذلك وهم نشأ من قول البديع فى مطالع مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام .

٢ ـ وموضوع مقامات البديع هو الكدية، ولكنها تتناول مع ذلك نقد المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع ، وتصوير حياة المسلمين الاجتماعية ، والعقلية فى هذا العهد ، تصويراً رائعاً .

٣ ـ ولعل البديع كان يقصد بمقاماته إلى كتابة نماذج أدبية رائعة يحتذيها الشباب فى دراستهم وحياتهم الأدبية ، أو لعله كان يدل بما له من قدرة على صياغة الأساليب ، واختيار الألفاظ ، والتأنق فى الجمل والتعبير . فألفاظها مختارة عذبة ، يندر فيها الغريب ، وأسلوبها منمق يكثر فيه السجع والجناس والطباق ، وغيرها من ألوان البديع ، ويضمنه بما يناسب المقام من : قرآن أو حديث أو حكمة أو مثل أو شعر . ولكن يؤخذ عليها أن الجانب الفنى فيها للقصة غير متكامل ، فالحبكة القصصية ضعيفة ، والحوادث غير متسلسلة ، والحوار ينقصه التشويق ؛ والعقدة والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة أو معدومة .

مقامات الحريرى :

١ ـ وقد أنشأ الحريرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) خمسين مقامة وفق العدد الذى بقى لنا من مقامات البديع ، وبناها على الكدية ، كما فعل البديع ، ويقول فى مقدمتها : « وأنشأت على

ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خامدة وروية ناضبة وهموم ناصبة خمسين مقامة ، تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبى زيد السروجى[1] ، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصرى .

٢ ـ ونالت مقامات الحريرى فى عصره وبعد عصره شهرة فائقة ، حتى قال فيها ياقوت فى (معجم الأدباء) : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الألفاظ وانقادت له جوامع البراعة ، حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار ألفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره ، ولا يرد فى قوله ، ولا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتى بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعد الصيت ، والإتقان فى استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » ، ولكانتها صارت نموذجا فنيا تقتدى به الشباب والأدباء فى صناعة الإنشاء ، ويحفظه المتأدبون والشداة ، كسبا للموهبة وتنمية للذوق . . وشرحها كثير من العلماء من بينهم الشريشى م ٦١٩ هـ ، وعبد اللطيف البغدادى م ٦٣٩ هـ ، والعكبرى م ٦١٦ هـ ، وابن الأنبارى م ٥٧٧ هـ ، وابن الخشاب م ٥٦٧ هـ ، وسواهم .

٣ ـ ويذكر الحريرى أنه ألفها استجابة لمن إشارته حكم وطاعته غنم ، وقد اختلف فى تفسير ذلك ، فقيل هو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى ، أو شرف الدين أنوشروان ابن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ما روى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، أو ابن

---

(١) هو فيما يقال المطهر بن سلام البصرى النحوى م ٥٤٠ هـ ، لزم الحريرى وتأدب عليه وتخرج به لجمل مقاماته رواية على لسانه ، أما الحارث بن همام فيعنى به نفسه ، وقيل إن الحريرى ذكر أن السروجى كان شحاذا بليغا وحكيا فصيحا ، ورد من البصرة فوقف فى مسجد بنى حرام ، فسلم ثم سأل الناس وذكر أسر الروم ولده ، فذكر الحريرى ذلك فى المقامة الحرامية .

صدقة أحد وزراء المسترشد أيضاً كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريرى ، أو عامل البصرة وواليها فى بعض نقول الشريشى ، أو هو أحد أعيان البصرة فى نقل آخر له .

٤ ـ والموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، هى كتلك التى اختارها البديع وشغل بها بطله ، من نقد وحوار أدبى ، وهداية ، إرشاد ، وجدل وحجاج ، ومماياة وإلغاز ، مع مايقع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، وإخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان ، واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين ، والغزاة ، وأبناء السبيل ، والأعراب ، والحواة ، والسحرة ، والشموذين .

وقد أربى الحريرى فى ذلك على البديع فتزيد عليه فى باب الإلغاز بما اقتبسه عن ابن فارس ، من المماياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها ، كإنشاء رسالة تقرأ من أولها بوجه ، ومن آخرها بوجه ، أو رسالة تقرأ ردًّا وطرداً فلا يحيلها الانعكاس أو رسالة تتكون من كلمات معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من أولها إلى آخرها ، أو رسالة يراعى فى تأليفها تتابع الإهمال والإعجام بين الحروف من غير إخلال ، إلى أشباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيد ، ولا يجدى منه المعنى أو اللفظ أى جدوى ، اللهم إلا الضعف والتكلف الممقوت .

٥ ـ والصنعة البديعية عند الحريرى متكلفة ، فقد أجهد فيها نفسه ، وأعمل من أجلها خاطره ، وتأنق كل التأنق فى اختيار جملها ، ووصف أساليبها ، وأكثر فيها من البديع والوشى والزينة إكثاراً ، وحلاها بحلل ثقيلة من السجع والجناس ، والتورية والطباق ، ولم يبال بالغريب من الألفاظ يتصيده ، الحوشى يستعمله ، مع ما أورد فيها من حكمة ومثل ، وما ضمن من شعر ، وما اقتبس من قرآن وسنة ، وقد أرهقت الصنعة معانيه إرهاقاً شديداً .

أثر المقامات فى اللغة والأدب :

١ ـ أدى ظهور المقامات فى الأدب العربى ، إلى غنائه فى الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعانى .

٢ ـ أضافت المقامات إلى الأدب العربى فناً أدبيا جديداً لم يكن له وجود من قبل هو فن القصة القصيرة .

٣ ـ قدمت المقامات نماذج أدبية جميلة للأدباء والمتأدبين ليحتذوها ويحاكوها ويسيروا على منوالها ، مما يساعد على قوة الملكة والموهبة .

٤ ـ وقد أحيت المقامات كثيراً من مفردات اللغة وأساليبها ، ومن صور الأداء والتعبير فيها .

٥ ـ وكتب المقامات وشروحها والدراسات التى وضعت حولها ، كل ذلك كان ثروة للغة العربية وآدابها .

٦ ـ وقد أسهمت المقامات فى بناء النهضة الأدبية الحديثة فى مصر والعالم العربى ، إذ كانت المقامات من أوائل ما طبع فى مصر ، فتداولتها الأيدى، وتناولها القراء يتأدبون بها، ويتخرجون عليها فى صناعة النثر .

٧ ـ وقد ظهر فن أدبى جديد متأثر بفن المقامة ، وهو ضرب من الإنشاء فيه مشابه من المقامة، وإن كان ليس منها، إذ لا يعتمد خصائص القصة ولا جانبها الفنى ، وهو مقالات قصار ، تعتمد على الإيجاز ، وتقصد إلى الوعظ والحكمة ، وتسدى النصح والخبرة وثمرة التجربة إلى القراء ، وليس فيها حوار ولا لها راوية ولا بطل ، ولا تساق لغرض الكدية ، وهذا الفن نجده فى مثل كتاب أطواق الذهب لعبد المؤمن الأصفهانى، وكتاب أطباق الذهب للزمخشرى ، وأسواق الذهب لأحمد شوقى .

٨ ـ وللمقامات بجانب هذه الحسنات آثار سيئة فى اللغة والأدب ، إذ كانت الصناعة البديعية اللفظية المتكلفة السائدة فيها ذات أثر على فن الأدب وأسلوبه وعلى ملكات المتأدبين والشداة ، وأشاعت فن الأحاجى والألغاز فى الأدب وأبعدت الشباب خلال أوائل عصر النهضة عن الأصول الأدبية الأولى التى تمتلىء ثمارها بالطبع والملكة والموهبة القوية .

ويقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : « البديع سباق غايات، وصاحب آيات ، والمتصدى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته » .

وهذا يدلنا على فضل البديع وسبقه ، والحقيقة أن مقامات البديع أكثر انطباعا ، وأشد انسجاما ، وأبعد عن زخرف الصناعة وغريب اللغة . أما مقامات الحريرى فأبدع فنونا ، وأبرع خيالا ، وألطف فكاهة ، وأكثر أمثالا ؛ وقد نالت شهرة أكثر مما نالته مقامات البديع ، وترجمت إلى اللغات الأوربية .

والحريرى على أية حال أشهر من كتب المقامات بعد البديع وقد نسج على منواله ، وكرر أغراضه بأسلوب جزل ، وإكثار من الكلمات الحوشية ، وترديد للشعر القديم .

أبو بكر الخوارزمي

٣٢٣ ـ ٣٨٣ هـ

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي الكاتب الشاعر العالم اللغوي الأديب النحوي الإخباري، الرحالة ، فخر خوارزم ، وبليغ المشرق ، وصاحب الرسائل المشهورة .

كان أصل آبائه من طبرستان ، وولد بخوارزم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها . وكان زاخراً في كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخل الأمصار في طلب العلم والأدب ، وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، والتى سيف الدولة وخدمه بالشام ، ثم شرق إلى بخارى ونيسابور وسجستان وغيرها ، حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فكان من جملة المختصين به . ثم ذهب إلى عضد الدولة بشيراز ، فصدر عنه بالأموال الطائلة ، فاستوطن نيسابور ، وأقام بها للإملاء والتدريس ، فنكب نكبة سجن فيها ، وفر إلى ابن عباد ، ثم عاد إلى نيسابور . قال الثعالبي : « وطاب عيشه بها إلى أن رمى فى آخر أيامه بداهية من البديع الهمذانى ، وبلى بمساجلته ومناظرته ومناضلته ، وأعان البديع عليه قوم من الوجوه ، فلاقى ما لم يكن فى حسبانه ، وأنف من تلك الحال ، وانخذل انخذالا شديداً ، وكسف باله ، ولم يحل عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ » .

ومنزلته فى الكتابة لا تذكر ، ويمتاز عن ابن عباد بجزالة اللفظ وفخامته وكثير من الناس يفضله على ابن عباد ، ويمتاز البديع عنه برقة العبارة وقصر السجع ، وكان يتشيع ، وله فى ذلك رسائل بديعة ، وله ديوان رسائل طبع فى الآستانة وغيرها ، وفيه الكثير من رسائله البليغة المطولة .

ومن فصول رسائله ما كتبه إلى تلميذ له :

إن كنت أعزك الله لا ترانا موضعاً للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، فإن كنت تعتقد أنك قد استوفيت ما كان لدينا فسقط حقنا عنك وبقى حقك علينا ، فقد يزور الصحيح الطبيب بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه، وقد تجتاز الرعية على باب الأمير المعزول فتتجمل له ولا تعيره عزله، ولو لم تزرنا إلا لتريَنا رجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك، لكان ذلك فعلا صائبا ، وفى القياس واجباً .

الصاحب بن عباد الوزير الأديب

بعد ألف عام من وفاته

ذو القعدة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م — ٢٤ من صفر ٣٨٥ هـ : ٣١ مارس ٩٩٥ م

— ١ —

لم يبلغ أحد من الأدباء وحملة رسالة القلم ما بلغه الصاحب بن عباد ، من المجد والنفوذ وذيوع الصيت ؛ وكان — كما يقول ابن خلكان — : « نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر ، في فضائله ومكارمه وكرمه[1] » ، وكما يقول فيه الثعالبي : « هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغمرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان[2] » .

وقد كرم الصاحب في حياته ووفاته تكريما لم يبلغه أحد من الأدباء، وخلد على صفحات التاريخ ، مجدا سامقا ، وأدبا رفيعا ، وذكرى مرددة على الأيام .

— ٢ —

ولد الصاحبُ إسماعيلُ بنُ عباد بن العباس بن عباد في ذي القعدة من سنة ٣٢٦ هـ : ٩٣٨ م في طالقان ، وهو إقليم من أقاليم إيران ، بين قزوين وأبهر ، من أسرة فارسية[3] رفيعة النفوذ والسلطان، في خلافة الراضي العباسي (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ)؛ فرعاه أبواه بحنانهما وعطفهما رعاية فائقة .

ومضت أيام طفولته الأولى ، والخلافة العباسية تعصف بها العواصف ، فمات الراضي وخلفه المتقي (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) ثم المستكفي (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) ؛ وفي عهده زاد خطر الدولة البويهية في فارس ، وزحف معز الدولة البويهي على بغداد ، بجيوش كثيفة، واستولى عليها عام ٣٣٤ هـ : ٩٤٦ م، وخلع الخليفة، وولى مكان المطيع لله العباسي (٣٣٤— ٣٦٣هـ)، وسلب الخليفة سلطانه ، وتولى حكم العراق بالنيابة عنه ، ولم يبق للخليفة ذكر إلا أن يرد اسمه في الخطب ، وتجبى باسمه الأموال للبويهيين ؛ وتولى عماد الدولة أخو معز الدولة حكم

(١) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان. (٢) ٣ : ١٩٢ يتيمة الدهر للثعالبي تحقيق محي الدين عبد الحميد .
(٣) ٦ : ١٩٩ كتاب معجم الأدباء لياقوت — نشر رفاعي .

فارس والأهواز ، كما تولى أخوهما الثالث ركن الدولة الحكم فى الجبل والرى، وامتدّ نفوذه على جرجان وطبرستان . .

أما إقليم خراسان وما وراء النهر فكان فى نفوذ السامانيين الذين اتخذوا بخارى عاصمة لهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال تام ، وإن خطبوا للخليفة العباسى على المنابر . . . وكان إقليم الجزيرة والشام فى أيدى الحمدانيين ؛ ومصر فى ظلال الإخشيديين ، والشمال الأفريقى تحت سيطرة الفاطميين، والأندلس فى حكم الأمويين وملكهم عبدالرحمن الناصر (٣١٠ـ ٣٥٠ هـ) .

وكان قيام الدولة البويهية محاولة من العناصر الفارسية لاسترداد نفوذهم وسلطانهم فى دولة الخلافة من أيدى الأتراك ؛ وقضاء على النفوذ التركى فى العالم الإسلامى وبقيام هذه الدولة خضعت الخلافة العباسية لسلطانهم وهيمنتهم على العالم الإسلامى باسم الخلافة والخلفاء[1] .

ولما مات معز الدولة عام ٣٥٦ هـ[2] خلفه فى حكم العراق ابنه عز الدولة البويهى (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) ؛ ثم عضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢ ، هـ) فإخوته : صمصام الدولة بن ركن الدولة (٣٧٢ ـ ٣٧٦ هـ)، فشرف الدولة (٣٧٦ ـ ٣٧٩ هـ) ، فبهاء الدولة البويهى (٣٧٩ ـ ٤٠٣ هـ) .

وفى عهد عز الدولة خلع الخليفة المطيع لله، وولى مكانه الطائع العباسى (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) الذى خلعه بهاء الدولة البويهى أيضاً ، حيث جره أحد قواده من سرير الخلافة ، والخليفة يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . وفى ذلك يقول : الشريف الرضى :

من بعد ما كان رب الملك مبتسما ... إلىّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه ... لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيهات أغترّ بالسلطان ثانية ... وقد ضلّ ولّاج أبواب السلاطين[3]

---

(١) ٢٤٩ و ٢٥٠ الآداب السلطانية للفخرى .

(٢) فى هذا العام نفسه مات : سيف الدولة الحمدانى ، وكافور الإخشيدى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى .

(٣) ٣ : ١٤١ يتيمة الدهر .

واختار بهاء الدولة القادر بالله العباسي خليفة مكان الطايع (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) .

وقد نشر النفوذ البويهي سلطان الشيعة والعلويين والاعتزال . . وكان للصاحب ابن عباد مجالس يناظر فيها خصوم المعتزلة ويدعم حججهم[1] .

وفي العهد البويهي نهض الأدب ، وكثرت عواصمه ، ونبغ كبار الأدباء والشعراء ، كابن العميد (٣٦٠ هـ) ، والصاحب (٣٨٥ هـ) ، والخوارزمي (٣٨٣ هـ) ، والبديع الهمذاني (٣٩٨ هـ) ،والصابي (٣٨٤ هـ)،والقاضي الجرجاني (٣٩٢ هـ) صاحب الوساطة، والآمدي (٣٧١ هـ) صاحب الموازنة، وأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) صاحب الصناعتين؛ ومثل المتنبي (٣٥٤ هـ) ، والشريف الرضي (٤٠٦ هـ) ، ومهيار (٤٢٨ هـ) ، والمعري الحلبي (٤٤٩ هـ) ، وسواهم من أعلام الأدب والنقد والبيان والشعر . .

وقد تنافس الملوك والأمراء والوزراء والولاة في تشجيع الأدب ورعاية الشعراء . ولابن العميد والصاحب والمهلبي أثر كبير في ذلك ؛ وكان ابن سعدان وزير صمصام الدولة يشجع الفلاسفة والمفكرين كأبي حيان وأستاذه أبي سليمان المنطقي ؛ وكان شابور بن أردشير وزير بهاء الدولة يحتفي بالثقافة والأدب،وكان ابن العميد يميل إلى العلم من حيث كان الصاحب والمهلبي يميلان إلى الأدب ، وابن العميد أعقل ويدعي الكرم ، والصاحب أكرم ويدعي العقل كما يذكر أبو حيان[2] . .

وكانت هذه الثورة السياسية وما صحبها من تيارات مذهبية وعقلية وأدبية هي البيئة العامة التي عاش فيها الصاحب ، وتأثر بها ، وأثر فيها .

— ٣ —

وكان عباد والد الصاحب عالما أديبا كتب لركن الدولة البويهي ، الذي شمل نفوذه الجبل والري وجرجان وطبرستان ، وكانت حاضرة ملكه هي الري ، وتولى عباد الوزارة له ؛ وألف كتابا في أحكام القرآن ، نصر فيه الاعتزال وجوّد فيه[3] .

---

(١) ٦ : ٢٠٩ - ٢١٢ و ٢٨٠ معجم الأدباء .   (٢) ٦ : ٢٢٧ معجم الأدباء .

(٣) ٦ : ١٧٢ معجم الأدباء نقلا عن كتاب « المنتظم في التاريخ » لابن الجوزي .

وكان هو الأستاذ الأول لابنه إسماعيل ، الذى لقب فيما بعد بالصاحب . وقد عاش هذا الأب العظيم عمرا طويلا ، ومات فى السنة التى مات فيها ابنه ، وهى عام ٣٨٥ هـ . ويذكر ابن خلكان وغيره أنه توفى عام ٣٣٤ هـ أو ٣٣٥ هـ[1] ، والظاهر أن ذلك تحريف .

وهكذا نشأ الصاحب فى الرّى فى بيت سيادة ومجد ، حتى قال أبو بكر الخوارزمى فيه : « الصاحب نشأ من الوزارة فى حجرها ، ودب ودرج من وكرها ، وورثها من أبيه »[2] .

وعاشت أم الصاحب عمرا طويلا كذلك ، حتى توفيت عام ٣٨٤ هـ[3] .

— ٤ —

تتلمذ الصاحب على صديق أبيه الحميم ، أبى الفضل بن العميد ، وزير ركن الدولة ، وشيخ الأدباء والكتاب فى عصره . و « عماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة » ، والكثير من الأدباء جلسوا منه مجلس الطلاب من الأستاذ ، فأعجبوا به ، وجاروه وقلدوه ، واتسموا بطابعه ، وجروا فى نهجه ، وقبسوا من ناره ، واغترفوا من بحره ، وساروا فى طريقه ترسما وترسلا[4] . وطالت صحبة ابن عباد لأستاذه ، فسمى صاحب ابن العميد ، وأطلق عليه هذا اللقب . وقد مدح الصاحب أستاذه بقصائد شعرية كثيرة[5] ؛ وكانت مجالس ابن العميد يحضرها العلماء والأدباء والمتكلمون للمناظرة[6] ، وكان الصاحب يعده أستاذا ووالداً وابن العميد ينزله من نفسه منزلة الابن والتلميذ[7] .

ومن أساتذة الصاحب كذلك ابن فارس ، وكان ابن فارس يبعث للصاحب بكتبه والصّاحب يصله ويقدره[8] .

وكذلك تتلمذ على أبى سعيد السيرافى[9] ، وشاهد هذا الأستاذ الكبير من نبوغة ما حببه إليه ؛ وعلى أبى بكر بن مقسّم تلميذ ثعلب[10] ، وعلى القاضى أبى بكر بن كامل من

---

(١) ١ : ٧٥ و٧٦ وفيات الأعيان ، وسلم الوصول ورقة ١٦٦ (مخطوط بدار الكتب المصرية) .
(٢) ٣ : ١٩٤ يتيمة الدهر . (٣) ٦ : ٢٣٨ معجم الأدباء .
(٤) ٣ : ١٥٨ يتيمة الدهر . (٥) ٣ : ١٢٩ المرجع . (٦) ٣ : ١٦١–١٦٣ المرجع .
(٧) ٣ : ١٩٧ المرجع . (٨) ٦ : ٢٢١ معجم الأدباء . (٩) ٣ : ٢٠٤ اليتيمة .
(١٠) ٦ : ٢٧٦ – ٢٧٩ معجم الأدباء .

كبار رواة المبرد وثعلب والبحترى وأبى العيناء[1] . وكان يتردد على مجالس المتكلمين وأهل النظر بالعراق ، من مثل أبى زكريا يحيى بن عدى وغيره[2] .

وشهر الصاحب بالعلوم ، وأخـــذ من كل فن منها بالنصيب الموفور ، والحظ الزائد الظاهر ، ووهب من الفصاحة وحسن السياسة والأدب الرفيع ما وهب[3] .

وكان كثير المحفوظ ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد أخذ من كل فن بطارف ، وحصّل من كل أدب محصولا كثيرا ، وقرأ كتب المعتزلة ووعاها ، فغلب عليه كلامهم ؛ وكتابته سائرة على منهجهم وطريقتهم ؛ وكان شديد التعصب على أهل الفلسفة وعلومها والناظرين فى كتبها[4] .

وثقافته فى العروض والقوافى واسعة ، وألف فيهما ؛ وكان يتشيع بمذهب أبى حنيفة وفقه الزيدية[5] . ويكتب الرسائل البليغة ويقول القصائد الجيدة ، وحصل الحديث وتفوق فيه[6] ؛ وكانت لديه مكتبة ضخمة[7] ؛ وطارت شهرته ، وذاع صيته أديبا وكاتبا مجودا .

— ٥ —

وقرّب ابن العميد من تلميذه الأمير مؤيد الدولة بن ركن الدولة البويهى ، وكان ينوب عن والده فى أعمال الدولة وسياستها ؛ ووصف له ابن العميد ذكاء الصاحب ومواهبه ، فاتخذه كاتبا له[8] ؛ واجتهد الصاحب فى الإخلاص له ، وأنس منه الأمير كفاية ومواهب جمة ، فقربه إليه ، ولقبه بالصاحب كافى الكفاة ، فلما مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ ،وتولى ابنه مؤيد الدولة أمور الملك بالرى وأصبهان وأنحاء المملكة أبقى أبا الفتح بن أبى الفضل ابن العميد فى وزارته ، كما كان فى عهد أبيه . ولما أقصى هذا الوزير اتخذ مكانه الصاحب وزيرا . ومات مؤيد الدولة ، فسمى الصاحب ، حتى جاء بأخيه فخر الدولة البويهى (٣٤١ — ٣٨٧ هـ) مكانه وذلك عام ٣٦٧ هـ ، فأقرّ الصاحب فى الوزارة ؛ ولكن ابن عبّاد رأى بنظره وثاقب رأيه وحنكته السياسية ، أن يطلب من فخر الدولة إعفاءه من منصبه ليختار

(١) ٦ : ٢٧٩ المرجع . (٢) ٦ : ٢٧٩ و ٢٨٠ المرجع . (٣) راجع ٦ : ١٧١ المرجع .
(٤) ٦ : ١٧٤ و ١٧٥ المرجع . (٥) ٦ : ١٧٥ المرجع . (٦) ٦ : ٢٠١ المرجع .
(٧) ٦ : ٢٠٩ معجم الأدباء . (٨) راجع ٦ : ٢٢١ — ٢٢٤ المرجع .

مكانه من يريد لخدمته ، فأبى فخر الدولة أن يعفيه من عمله وقال له : لك فى هذه الدولة من إرث الوزارة مالنا فيها من إرث الإمارة فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه[1] . وظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة ثمانية عشر عاما .

— ٦ —

نشر ابن عباد بنفوذه وسلطانه مذهب المعتزلة فدخل الناس فيه ، ومالوا إليه ، رغبة فى مرضاته[2] . وكانت أيامه توطيدا لنفوذ العلويين[3] ، وكان متعصبا للشيعة، ناقما على معاوية يذكر ذلك فى شعره[4] ، وذهب إلى القول بالاختيار وتسفيه الجبرية والجبريين[5] .

وأخلص لدولة البويهيين كل الإخلاص ، حتى لقد حاول السامانيون أن يصير الصاحب إليهم ، فأبى وفاؤه ذلك ، وقال : كيف يحسن لى أن أفارق قوما بهم ارتفع قدرى ، وشاع بين الأنام ذكرى[6] . وكان فخر الدولة يثق به ويجله ويقدره ، ويرفع من منزلته ، الأمور تصدر عن الصاحب ، والملك يدبر برأيه ، حتى كان فخر الدولة إذا رأى رأيا ورأى الصاحب غيره، امتثل لرأى الصاحب وترك رأيه[7] ؛ وكان فخر الدولة كذلك يحله محل الوالد إكراما وإعظاما، ويخاطبه بالصاحب فى حديثه ورسائله، وقد التزم رجال الدولة وقوادها مع الصاحب الأدب والطاعة حتى كانوا يرتعدون عند رؤية أحد من حجابه وحاشيته[8] . وكان الصاحب يلزمهم بالعدل مع الشعب[9] . .

ولما توفيت أم الصاحب عام ٣٨٤ هـ بأصبهان ، وورد عليه الخبر ، جلس للعزاء، وركب إليه سلطانه وولى نعمته ، فخر الدولة ، معزيا ، ونزل وجلس عنده طويلا يعزيه ويسكّن من لوعته ؛ وفعل ذلك سائر الأمراء وكبار القواد[10].

وبعد ذلك بقليل زوّج سبطه عبـــاد بن على بن الحسين الحسنى الهمذانى عام ٣٨٤ هـ

(١) ٣ : ١٩٤ اليتيمة ، ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء . (٢) ٦ : ٢٠٥ معجم الأدباء .
(٣) ٣ : ١٩٢ اليتيمة . (٤) ٣ : ٢٧٧ المرجع نفسه .
(٥) راجع شعرا له فى ذلك فى المرجع نفسه (٣ : ٢٧٦) .
(٦) ٦ : ٢٥٩ معجم الأدباء ، وراجع ٣ : ١٩٧ اليتيمة . (٧) ٦ : ١٧٤ معجم الأدباء .
(٨) ٦ : ٢٤٧ المرجع . (٩) ٦ : ٢٤٨ المرجع . (١٠) ٦ : ٢٣٨ و ٢٣٩ المرجع.

بكريمة أحد أقرباء فخر الدولة[1] فبعث إليه هذا الملك بأموال ضخمة حملها أحد أصحابه الكبار، وقدم القواد ورجالات الدولة عليه مهنئين واقفين بين يديه مبجلين معظمين[2] ، ومدحه الشعراء بهذه المناسبة .

وفى يوم من الأيام استجار خال فخر الدولة بالصاحب ليحميه من غضبة الملك عليه ، فلم يقبل أن يجيره إلا بعد أن يستعطف الملك ويترضاه[3] . وكان أقارب فخر الدولة من الأمراء وكذلك كبار قواده يحضرون إلى قصر الصاحب فيقفون أمامه مطرقين إلى أن يؤذن لهم فى الدخول فيكون ذلك شرفا للواحد منهم ، فإذا دخل إلى مجلس الصاحب قبل الأرض بين يديه ، ولا ينصرف إلا بعد أن يقبل الأرض كذلك مراراً ؛ ولم يكن الصاحب يقوم لأحد ، ولا يهم بالقيام ، ولا يطمع منه أحد فى ذلك[4] . وكان رؤساء البويهيين وأمراؤهم عندما يسير الصاحب يَمْشُون بين يديه. وكان عضد الدولة فى رسائله إليه يجلُّه ويعظمه[5] .

وقد كان الصاحب موفقاً فى سياسته كل التوفيق ، فتح خمسين حصناً ، وأضافها إلى ملك فخر الدولة[6] ، وبلغ غاية لم يبلغها أحد من أقرانه ، وكان يقول : ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق ، وأتصدر ببغداد ، وأستكتب الطائى ، ويكتب عنى ، وأغيِّر عليه[7] .

وفى شباب الصاحب كان انصرافه إلى مجالس العلم وأندية الأدب ، أما فى أخريات حياته فكانت السياسة تصده عن ذلك ، وتدبير الملك يقتضيه السهر فى حياطته ورعايته ، وقد نجح فى ذلك أيما نجاح ففتح الفتوح ، وذلل الصروح ووطئ الرقاب ، وأدرك الثأر ، واصطنع الرجال ، كما يقول الصاحب نفسه من رسالة له إلى صديقه فى الأدب أبى العلاء الأسدى[8] ؛ وفى هذه الرسالة يؤكد أن أعباء السياسية قد أثرت على صحته ، ومتاعب الحكم قد أوهت من قوته ، وفيها يذكر بيتين من شعره لهما دلالتهما وهما :

(١) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة . (٢) ٦ : ٢٤٠ معجم الأدباء .
(٣) ٦ : ٢٤١ — ٢٤٢ المرجع . (٤) ٦ : ٢٤٥ و ٢٤٦ المرجع .
(٥) ٦ : ٢٨٠ المرجع . (٦) ٦ : ٢٥١ المرجع . (٧) ٦ : ٣٠٦ المرجع .
(٨) راجع هذه الرسالة الخطيرة فى ٦ : ٢٩٥ — ٢٩٩ المرجع .

وقائلة : لم عرتك الهمــــوم وأمرك ممتثل فى الأمم

فقلت : دعينى وما قد عرا فإن الهموم بقـــدر الهمم

وقد صرّح بأنه كتب هذه الرسالة وسنه تزيد على الخمسين ، وأرجح أنه كتبها نحو عام ٣٨٠ هـ .

لم ينجب الصاحب غير بنت واحدة زوّجها لعلى بن الحسين الهمذانى الحسنى وكان كاتباً وشاعراً بليغاً ؛ وقد أنجبت ابنته ولداً سماه جده (عبادا) واحتفى بمولده أيما احتفاء وقال فيه :

أحمد الله لبشرى أقبلت عند العشى

إذ حبانى الله سبطا هو سبط للنبى

مرحبا ثمت أهـلا بغـــلام هاشمى

نبوى عـــلوى حَسنى صاحبى[1]

وقد هنأه الشعراء بمولده بقصائد كثيرة[2] ، وبعد أن كبر هـذا الطفل وبلغ مبلغ الشباب زوّجه جده من كريمة أحد أقرباء فخر الدولة[3] ، وهى ابنة أبى الفضل الداعى ، وهنأ الشعراء الصاحب كذلك بهذه المناسبة الجميلة .

وحين بنى الصاحب قصراً له بأصبهان ، أقبل الشعراء عليه يهنئونه بقصائد من جيد الشعر وأعذبه[4] . .

وذلك كله يدل على مجده ونفوذه الكبير فى الدولة .

— ٧ —

وقد رعى الصاحب النهضة العلمية والأدبية فى بلاده رعاية فائقة ، وأغدق على العلماء والأدباء والشعراء ، فكان يرسل الأموال الجمة إليهم وإلى الكثير من المحتاجين من أهل الشرف والفقهاء والزهاد والكتاب ببغداد والحرمين ، كل سنة ، مع ركب الحج ، على مقاديرهم ومنازلهم[5] ، ويقـــول الثعالبى فيه[6] : كانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء

(١) ٦ : ٢٨٤ و ٢٨٥ المرجع . (٢) راجع ٦ : ٢٨٦ المرجع ، ٣ : ٢٤٠ ـ ٢٤٢ اليتيمة .
(٣) ٣ : ٢٤٢ اليتيمة . (٤) ٣ : ٢٠٧ ـ ٢١٨ المرجع .
(٥) ٦ : ٣٠٠ اليتيمة . (٦) ٣ : ١٩٢ و١٩٣ اليتيمة ، ٦ : ٢٨١ و٢٨٢ معجم الأدباء .

والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، جلب إليه من الآفاق، وأقاصي البلاد ، كل خطاب جزل ، وقول فصل ، واحتفّ به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي ، وملك رق المعاني ؛ فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد ، من فحول الشعراء . وجمعت حضرة الصاحب بأصبهان والري وجرجان مثل : أبي الحسين السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني ، وأبي العباس الضبي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي القاسم بن أبي العلاء ، وأبي محمد الخازن ، وأبي هاشم العلوي ، وأبي الحسن الجوهري ، وبني المنجم ، وابن بابك ، وابن القاشاني ، والبديع الهمذاني ، وإسماعيل الشاشي، وأبي العلاء الأسدي ، وأبي الحسن الغويري ، وأبي دلف الخزرجي ، وأبي حفص الشهرزوري ، وأبي معمر الإسماعيلي ، وأبي الفياض الطبري ، وغيرهم . وممن مدحه مكاتبة : الرضي والصابي وابن حجاج وابن سكرة وابن نباتة .

مدح الصاحب خمسمائة شاعر من أرباب الدواوين ، وكان من قضاته قاضي القضاة عبدالجبار بن أحمد[1] . وقال الصاحب : مدحت بمائة ألف قصيدة شعر عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالي على الشعراء والأدباء والزوار والقصاد ، وما سررت بشعر ، ولا سرني شاعر ، كما سرّني الرستمي بقوله :

ورث الوزارة كابرا عن كابر   مرفوعـــة الإسناد بالإسناد

يروى عن العباس عباد وزا   رته وإسماعيل عن عباد[2]

ولا شك أن الصاحب أثر بذلك في النهضة الأدبية في بلاده تأثيرا كبيرا وخطيرا .

---

(١) ٦ : ٢٥٧ معجم .   (٢) ٦ : ٢٦٣ المرجع .

— ٨ —

كان الصاحب ـ كما قيل فيه ـ يجمع بين الرأفة والبطش ، والناس يهابونه ويجلونه لاقتداره وبطشه . وكان وقوراً محبوبا من العامة والخاصة ، وإلى جانب ذلك كان جوادا سخياً ، لا تخلو داره فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس يجلسون على مائدته فى الإفطار ؛ وكانت صلاته وحبراته فى هذا الشهر تبلغ ما ينفق منها فى جميع شهور السنة[١]، ولا يقل ما يبذله كل عام فى صلات الأشراف وأهل العلم ووجوه الخير عن مائة ألف دينار[٢] . . وكانت له من أسباب الهيبة ما يعجز الكاتب عن وصفه[٣] . وفيه وفى ابن العميد يقول خصمهما اللدود أبو حيان التوحيدى : كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا[٤] .

ومع ذلك فقد هجاهما التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين » هجاء مرا ؛ وألصق بهما التهم جزافا ، وكال لهما المفوات بغير حساب . وهجا بعض الشعراء الصاحب هجاء مقذعا[٥]، كأبى العلاء الأسدى ، والنورى ، والخوارزى والسلامى[٦] .

— ٩ —

وترك الصاحب مؤلفات كثيرة منها[٧] :

١ ـ كتاب المحيط باللغة فى عشرة مجلدات ، ومنه نسخة خطية عثر عليها فى لندن فى المتحف البريطانى ، ونسخة فى مكتبة المجمع العلمى العراقى ببغداد تقع فى مجلدين كبيرين ، وكاتبها هو الشيخ محمد السماوى عن نسخة كتبت للسيد على خان المدنى صاحب السلافة .

٢ ـ كتاب الكافى فى الرسائل .

٣ ـ ديوان رسائل الصاحب ـ عشرة مجلدات ، وقد طبعت مختارات منها .

---

(١) ٣ : ١٩٧ اليتيمة . (٢) ٦ : ٢٤٩ معجم الأدباء . (٣) ٦ : ٢٤٨ المرجع .

(٤) ٦ : ٢٣٢ المرجع . (٥) ٣ : ٢٨١ اليتيمة .

(٦) ولبعض الشعراء فى الصاحب : متلقب كافى الكفاة وإنما هو الحقيق ـ كافر الكفار السجع سجع مهوس ، والخط خط منقرس والعقل عقل حمار .

(٧) ٦ : ٢٦٠ معجم الأدباء .

٤ ـ كتاب الزيدية .

٥ ـ كتاب الأعياد وفضائل النوروز .

٦ ـ كتاب فى تفضيل علىّ بن أبى طالب .

٧ ـ كتاب الوزراء .

٨ ـ عنوان المعارف فى التاريخ .

٩ ـ الكشف عن مساوئ المتنبي فى شعره وهو مطبوع ، وقد نقد الصاحب فيه شعر المتنبي ، وكان يتحامل على المتنبي لأنه لم يقصد إليه فى الرى ولم يمدحه مع أنه مدح ابن العميد، وكان الصاحب قبل وفاة المتنبي عام ٣٥٤ هـ لا يزال شابا ولم يكن له آنذاك كبير الخطر ، ولا شهرة فى السياسة ، ولعل ذلك هو ما جعل المتنبي لا يقصده ولا يقول فيه شيئا من الشعر .

١٠ ـ كتاب مختصر أسماء الله تعالى وصفاته .

١١ ـ كتاب العروض الكافى .

١٢ ـ كتاب نقض العروض .

١٣ ـ كتاب جوهرة الجمهرة .

١٤ ـ كتاب نهج السبيل فى الأصول .

١٥ ـ أخبار أبى العيناء .

١٦ ـ تاريخ الملك واختلاف الدول .

١٧ ـ وهذا كله بالإضافة إلى ديوان شعره ، وهو مطبوع ، وقد صدرت طبعة جديدة منه من مكتبة النهضة ببغداد بتحقيق محمد حسن آل ياسين .

١٨ ـ وينسب ياقوت كتابا عنوانه « كتاب الزيدين » ولعله هو كتابه الزيدية تحرف .

— ١٠ —

ظل الصاحب وزيرا لفخر الدولة أكثر من ثمانية عشر عاما ومات وهو يخطو إلى الستين ، فى الرابع والعشرين من صفر عام ٣٨٥ هـ[1] ٣١ من مارس عام ٩٩٥ م ومات بعده فخر الدولة بعامين .

وقد اهتزت مدينة الرى وهى تشيع جثمان الوزير الأديب إلى مرقده الأخير ، وسار أمام النعش فخر الدولة وكبار القواد والأمراء ، وقعد بنفسه للعزاء أياما[2] . وبكاه الشعراء بكاء مؤثرا[3] ، فقال فيه : أبو القاسم الأصبهانى :

ما متّ وحدك لكن مات من ولدت ... حواء طرا ، بل الدنيا ، بل الدين

تبكى عليك المطايا والصلات كما ... تبكى عليك الرعايا والسلاطين

وقال فيه الشريف الرضى من قصيدة طويلة :

هلا أقالتك الليالى عثرة ... يا من إذا عثر الزمان أقالا

إن نكس الإسلام بعدك رأسه ... فلقد رُزِى بك موئلا ومآلا

كان الغريبة فى الزمان فأصبحوا ... من بعد غارب نجمه أمثالا

وهكذا طويت هذه الصفحة البيضاء وختم سجل تلك الحياة الحافلة بالجد والعبقرية .

— ١١ —

١ ـ كانت كل الأسباب تدفع بالصاحب إلى النبوغ فى الأدب : عصره ، ونشأته العلمية والأدبية ، وأساتذته من أمثال : ابن العميد والسيرافى وابن فارس ، وبيئته ومناصبه التى تقلدها ، وحلقات العلم والأدب ومناظراتهما التى خاضها ، والكتب التى قرأها ، ورغبته فى أن يحتل منزلة ابن العميد ، وأن تحتل الرى منزلة كبغداد فى قيادة النهضة الأدبية وتوجيهها .

كل ذلك كان عاملا فى تفجر مواهبه ، وانطلاق ملكاته ، وانبثاق ينابيع شاعريته ،

---

(١) ٣ : ٢٨٣ اليتيمة . (٢) ٦ : ١٦٩ و٢٧٥ معجم الأدباء .

(٣) ٣ : ٢٨٤ـ٢٩٠ اليتيمة ، ٦: ٢٦٣و٢٩٤و ٢٩٥ معجم الأدباء .

فكان أديبا كاتبا بليغا ، وشاعرا رصينا ، وكان أستاذه وقدوته فى الكتابة الفنية هو ابن العميد ولا ريب .

٢ ـ وفى عصر الصاحب ازدهرت الكتابة ، وبلغت قمة التجويد والتحبير ، ونبغ فى هذا العصر أعلام الأدب والنقد والنثر الفنى ، من أمثال : ابن العميد والجرجانى والعسكرى والآمدى والصابى والخوارزمى والبديع والمهلبى والضبى وغيرهم .

وكان الصاحب يقول: كتاب الدنيا وبلغاء العصر أربعة: ابن العميد والصابى وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولو شئت لذكرت الرابع ، يعنى نفسه[1] . وكان يقال إن الصاحب يكتب ما يريد والصابى يكتب ما يراد . وكان يسير على طريقة ابن العميد فى الكتابة ، مع حرص شديد على السجع ، حتى روى أبو حيان فيه أنه لو رأى سجعة ينحلُّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها[2] ؛ ويقول أبو حيان : كان ابن عباد يأتى بالسجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة[3] .

وبلاغاته وفقره ورسائله مشهورة ، معروفة المنزلة فى الفصاحة والبيان .

يقول فى التهنئة ببنت[4] :

أهلا وسهلا بعقيلة النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ؛ والأولاد الأطهار، والمبشرة بأخوة يتناسقون ، نجباء يتلاحقون ؛ فادرع يا سيدى اغتباطا ، واستأنف نشاطا ؛ فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبِّدُونها ؛ والأرض مؤنثة، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحليت بالنجم الثاقب ؛ والنفس مؤنثة ، وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ؛ والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون ، ولها بعث المرسلون . فهنيئا هنيئا لك ما أوليت ، وأوزعك الله شكر ما أعطيت ، وأطال بقاءك ما عرف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، ولما عمر لبد .

---

(١) ٢ : ٢٤٦ اليتيمة . (٢) ٦ : ٢٠٧ معجم الأدباء .
(٣) ٦ : ٢٦٤ المرجع نفسه . (٤) ٣ : ٢٥١ اليتيمة .

وأهدى إلى الصاحب مصحف فقال :

كتاب الله وبيانه، وكلامه وفرقانه، ووحيه وتنزيله، وهداه وسبيله، ومعجزة رسول الله — صلى الله عليه وسلم ودليله —، طبع دون معارضة على الشفاه، وختم على الخواطر والأفواه، فقصر عنه الثقلان ، وبقى ما بقى الملوان، لائح سراجه ، واضح منهاجه ، منير دليله ، عميق تأويله ، يقصم كل شيطان مريد ، ويذل كل جبار عنيد .

وتتلخص طريقة الصاحب الفنية فى الكتابة فيما يلى :

أولا : إيثار السجع والتزامه ، حتى ليقول أبو حيان التوحيدى متهكما به : كان كلفه بالسجع فى الكلام عند الهزل والجد يزيد على كلف كل من رأيناه فى هـذه البلاد . قلت لابن المسيبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك حدا لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى عزم ثقيل، وكلفة صعبة، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يخليها ، بل يأتى بها ، ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع من وصفت من عواقبها. ثم قال — نقلا عن ابن العميد —: إن الصاحب خرج من الرى متوجها إلى أصفهان ، ومنزله « ورامين » . وهى قرية كالمدينة ، فجاوزها إلى قرية غامرة ، وماء ملح ، لا لشىء إلا ليكتب إلينا : كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت نصف النهار .

ثانيا : إيثار الفقر القصيرة فى التعبير ، لشدة وقعها فى النفس ، وقـوة تأثيرها فى السمع .

ثالثا : الاهتمام بالمعنى اهتماما واضحا ، وإعطاء الموضوع مايستحقه من عناية، فهو يقسم عناصره ، ويرتبها ، ويعطى كل قسم منها من المعانى ما يوضحه ويبينه ، وهو يأخذ هـذه المعانى بالتحليل والتفصيل ، ويتعهدها بالتنويع والتفريع ، ويقرن بعيدها بما يقربه إلى العقل من دليل أو نظير ، ويولد بعضها من بعض ، متكئا على ثقافته العقلية ، فأصبحت الرسالة عنده ذات وحدة موضوعية ، وبنية فنية متميزة، وصارت معانيها عنده دقيقة الترتيب والتقسيم .

رابعا : كثرة الحجاج العقلى فى أسلوبه . أثرا لثقافته الكلامية التى استفادها من اعتزاليته .

خامسا : الحرص على تأكيد المعنى وتقريره ، بمعاودته ، وبإيثار الترادف والإلحاح عليه .

ونثر الصاحب على الجملة ـ لو تأملناه ـ نثر لطيف ، رشيق بليغ ، عذب سهل ، يتميز بقوة الحجة والاعتماد على المنطق ، مما كان أثرا لاعتزاليته وثقافته وعقله الواسع . كما يتميز بقصر الفقرات وشدة توقيعها والحرص على السجع فيها ، وقد يعنى فيه بالجناس أو المقابلة .

ولاشك إن الصاحب كان من أعلام النهضة الفنية فى الأدب والكتابة وأدب الرسائل فى عصره ، وهو القرن الرابع الهجرى ، الحافل بأسباب النهضة والازدهار والتجديد والحضارة .

٣ ـ وفى عصر الصاحب كان الشعر يجتاز مرحلة عالية من البلاغة والتجديد والابتكار، وكان المتنبي والرضى ومهيار والمعرى ومئات الشعراء يدوى ذكرهم فى كل أفق ، ويسير شعرهم فى كل مكان ، ويملأون الجو الأدبى حياة وقوة وخصبا .

وللصاحب شعر كثير ، جمع فى ديوان منشور ، وروى بعضا منه الثعالبي وغيره من الكتاب .

وقد نظمه الصاحب فى أغراض كثيرة :

ا ـ نظمه فى الغزل ، كقوله :

قال لى : إن رقيبى سيئ الخلق فداره
قلت : وجهك الجنـــة حفت بالمكاره

ب ـ وفى الخمريات ، ومنه فى وصف الكأس :

رق الزجاج وراقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قـــدح ولا خمر

ج ـ ونظمه فى الأوصاف والتشبيهات ، كقوله :

شبهته والسيف فى كفه بالبدر إذ يلعب بالبرق

وقوله :

أهديت عطرا مثل طيب ثنائه فكأنما أهدى له أخلاقه

د ـ وفى الإخوانيات كقوله :

يا أبا الفضل لم تأخرت عنا فأسأنا بحسن عهدك ظنا

كم تمنت نفسى صديقا صدوقا فإذا أنت ذلك المتمنى

فبنصن الشباب لما تثنى وبعهد الصبا وإن فات منا

كن جوابى إذا قرأت كتابى لا تقل للرسول كان وكنا

هـ ـ وفى المدح كقوله فى فخر الدولة لما بنى قصره بجرجان :

يا بانيا للقصر بل للعلا همك والفرقد سيان

لم تبن هذا القصر بل صغته تاجا على مفرق جرجان

وقصرك المبنى من قبله ملكك والله هو البانى

فاقبل نثار العبد بل نظمه فإنه والدر مثلان

واسمع مقالا لم يقل مثله مذ كانت الدنيا لإنسان

لو كان للخلق إلهان لكان فخر الدولة الثانى

وفى البيت ما فيه من المبالغة القريبة من الكفر ومن الملق والنفاق .

و ـ ونظمه فى الهجاء والمجون كقوله :

إن قاضينا لأعمى أم على عمد تعامى

سرق العيد كأن العيد من مال اليتامى

وقوله :

تزلزلت الأرض زلزالها فقالوا بأجمعهم : مالها ؟

مشى ذا الثقيل على ظهرها فأخرجت الأرض أثقالها

وهو شعر يدل على ذوق مترف ، وشاعرية خصبة ، غنية بالألوان والصور والأخيلة والمعانى ؛ ولكنه لا يرتفع به إلى منزلة شعراء عصره الخالدين ، من أمثال المتنبى والرضى ومهيار وغيرهم . وهو كذلك لا يصل إلى منزلة نثره البليغ الرصين الرائع .

وعلى الجملة فقد كان (ابن عباد[1]) شاعرا مجودا ، وبليغا محلقا ، وأديبا مترسلا ، فى الصف الأول من أدباء عصره ؛ وقد خلدته روائع شعره ونثره على مر الزمان .

---

(١) راجع فى الصاحب : المنتظم لابن الجوزى ـ يتيمة الدهر الجزء الثالث ـ وفيات الأعيان الجزء الأول ـ سلم الوصول (مخطوط) ـ

معجم الأدباء لياقوت ـ الأعلام للزركلى ـ جميع كتب التاريخ التى أرخت للدولة البويهية والقرن الرابع الهجرى ـ كتب تاريخ الأدب العربى ، من مثل تاريخ الأدب العربى للزيات ـ تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ـ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ، تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد زيدان ، تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى ، الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى ، أدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف ، تاريخ الأدب لحفنى ناصف ، الحياة الأدبية فى العصر العباسى ، والحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ، وهما لكاتب هذا البحث ـ العصر العباسى للإسكندرى ، تاريخ الأدب العربى الجزء الثانى لمحمود مصطفى دوائر المعارف من مثل : دائرة المعارف الإسلامية، دائرة معارف البستاني، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى ، الأعلام للزركلى ـ زهر الآداب للحصرى ، الصناعتين للعسكرى ، صبح الأعشى للقلقشندى ، النثر الفنى فى القرن الرابع لزكى مبارك ، أمراء البيان لمحمد كرد على ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى لشوقى ضيف ، المثل السائر لابن الأثير ، نهاية الأرب للنويرى، الآداب السلطانية للفخرى ـ الوزراء والكتاب للجهشيارى ، نشوار المحاضرة للتنوخى .

وراجع ديوان الصاحب، ورسالته: الكشف عن مساوىء المتنبى فى شعره ، وكذلك مجموعة رسائله.

وللدكتور بدون طبانة كتاب عن الصاحب نشر فى سلسلة أعلام العرب ، وللدكتور داود حفنى دراسة مخطوطة عنه.

بديع الزمان الهمذانى

٣٥٨ ـ ٣٩٨ هـ

— ١ —

هو بديع الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذانى الكاتب المترسل ، والشاعر المبدع ، حافظ عصره ، وذكى دهره ، وقدوة الحريرى فى إنشاء المقامات ، وقريع الخوارزمى فى المبادهات والمكاتبات . نشأ بهمذان ودرس العربية والأدب على ابن فارس وغيره ، وورد على الصاحب فاقتبس من أدبه وماله ، ثم ضرب فى الأرض يتكسب بالأدب فأقام بنيسابور مدة أملى بها أربعمائة مقامة فى الجد وَالهزل نحلها أبا الفتح الإسكندرى محدثا عن عيسى بن هشام بلفظ أنيق ، وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسج الحريرى مقاماته، وَاحتذى حذوَها ، واعترف بفضل السبق له ، ثم شجر بينه وَبين الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريحه وبعد صيته ، إذ لم يكن فى الحسبان أن أحداً يجترىء على الخوارزمى أو يتحكك به ، فانتصر لهذا قوم وتعصب لهذا آخرون ، واتفق أن مات فى أثناء ذلك خصمه ، فخلا له الجو عند الملوك والرؤساء ، وتجول فى حواضرهم . فلم يبق بلد فى خراسان إلا دخله إلى أن ألقى عصاه فى هراة ، وصاهر أحد أعيانها من العلماء ، فطاب عيشه ، ونعم باله ، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ . قيل إنه مات مسموما ، وقيل إنه مات بالسكتة ، وعجل دفنه ، فأفاق فى قبره وسمع صوته بالليل . وأنه نبش قبره فوجدوه وقد قبض على لحيته ومات من هول القبر .

وكان البديع أسرع أهل زمانه بديهة ، وَأكثر شعره وكتابته مرتجل ، وكانت عبارته سهلة لينة قصيرة السجع . تشهد عذوبة لفظها ، وتدفق جملها ، بأن صاحبها قالها طبعا من غير أن يكدح خاطراً ، أو يتعمد صناعة ، ولا غرو فقد قيل : إنه كان يلقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال شعراً إلى العربية ، وكان لجريان طبعه وتوقد ذهنه وتمكنه من صناعته ، يتعمد أن يكتب الكتاب الذى يقترح عليه ، فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم هلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شىء وأصلحه .

— ٢ —

ومن رسائل البديع يعزى بعض إخوانه عن أبيه :

وصلت رقعتك يا سيدى والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالعزاء أجدر ، والصبر عن الأحبة رشد كأنه الغى ، وقد مات الميت فليحى الحى ، والآن فاشدد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ، لقد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولك الألوف بين سراه وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم[1] الزمان عودك ، فإن استلانه رماك بقوم يقولون خير المال ما أتلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحباب[2] والأحباب ، والعيش بين الأقداح[3] والقداح[4] . ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطربا للكاس ، وغداً واحربا من الإفلاس ؛ يا مولاى ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نقراً ، ويسميه العاقل فقراً ، وكذلك المسموع فى الناى هو الآن فى الآذان زمر ، وغداً فى الأبواب سمر[5] ، فإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه ، رماك بقوم يمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عرسك ، وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ، ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلا عن الفريقين لا منع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط ، وللمروءة قسم ، فصل الرحم ما استطعت ، وقدر إذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير ، خير لك من أن تكون فى جانب التبذير .

ومقاماته ورسائله مطبوعة مشهورة ، وله أيضاً ديوان شعر صغير مطبوع فى مصر .

---

(١) سيجرب . (٢) فقاقيع الخمر . (٣) جمع قدح وهو الخمر .
(٤) جمع قدح وهو للميسر . (٥) إقفال وتسمير للأبواب .

— ٣ —

ومقامات الهمذانى هى حكايات أو قصص قصيرة ، انتزعها بديع الزمان من الحوادث التى وقعت له أو شاهدها فى أثناء رحلاته الكثيرة فى بلاد خراسان وما جاورها . وقد كتبها فى نيسابور بعد أن عاشر كثيراً من الناس ، وخالط العامة والخاصة هناك . ويظهر أن التسول كان دائما وكانت حيل المتسولين معروفة لديه، وقد عرف بعضهم واتصل به . وكان كثير من الأدباء إذ ذاك على هذه الحال . فيكتب مقاماته يصف فيها حالة هؤلاء ، وعزاها إلى رجل سماه أبا الفتح الإسكندرى ، ونسب روايتها إلى رجل آخر سماه عيسى بن هشام . وقد يكون فى حياة أبى الفتح الإسكندرى شىء من صفات بديع الزمان نفسه ، وشىء من أخلاقه ، لأنه كان ممن يسأل بأدبه ، ولأن حياته كانت فى جملتها على هذا النحو من الرحلة والسؤال . وموضوع مقاماته أن رجلا شحاذاً أديباً هو أبو الفتح الإسكندرى كان يجول فى البلاد ويتفنن فى أساليب الاحتيال للحصول على المال . وكل مقاماته التى تنيف على الخمسين لا تخرج عن هذا الغرض ، ولكنها تمتاز بدقة أسلوبها ، وسلاسة ألفاظها واختيار عباراتها ، واشتمالها على كثير من المعانى الطريفة ، والألفاظ اللغوية ، وعـــدم التكلف الظاهر . حتى لقد يبدو أحياناً أن أسلوبها أقرب إلى الكلام الفطرى منه إلى التعمل والصنعة . وهى مسجوعة ، ولكن سجعها رقيق سهل ، احتوى على كثير من المحسنات البديعية ، والاستعارة والمجاز .

شخصية أبى الفتح الإسكندرى بطل مقامات البديع

— ١ —

كان ابتكار البديع الهمذانى (٣٥٨ — ٣٩٨ هـ ، ٩٦٩ — ١٠٠٧ م) فى القرن الرابع الهجرى لفن المقامة حدثاً أدبياً جديدا فى الأدب العربى .

فلقد بهر الأدباء والنقاد والرواة أسلوبها ، ونزعة القصة فيها ، وهذا الحوار الذى طالما دار بين بطلها أبى الفتح الإسكندرى وراويتها عيسى بن هشام ، كما بهرهم هذا النموذج الفنى الرفيع الذى تمثل فى شخصية الساسانى أبى الفتح البطل .

وفتن الناس بمقامات بديع الزمان افتتاناً شديداً . وليس هناك إلا البديع نفسه ، فهو أبو المقامة فى الأدب العربى ، وصاحب الفضل فى إنشائها ، ويؤيد ذلك الحريرى أبو محمد القاسم بن على البصرى (٤٤٦ ـ ٥١٦ هـ) فى مقدمة مقاماته ، فقد جعل ابتداع المقامات راجعا إلى بديع الزمان ، وعلامة همذان ، وكذلك جعل الثعالبى فى « اليتيمة » البديع أبا عذرتها ، والواضع لأصولها وخطتها ويتابعهم فى ذلك كثيرون ، منهم مارون عبود مثلا ، إذ يقول[1] : إن خطة المقامات من عمل البديع ، فهو الذى ألبسها هذا الطراز ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام ، وعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع .

وكذلك ذهب مازن المبارك الذى يقول[2] : فتح البديع باب فن جديد هو فن المقامة فى الأدب العربى .

هذا هو الرأى السائد فى نشأة المقامة ، ولكن الحصرى صاحب كتاب «زهر الآداب» يذهب فى كتابه[3] إلى أن البديع اقتبس فن المقامة من أحاديث ابن دريد (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) ، ومعنى ذلك كما قال الدكتور زكى مبارك[4] أن البديع ليس هو المبتكر لفن المقامة ، وإن

(١) ٢٤ « بديع الزمان » لمارون عبود .

(٢) ص ١٦ « مجتمع الهمذانى من خلال مقاماته » ـ مازن مبارك .

(٣) ١ : ٢٣٥ « زهر الآداب » . (٤) « النثر الفنى » لزكى مبارك .

كان له فضل فى نشأتها ، وينفى مؤلف كتاب « بديع الزمان رائد القصة القصيرة » وهو مصطفى الشكعة[1] أن تكون أحاديث ابن دريد ذات صلة بفن المقامة كما عرف عند البديع .

ويجعل آخرون البديع محتذياً حذو أستاذه ابن فارس (ت. ٣٩٥هـ) فى رسائله الحوارية.

ويذكرون آخرون ، ومن بينهم شوقى ضيف[2] ، أن البديع اقتبس مقاماته من كتابات الجاحظ وقصصه فى البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد عن أهل الكدية، ومع جواز فى المضمون ، فإن شكل المقامة الفنى يبقى جديدا كل الجدة عند البديع . وهناك على أية حال فرق بين البذرة والثمرة فى أى عمل أدبى أو غير أدبى .

ويجعل بعض المستشرقين أساطير التوراة عند اليهود وقصة لقمان هما الملهمتان للبديع بفكرة المقامات،ويذكر آخر أن قصص جحا فى الآداب الفارسية والعربية والتركية ذات أثر فى نشأة المقامة ، وهذا كله كلام يعوزه الدليل ، ولا تنهض به الحجة[3] .

ويذهب آخرون إلى أن المقامة مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن المنصفين من العرب والفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل بديع الزمان ، إذ لم تعرف المقامة فى الأدب الفارسى إلا بعد البديع بنحو قرن ونصف من الزمان . . فأول مقامات كتبت بالفارسية هى للقاضى حميد الدين البلخى الذى بدأ بكتابتها عام ٥٥١هـ وتوفى بعد ذلك بسبع سنوات (٥٥٨هـ / ١١٦٤م) كما يقول براون ، ويؤكد محمد تقى بهار[4] أن المقامة من اختراع البديع، وأن كل اختراع فى الأدب العربى كان له صداه فى الأدب الفارسى،وأن حميد الدين قلد البديع والحريرى فى مقاماته ، ويذكر الأنورى إعجاب الفرس وافتتانهم بمقامات حميد الدين .

إن هذه القصة الحوارية القصيرة ، ذات المنهج الفنى الملتزم، والصياغة الطريفة،والصيغة الجديدة ، والفكرة الساسانية ، التى دعيت مقامة ، قد أنشأها بديع الزمان الهمذانى لتجابه مطالب الحياة الفنية والأدبية والفكرية والاجتماعية والسياسية المتجددة فى عصره .

(١) ص ٢٠٧ « بديع الزمان» للشكعة. (٢) ٢٠ «المقامة » لشوقى ضيف ــ طبع دار المعارف .

(٣) راجع ١٤٦ « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى للمؤلف .

(٤) « تاريخ تطور النثر الفارسى » محمد تقى بهار .

ولقد جعل بديع الزمان لمقاماته بطلا ساسانيًّا هو أبو الفتح الاسكندرى ، وهو الذى مثل كل أدوارها ، ونهض بجميع فصولها ، وقام بكل أحداثها .

وشخصية أبى الفتح ـ كما تبدو من خلال المقامات ـ شخصية رائعة حقًّا ، فهو بطل للموقف كله فى المقامة ، وهو ـ كما يصوره الهمذانى ـ عالم وأديب وشاعر ، وهو ناقد بليغ ، ومغامر محتال ماهر ، مشرد فى الآفاق ، تقسو عليه ظروف الحياة فلا يجد أمامه إلا الكدية والاحتيال بكل أسلوب من أجل المال أو الطعام . وهـــو إلى ذلك كله مجرب حكيم خبير بالأيام وصروفها، عركها وعركته، يجوب الآفاق ويخطب فى الأندية، ويبهز الناس بفصاحته وبلاغته .

وكنية أبى الفتح لعل البديع رمز بها إلى فتوحات هذا البطل وانتصاراته فى مواقفه العجيبة فى الكدية .

أما وصف الاسكندرى الذى لازمه فقـــد يكون معززا لذلك المعنى على أنه نسبة إلى الاسكندر ، فتكون فتوحات أبى الفتح فى أموال الناس شبيهة بفتوحات الاسكندر . وقد يناقض ذلك أن أباالفتح يكرر فى مقاماته قوله « اسكندرية دارى[1] »، نسبة إلى الاسكندرية لا إلى الاسكندر الأكبر المقدونى (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق م) .. ويصح لنا أن نجمع بين الأمرين، فتكون نسبته إلى الاسكندرية مقصودا بها الرمز إلى شبهه فى فتوحاته الساسانية بفتوحات الاسكندر التى تنتسب إليه مدينته .

ويقودنا ذلك إلى التساؤل : أية اسكندرية كان يعنى البديع ، وكان ينتسب إليها أبو الفتح الساسانى ؟

فى المقامة التاسعة الجرجانية يقول أبو الفتح البطل متحدثاً عن نفسه : إنى امرؤ من أهل الاسكندرية من الثغور الأموية . وفى المقامة التاسعة والعشرين الحدانية يقول من الثغور

(١) راجع مثلا فى المقامة الأربعين ـ العلمية ـ قول البديع :

إسكندرية دارى لو قر فيها قرارى

الأموية والبلاد الاسكندرية . ويكرر أبو الفتح نسبته إلى الاسكندرية فى مواضع كثيرة أخرى .

فإذا رجعنا إلى ياقوت[١] وجدناه يذكر أن الاسكندر بنى ثلاث عشرة مدينة سماها كلها باسمه ، ثم تغيرت أسماؤها بعده ، فمنها : اسكندرية مصر ، والاسكندرية التى صار اسمها سمرقند ، والتى صارت مرو ، والتى سميت بعد باسم بلخ ، واسكندرية الأندلس التى على النهر الأعظم – نهر إشبيلية – وهى التى رجحها الإمام محمد عبده لوصف البديع لها بأنها من الثغور الأموية وقد كانت الخلافة الأموية تحكم الأندلس فى القرن الرابع الهجرى عصر البديع إلا أنى وجدت رحالة عربيا فى القرن الرابع – هو أبو دلف – يذكر مدينة المنصورة عاصمة السند ، ويقول عنها : إن الخليفة الأموى مقيم بها[٢] ، فهل كانت هذه المدينة قديما تسمى الاسكندرية أيضا ، ليصبح أمامنا احتمال جديد آخر ، ويذكر باحث عراقى أن الاسكندرية بين بغداد والحلة[٣] ، ولكن ما صلتها إذن بالثغور الأموية ؟ .

ويذهب عبد الوهاب عزام إلى أن صحة الكلمة « الآموية » نسبة إلى نهر آموى[٤] – جيحون – وبذلك تكون الاسكندرية المقصودة هى مدينة الاسكندر على نهر آموى .

ومع ذلك كله فلا نزال نسير فى بيداء سحيقة .

فمن هو أبو الفتح الاسكندرى إذاً ؟

١ – هناك رأى سائد أنه شخصية أسطورية خيالية محضة ، كشخصية راوى المقامات عيسى بن هشام ، يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . وهذا ما رجحته منذ عشرين عاماً فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »[٥] . ويؤكد ذلك المستشرق الفرنسى إيوار ، فيقول : وضع البديع شخصا خياليا ابتكره وسماه أبا الفتح ، وذهب بعض الباحثين إلى أن عيسى بن هشام راوية المقامات

---

(١) ١ / ٢٣٥ معجم البلدان .

(٢) هذا النص منقول عن معجم البلدان راجع ٥ / ٤٠٩ معجم البلدان .

(٣) بعد رسالة ماجستير عن مقامات الحريرى ، واسمه طارق العوسج وهو مدرس بمكة المكرمة حاليا .

(٤) ٢٣٤ بديع الزمان للشكعة نقلا عن محاضرات عزام فى كلية الآداب عام ١٩٤٤ م .

(٥) ص ١٤٧ الكتاب المذكور .

كان شيخاً للبديع ، ومنهم أبو شجاع شيرويه (٥٠٩ هـ) مؤلف تاريخ همذان، وينقل ذلك عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، وأمل ذلك وهم ناشىء من قول البديع فى مطلع كل مقامة من مقاماته : حدثنا عيسى بن هشام . ولو ذهبنا إلى أن أبا الفتح هو الذى كان أستاذاً للبديع لكان ذلك أكثر صلة بالبحث ، وأكبر انطباقاً على الموضوع .

وممن ذهب إلى أن هاتين الشخصيتين خياليتان مؤلف كتاب « بديع الزمان » الدكتور الشكعة الذى يقول : حاولنا أن نجد لبطلى المقامات صدى تاريخياً فلم نعثر لهما على أثر والغالب أنهما من ابتكار خيال البديع نفسه[1] .

٢ ـ وهناك رأى جديد هو أن شخصيات مقامات البديع كانت لأشخاص وجدوا بالفعل، ويذهب إلى ذلك بعض المستشرقين ، إلا أنهم لم يستطيعوا تحديد هؤلاء الأشخاص المجهولين ، ولا الكشف عن شخصياتهم التاريخية .

وأنا معهم فى ذلك . ولكنى أخطو خطوة جديدة من أجل الكشف عن شخصية أبى الفتح بطل المقامات البديعية .

ويذهب باحث عراقى[2] سبق الإشارة إليه إلى أن أبا الفتح هو البديع نفسه ، ومن قبل قلت ذلك فى كتابى « الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى »[3] حيث ذكرت أنه قد يكون فى حياة أبى الفتح شىء من صفات البديع نفسه ، وشىء من أخلاقه ، ولكنى أخالف ذلك اليوم ، وستبدو الحقيقة واضحة وكاملة بعد قليل .

ويذهب باحث آخر[4] إلى أن الكدية أو الساسانية التى كانت صناعة أبى الفتح « نجد من أعلامها فى عصر البديع من يشبه أبا الفتح من وجوه كثيرة : كابن الحجاج (ت ٣٩١ هـ) ، وابن سكرة (ت ٣٨٥ هـ) وأبى الورد ، ومن يشبهه من بعض الوجوه كأبى حيان التوحيدى ،

---

(١) بديع الزمان ص ٢٣٢ .
(٢) هو طارق عبد الوهاب العوسج يحضر رسالة دكتوراه عن مقامات الحريرى .
(٣) ص ١٥٧ و ١٥٨ الكتاب المذكور .
(٤) ص ٢٣٤ « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى ـ طبع مصر ١٩٤٩ .

بل البديع نفسه ، ومن يشبهه كل الشبه كأبى دلف والأحنف العكبرى » . . ومجمل هـذا الرأى أن أشباه أبى الفتح الاسكندرى كثيرون فى عصر البديع ، وأن أقربهم شبهاً به هو أبو دلف والأحنف . وهذا الرأى لا يأتى لنا بجديد ولا بأمر مؤكد فى البحث على أية حال ، فلم يجزم هذا الباحث برأى معين له .

٣ ـ ورأيى الذى أذهب إليه اليوم هو أن أبا الفتح إنما هو شخصية تاريخية معروفة فى عصر البديع ، وهو أبو دلف الخزرجى وحده .

وهذا الرأى لا يسبقنى فيـه باحث ، وبه ينفتح الباب أمامنا لفهم كثير من حقائق الأدب فى القرن الرابع . ودليلنا عليه هو ما قاله الثعالبى فى « يتيمة الدهر »[1] قال :

أنشدنى بديع الزمان لأبى دلف ، ونسبه فى بعض المقامات إلى أبى الفتح الاسكندرى :

ويحك هذا الزمان زور   فـــلا يغرنك الغرور[2]

لا تلتزم حالة ولـكن   در بالليالى كما تدور

ومن هذا النص نعرف الحقائق الآتية :

١ ـ أنشد البديع الثعالبىَّ شعراً لأبى دلف .

٢ ـ وهذا الشعر نفسه نسبه البديع فى مقاماته إلى أبى الفتح ، فتكون النتيجة هى أن أبا الفتح هو أبو دلف نفسه بإقرار البديع .

٣ ـ كان البديع راوية لشعر أبى دلف ، ويبدو لى أن البديع كان ينزل أبا دلف من نفسه منزلة الأستاذ والمعلم .

وإذن يكون أمامنا رأى جديد نجزم به ، هو أن البديع حين كتب مقاماته اختار أبا دلف أستاذه وصديقه ومعاصره بطلا للمقامات ، وكنى عنه بأبى الفتح ، وكان أبو دلف أروع نموذج ساسانى يصلح بطلا للمقامات ، لأن حياته وشخصيته وتجاربه مطابقة تمام المطابقة للنموذج الذى صوره البديع فى المقامات فى شخص أبى الفتح الاسكندرى ، ولأن

---

(١) ٣ : ٢٥٤ اليتيمة .   (٢) هذا الشعر فى المقامة القريضية إحدى مقامات البديع .

شهرة وتجارب أبي دلف كانت تصلح معيناً يستقى منه البديع كل ما يريد أن يصور به أبا الفتح وذلك ما قد كان .

بل إني أضيف إلى ذلك أن البديع الهمذاني حين سمع قصص أبي دلف الشيخ الحكيم المجرب عن رحلاته وتطوافه في البلاد ، واستمع إلى فكاهات هذا الشيخ وسمره في مجالس الملوك والأمراء والوزراء رأى أن هذه الصورة الفنية تصلح أساساً لفن جديد ابتكره وسماه « المقامة » ، فكان أبو دلف هو الملهم للبديع الشاب الذكي بابتكار فن المقامة في [illegible]ب ، العربي ، في القرن الرابع ، وفي عصر أبي دلف .

فمن هو أبو دلف هذا إذن ؟

أبو دلف الخزرجي

(٣٠٠ ـ ٣٩٠ هـ ٩١٣ ـ ١٠٠١ م)

رحالة من أعظم الرحالة الجغرافيين المسلمين على امتداد التاريخ وبخاصة فى القرن الرابع .

وعالم وطبيب وكيمائى وجيولوجى من الطراز الأول فى عصره .

ومنادم فى الذروة ، جلس فى مجالس الملوك ينادمهم ، وينادم الوزراء والأمراء ، وينال عندهم الحظوة والمكانة الرفيعة .

وشاعر رفيع المنزلة فى عصره فى الشعر ، وعلم من أعلام الشعر الساسانى الذى كان له طرافته وروعته فى عصره .

ونموذج فنى رفيع للساسانية التى تتميز بالظرف وعلو الذوق وجمال الفكاهة وحضور البديهة وسرعة النكتة . . وعلو ذوقه وجمال فكاهته مما حببه إلى الملوك وقربه إلى الوزراء .

وشخصية فذة اهتزت دوائر الشرق بدراسة أفكارها ونتائج رحلاتها القديمة فى شتى أنحاء آسيا .

ولقد كان بديع الزمان الهمذانى وثيق الصلة بأبى دلف ، وواقفا على أخباره ، وراوية لشعره ، وفى اليتيمة مايدل على ذلك[1] . وكانت شخصية أبى دلف ملء سمع البديع وبصره، ورحلاته وتطوافه فى الأرض موضع عجبه واستظرافه، كما كانت شيخوخة أبى دلف وتجاربه وحكمته وخبرته بالحياة ، وتنقله بين الغنى والفقر ، وحرفته الساسانية وهو علم فيها . . كان ذلك كله موضع تأمل البديع وتعجبه، لذلك فإن البديع حين كتب مقاماته اتخذ من أبى دلف وحياته وشخصيته بطلا للمقامات التى أبدعها ، ورمز إليه باسم أبى الفتح الاسكندرى .

ونقول تأكيدا لذلك : إن جميع ما صور به البديع بطل مقاماته أبا الفتح الاسكندرى ينطبق على أبى دلف تمام الانطباق .

---

(١) ٣ : ٢٢٣ اليتيمة .

فهو خطيب وبليغ وشاعر ، وهو جوالة فى الآفاق ، وهو يحترف الساسانية تظرفاً ودعابة وحلو فكاهة ، والعجب من قعود همته مع حسن آلته ، وهو كهل قد غبّر فى وجهه الفقر ، وهو كما يقول البديع فى المقامة الصيمرية على لسان أبى الفتح :

« خرجت أسيح كأنى المسيح ، فجلت خراسان إلى كرمان ، وسجستان ، وجيلان ، إلى طبرستان ، وإلى عمان ، إلى السند والهند ، والنوبة والنبط ، واليمن ، والحجاز والطائف ، فجمعت من النوادر والأخبار والأسحار والفوائد . . ما قصر عنه فتيا الشعبى » .

واسم أبى دلف مسعر بن المهلهل .

ونسبته إلى الخزرج إحدى القبيلتين الكبيرتين فى المدينة اللتين أطلق عليهما بعد الهجرة اسم « الأنصار » ، وهما الخزرج والأوس . وللخزرج فى الإسلام وبالإسلام تاريخ كبير خالد ، ومن الخزرج بنو النجار أخوال رسول الله ؛ لأن أم جده عبد المطلب « نجارية » .

أما الينبعى فهو نسبة إلى مدينة ينبع المشهورة فى الحجاز ، ويوصف أبو دلف أيضا بالينبعى ، وينبع وينبوع علم واحد لهذه البلدة المعروفة من بلاد الحجاز .

ونحن لا نعرف عن المهلهل والد مسعر ولا عن قومه شيئاً ، فكل المعلومات المتعلقة بحياة أبى دلف شحيحة ونادرة .. وقد عنى المستشرقون بأعمال أبى دلف الجغرافية وحدها ، ومن بينهم رور سوير ، وميتورسكى ، وكراتشوفسكى . ولم يستطيعوا مع ما بذلوه من جهد علمى ، كشف ما غمض من حياة أبى دلف نفسها .

أما أم أبى دلف فنجد فى رسالة لابن العميد[1] ، كتبها وعيدا وتهديدا لأبى دلف ، ما يدل على أن صاحبنا ينتمى إلى ابنة محمد بن زكريا الذى كان يعاصر ابن العميد .

وقد أعيانى البحث فى المصادر القديمة عن شخصية محمد بن زكريا فلم أهتد إلى أثر له ، وقد أستطيع فى المستقبل الاهتداء إلى ترجمة له تكشف عن شخصيته ، فأضيف إلى صورة أبى دلف مزيدا من الوضوح والرؤية .

---

(١) سأذكر فقرات من هذه الرسالة عند الحديث عن صلة أبى دلف بابن العميد — وراجعها فى صفحة ٢٨٩ من كتاب مثالب الوزيرين لأبى حيان التوحيدى .

وأغلب الظن أن أبا دلف ولد فى ينبع ، وهـــو ما ذكره كراتشوفسكى فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى[1] » أيضا ، ويؤيد ذلك قول أبى دلف فى رسالته التى وصف فيها رحلته إلى الصين ، وهى الرسالة الأولى : « لما نبا بى وطنى ، ووصل بى السير إلى خراسان ، ضارباً فى الأرض[2] » . ويذكر خالدوف وبولغاكوف فى تحقيقهما الرسالة الثانية لأبى دلف ذلك أيضاً ، أى أن ميلاده كان فى ينبع ، ولكنهما يخطئان فيقولان : إن مكان مولده هو فى مدينة ينبع الميناء على ساحل البحـ [3] . ويقولان إثر ذلك : ومن غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبى دلف[3] ، ر ن كبير .

ميلاد أبى دلف :

تذكر بعض المراجع ، ومن بينها الأعلام للزركلى ، أن أبـ ات نحو عام ٣٩٠ هـ ـ ١٠٠١ م ، وأنه عاش نحو التسعين عاما ، فيكون ميلاده إذن فى خلافة المقتدر بالله العباسى عام ٣٠٠ ـ ٩١٣ م .

ويذكر الثعالبى فى كتابه « يتيمة الدهر » أنه عمر تسعين عاماً ، فيقول عنه : خلق التسعين فى الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب » . ولكنه لا يحدد تاريخا لميلاده ولا لوفاته .

أبو دلف شاعر عربى كبير ، مجهول شأنه ، مغمور تاريخه ، لم يذكره إلا القلة من المؤلفين القدماء ، ونسيه المحدثون نسياناً تامًّا .

وهو من الجزيرة العربية ، من ينبع عاش القرن الرابع الهجرى كله أو جُلَّه ، يجوب البلاد ، ويمدح الملوك ، وينادم الأمراء والوزراء ، تراه مُطوِّفاً فى كل مكان من بخارى إلى الصين والهند ، ومن فارس إلى أرمينية وأذربيجان وطبرستان ، وبلاد الأكراد ، ويصف كل ما شاهده ، ويدون كل ما يلاحظه ، فى دقة تامة ، وعناية بالتفاصيل ، مما أذهـل المستشرقين ، فكتبوا عنه أنه كان جغرافيا من الطراز الأول ، ومن أشهر الرحالة فى القرن الرابع .

---

(١) ص ١٨٨ . (٢) راجع ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٣) ص ٨ الرسالة الثانية لأبى دلف ـ ترجمة محمد منير مرسى ـ نشر مكتبة عالم الكتب بالقاهرة .

وأبو دلف من هذا الجانب مصدر أصيل لكل الجغرافيين المسلمين ، الذين أتوا بعده ، ومن بينهم : ياقوت الحموى فى كتابه « معجم البلدان » ، والقزوينى فى كتابيه : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد » .

والمصدر العربى القديم الذى ترجم لأبى دلف شاعرا ترجمة أدبية ، ليس فيها شئ من التفصيل عن حياته ، هو كتاب « يتيمة الدهر » لأبى منصور الثعالبى شيخ الأدباء فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجرى (المتوفى عام ٤٢٩ هـ) ، فقد ذكره الثعالبى فى الباب السادس الذى خصه بالشعراء الطارئين من الآفاق على الوزير الصاحب بن عباد ، وقال عنه :

« أبو دلف الخزرجى الينبوعى ، مسعر بن مهلهل ، شاعر كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية فى الجدية ، خنق التسعين فى الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب فى خدمة العلوم والآداب » ، ويستمر الثعالبى فى الحديث عن أبى دلف ، فيقول : « كان ينتاب — يقصد — حضرة الصاحب بأصبهان ، ويكثر المقام عنده ، ويتزوّد كتبه — أى رسائله التى تتضمن التوصية — فى أسفاره » .

ويشير الثعالبى إلى معركة الهجاء التى دارت بين أبى دلف والشاعر السلامى (٣٣٦ — ٣٩٤ هـ) .

ويذكر شعراً لأبى دلف ، وقصيدته الساسانية الطويلة[1] .

وفى موضع آخر من اليتيمة يقول الثعالبى عنه : « وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ، يشعر ويتطبب ويتنجم ويحسد السلامى على منزلته[2] .

ويشير الثعالبى إلى أبى دلف فى بعض كتبه الأخرى إشارات عابرة ، مثل كتابه « لطائف المعارف » .

---

(١) راجع ٣ : ٢٥٢ وما بعدها يتيمة الدهر . للثعالبى — بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
(٢) ٢ : ٤٠٠ يتيمة الدهر .

ونجد نقولا جغرافية كثيرة عنه فى : « عجائب المخلوقات » و « آثار البلاد »[١] ، وهما للقزوينى ، وفى « معجم البلدان » لياقوت الذى يشير إلى أبى دلف فى ٣٤ اقتباساً ودراسات كراتشوفسكى تذكر ٢٤ اقتباساً لا يذكر فيها ياقوت اسم أبى دلف .

وفى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة « مسعر » ترجمة له تبين الكثير من دراسات المستشرقين عنه رحالة كبيرا ، وجغرافيا مشهوراً[٢] .

وتجىء إشارات صغيرة عنه فى كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر[٣] .

وفى كتاب الأعلام للزركلى ترجمة لأبى دلف فى عدة سطور مما جاء فيها عنه : شاعر رحالة ، وكان يكنى بالرحالة الحجازى قام برحلة ممتعة إلى الشرق الأقصى ، وكتب ما شاهده فى تلك الديار فى كتاب ضخم ، نقله المستشرقون عنه إلى مختلف اللغات الأوربية ، تجاوز التسعين من عمره توفى نحو عام ٣٩٠ هـ[٤] .

ويلاحظ الشيخ حمد الجاسر على هذه الترجمة أمرين :

الأول أن الزركلى نسبه إلى ينبع البحر ، وهو من ينبع النخل .

والثانى قوله فى « كتاب ضخم » : ويقول العلامة الجاسر : إنه ليس مجلداً ضخماً بل رسالة ، وقد حققها المستشرق مينورسكى وطبعت فى مصر سنة ١٩٥٥ فى ٣١ صفحة النص العربى والترجمة الانجليزية والدراسة فى ١٣٦ صفحة .

وكلام العلامة الجاسر صحيح فى أنه ليس كتاباً ضخماً بل رسالة ، وأما قوله : « إن الرسالة حققها المستشرق مينورسكى الخ » فذلك ليس عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته إلى الشرق الأقصى ، وهى التى تسمى بالرسالة الأولى ، بل عن رسالة أبى دلف فى وصف رحلته فى آسيا الوسطى وهى التى تسمى الرسالة الثانية .

---

(١) فى كتاب « آثار البلاد » يوجد ٢٤ اقتباسا من « الرسالة الثانية لأبى دلف » وإن كان لايشير إلى أبى دلف إلا فى سبع منها ، وفى عجائب المخلوقات توجد كذلك إشارات كثيرة له ، وأربع اقتباسات دون إشارة إلى اسمه .

(٢) راجع الطبعة الإنجليزية الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية . وقد ترجم النص الإنجليزى لهذا البحث الأستاذ وديع فلسطين — الطبعة العربية لم تصل إلى هذه المادة .

(٣) ١١٧ و ١٤٠ بلاد ينبع . (٤) ٨ : ١٠٩ الأعلام للزركلى .

والرسالة الأولى لأبي دلف عني بتحقيقها المستشرق الألماني رورصور .

أما الرسالة الثانية فعني بتحقيقها المستشرقون الروس، فدرسها المستشرق كراتشوفسكي، ومينورسكي ، وحققها مينورسكي ، ثم خالدوف وبولغاكوف معاً في نصها العربي ، وهما مدرسان بجامعة لينينجراد .

فقد عاش أبو دلف في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي . وشاهد كل أحداث هذا القرن وغرائبه ، بما ساد فيه من حضارة وازدهار للعلوم والآداب ، وبما ساده من تطورات فكرية وسياسية كبيرة ، كان في مقدمتها : انتهاء نفوذ الخلافة العباسية، باستيلاء البويهيين على بغداد عام ٣٣٤ هـ ، وقيام الدول المستقلة عن الخلافة في أنحاء العالم الإسلامي الذي كانت من قبل تجمعه رابطة سياسية واحدة .

ولا نعلم شيئاً عن حياة أبي دلف الأولى ونشأته . وبلا ريب قد تثقف ثقافة واسعة ، وشب عربياً كريماً عزيز النفس ذا شخصية قوية مهيبة مرحة ، في وسامة ولطف . وكانت ينبع النخل آنذاك مركزاً من مراكز العلم والأدب والشعر ، وصار أبو دلف شاعراً ، وعرف كذلك طبيباً ومنجماً ، وليست « ساسانيته » بمناقضة لعزة نفسه ، فقد كانت ساسانية ظرف وفكاهة وأدب وطواف بالآفاق .

وفجأة ينبو بأبي دلف وطنه ، وتسير به الحيــــاة إلى الأمير الساماني نصر بن أحمد (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ : ٩١٤ ـ ٩٤٣ م) ، فيحتل عنده منزلة عالية في دولته ، وقد يكون الشعر أو الطب بدء صلته بالأمير ، ومهما كان ، فقد صار أبو دلف شاعر الأمير ونديمه ، وصار كذلك سفيره في كثير من المهام الرسمية . .

وكان الجيهاني أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نصر وزيراً للسامانيين (توفي عام ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م) ، وكان يشجع الأدباء ، ويحتفي بالعلماء ، ولعله هو الذي احتضن أبا دلف ، أو اتخذه كاتباً له ، وعن طريقه توطدت صلته بالملك الساماني نصر بن أحمد الذي كانت بخارى عاصمة ملكه الواسع الذي امتد نحو الثلاثين عاماً (٣٠١ ـ ٣٣١ هـ) .

وفي عهد الملك نصر بن أحمد وفد إلى بخارى وفد هندي برياسة الأمير الهندي كلاتلي

فى سفارة هندية إلى بلاط الملك السامانى ، وأنجز هذا الوفد مهمته ، وعند عودتهم إلى بلادهم بعث معه الملك شاعره أبا دلف ليكون مرافقاً لهم .

وزار أبو دلف فى هـذه الرحلة كشمير وكابل وسواحل ملبار ، ووصف ذلك كله فى كتاب ألفه بعنوان « عجائب البلدان » ، والظاهر أنه مجموع رسالتيه فى وصف رحلاته[١].

وفى آخر حكم نصر بن أحمد السامانى وفد على بخارى كذلك وفد صينى ، ويقص أبو دلف قصة هذا الوفد ، فيقول[٢] :

« إن رسل ملك الصين جاءوا ليخطبوا ابنة الملك السامانى لملكهم ، فأبى نصر بن أحمد ذلك ، واستنكره ، لحظر الشريعة له ، فلما أبى ذلك عرضوا عليه أن يزوج بعض ولده من ابنة ملك الصين ، فأجاب إلى ذلك ، فاغتنمت قصد الصين معهم » .

وكان ذلك نحو عام ٣٣١ هـ : ٩٤٢ م ، وقد عبر أبو دلف هو والوفد الصينى تركستان الغربية ، وتركستان الشرقية وبلاد التبت ، ودخل الصين من مدينة « مقام الباب » ، فوادى المقام ، فسندابل العاصمة . . ويقول أبو دلف[٣] :

ودخلت على ملكهم ، فخاطبته الرسل بما جاءوا به من تزويجه ابنته من نوح بن الملك السامانى نصر بن أحمد ، فأجابهم إلى ذلك ، وأحسن إلىّ وإلى الرسل ، وأقمنا فى ضيافته ، حتى نجزت أمور المرأة ، وتم ما جهزها به ، وحملت إلى خراسان ، إلى نوح بن نصر ، فتزوج بها . ويقول أبو دلف[٣] :

وأقمت بسندابل العاصمة مدة ، ألقى ملكها فى الأحايين ، فيفاوضنى فى أشياء ، ويسألنى عن أمور من أمور بلاد الإسلام ، ثم استأذنته فى الانصراف ، فأذن لى بعد أن أحسن إلىّ » .

---

(١) كنت أظن أنه كتاب مستقل مفقود ، ولكن أبا دلف يبدو أنه قسمه إلى رسالتين ، وذاعت كلمة الرسالة الأولى والرسالة الثانية بدلا عن الاسم الأصلى وهو « عجائب البلدان » ، وقد جرى على ذلك بروكلمان ، فلم يذكر الرسالة الأولى والثانية لأبى دلف ، إنما ذكر مكانها كتاب « عجائب البلدان » .

(٢) ٥ : ٤٠٨ معجم البلدان لياقوت .

(٣) ٥ : ٤١٤ معجم البلدان . . وفى مروج الذهب للمسعودى المؤرخ (ت ٣٤٦ هـ) جـ ١ صفحة ٤٤٩ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد : وقد رأيت ببلخ شيخاً جيلا ذا رأى وفهم وقد دخل الصين مراراً كثيرة ولم يركب البحر قط . . فهل يقصد المسعودى بذلك أبا دلف ؟

وغادر أبو دلف الصين إلى الهند حتى رجع إلى بلاده عن طريق سجستان .

وزادت هذه الرحلة من مكانة أبي دلف فى دولة السامانيين ، ومن منزلته فى عصره ، وفى الحياة الإسلامية بصفة عامة .

تنقضى هذه المشاهد كلها ، ونرى ابن ينبع الكبير يعيش فى ظلال دولة البويهيين ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ولا متى كان ؟

ترك أبو دلف بخـــارى والسامانيين إلى البويهيين ، ووزيرهم الشهير ابن العميد ، ثم وزيرهم الكبير الصاحب بن عباد ، وإلى عواصمهم الكبرى يتنقل بينها : أصبهان، والرى، وبغداد ، وأصبح رفيع المكانة عند عضد الدولة الملك البويهى نفسه .

وكان أبو الفضل محمد بن العميد (٣٠٠ ـ ٣٦٠ هـ) إمام عصره فى الأدب والكتابة والبلاغة ، كما كان له مجده وهيمنته وسلطانه السياسى فى دولة البويهيين ، وكان وزيرا لركن الدولة البويهى (٣٢٠ ـ ٣٦٦ هـ : ٩٣٢ ـ ٩٧٦م) وذلك من عام ٣٢٨ هـ : ٩٣٩ م .

وقد بدأ أبو دلف يتصل به ، والظاهر أنه أقبل عليه ثم أعرض عنه ، فهجاه أبو دلف، ورد عليه ابن العميد ، مهددا برسالة طويلة رواها أبو حيان التوحيدى فى كتابه « مثالب الوزيرين[1] » ، وجاء فيها :

« الآن علمت أيها الشيخ أنك لى مكايد ، وإلى جميع ما أنهاك عنه مخالف ، وعلى ديدنك المعروف ثابت ، وبفضلة لسانك مسحور » . .

إلى أن يقول ابن العميد :

« تقاعست عنى بلا عذر ، ووقفتنى بين وصل وهجر ، فلم أدر كيف أخاطبك ؟ وعلى ماذا أعاتبك ؟ لأنك مشهور بقحة ، ومذكور بسلاطة ، ومعتـــاد للبهت ، وجار على الكذب » .

« وأول ذلك أنك تَدَّعى بُنُوَّةَ محمد بن زكريا من ناحية ابنته ، وقد شاهدت محمداً وما خلف بنتا » .

---

(١) ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ المرجع المذكور .

ثم يقول ابن العميد فى غضب ظاهر :

إن فى الموت خلاصاً منك ، ومفارقة لمثلك ، والله ما أذنب إلا حسن ظنى بك ، ومباهاتى أهل مجلسى بفضلك ، وقولى : « أبو دلف وما أدراك ما أبو دلف ؟ لا تنظروا إلى هزله ، فإن وراء ذلك جدا ، وهو المرء الذى قد جمع الله له بين المنظر والمخبر ، وبين الدعوى والبينة ، وبين القول والحجة ، وبين الضمان والوفاء ، وبين الصداقة والشفقة » .

« فما زلت أقول هذا وشبهه ، وأصحابى يشيعون قولى بمثله فى الظاهر ، ويخالفوننى بعلمهم فى الباطن ، حتى كان الفلج لهم ساعة هذه . لأنى احتجت إلى علمك فخيبت عهدى ، وأقبلت عليك فأعرضت عنى ، ووهبت لك كلى ، فبخلت ببعضك على . . ولقد استفدت بمعرفتك تجنب مثلك . . »

ويقول أبو حيان التوحيدى[1] :

قلت لأبى دلف : ما أجبته عن هذا الكلام ؟

قال : عملت شيئاً لم أجسُرْ على إظهاره ، وخفت صولته ونكايته ، وشره وغائلته .

وتوفى ابن العميد عام ٣٦٠ هـ وولى ابنه أبو الفتح منصب أبيه فى عهد ركن الدولة ، ثم فى عهد مؤيد الدولة الذى كان يؤثر تلميذ ابن العميد الصاحب بن عباد ويقدمه . وانتهى الأمر بمقتل أبى الفتح الوزير عام ٣٦٧ هـ .

أما الصاحب بن عباد (٣٢٤ ـ ٣٨٥ هـ : ٩٣٦ ـ ٩٩٥م) فهو الوزير البويهى الكبير الذى وزر لبنى بويه طيلة ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) .

وصار أبو دلف قريب المنزلة من الصاحب[2] ، يجلس فى مجالسه فى أصبهان والرى منادما ، ومادحا ، وكان الصاحب نادرة الدهر ، وأعجوبة العصر[3] ، وظل وزيراً مدى ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ ـ ٣٨٥ هـ) ، وكانت له خزانة كتب فيها نحو ربع مليون كتاب[4] .

---

(١) ٢٩٢ مثالب الوزيرين .

(٢) راجع عنه : ٢ / ٢٦٨ ـ ٢٧٠ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ـ كتابى الحياة الأدبية فى الأندلس والعصر العباسى الثانى ـ ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

(٣) ١ : ٧٥ وفيات الأعيان . (٤) ١٣ : ٩٧ معجم الأدباء لياقوت .

وقد احتف بالصاحب من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يُرْبِى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى . فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين ، وجمعت حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان والرى وجرجان مثل أبى الحسن السلامى ، وأبى سعيد الرستمى ، والبديع الهمذانى ، والقاضى الجرجانى ، وأبى القاسم بن أبى العلاء ، وأبى دلف ، والصابى ، وسواهم ، ممن يطول ذكرهم كما يقول الثعالبى فى « يتيمة الدهر »[1] .

ويذكر الثعالبى أبا دلف من شعراء الصاحب ومنادميه وجلاسه[2] .

ويقول : وكان بحضرة الصاحب شيخ يكنى بأبى دلف مسعر بن مهلهل الينبعى ؛ يشعر ويتطبب ويتنجم[3] .

وكان الأدباء يجدون فى ظل الصاحب أمناً وأماناً لهم ، مما حل بالبلاد فى عهد البويهيين من فقر مدقع ؛ فقد صارت العراق ـ كما يقول المقدسى ـ بيت الفتن والغلاء[4] . واحترف أكثر العلماء والأدباء صناعة الوراقة ، كأبى حيان التوحيدى (٣٢٠ ـ ٤١٤ هـ) وغيره .

واتصل أبو دلف بعضد الدولة[5] الملك البويهى فى بغداد ، وجلس فى مجالسه شاعراً ومنادما ، وتصور لنا القصة الآتية مكانة أبى دلف عند هذا الملك البويهى الكبير ، وقد رواها الثعالبى فى كتابه « لطائف المعارف » :

جرت بين أبى على الهائم وأبى دلف الخزرجى فى مجلس أنس لعضد الدولة بشيراز مطايبة ومداعبة ، ومحاضرة ، ومذاكرة انتصر فيها أبو دلف على صاحبه انتصاراً كبيراً .

فأعجب عضد الدولة بكلام أبى دلف ، ووفور حظه من طوافه بالشرق والغرب ، ووقوفه على خصائص البلدان فى كل مكان من العالم الإسلامى . . . ولم يملك إلا أن صاح بملء فيه

---

(١) ٣ / ١٦٩ اليتيمة . (٢) ٣ : ١٨٩ المرجع نفسه .

(٣) ٢ : ٤٠٠ المرجع . (٤) ١١٣ أحسن التقاسيم .

(٥) من شعراء عضد الدولة : المتنبى ، والسلامى ، وغيرهما ومن العلماء الذين كانت لهم منزلة عنده أبو على الفارسى الذى أهداه كتابه « الإيضاح » (٣ : ٦٨ ذيل تجارب الأمم لمسكويه) .

بهذه العبارة العجيبة التى لم يقلها ملك فى أحد من الأدباء أو الرعية ، قال عضد الدولة فى تعجب ظاهر :

« لله درك يا أبا دلف . .[1]

ملك يا أبا دلف ينادم الملوك » .

وأمر له بخلعة وصلة حسنة .

وتدل هذه القصة على ما يلى :

١ – كثرة طواف أبى دلف بالعالم الإسلامى ، ووقوفه على خصائص كل مصر من أمصاره ، وبلد من بلدانه .

٢ – حضور بديهته ، ووفرة أدبه .

٣ – ما كان يتمتع به من منزلة رفيعة عند عضد الدولة .

٤ – وفرة حظه بين منادمة الملوك وحسن مجالستهم .

وتوفى عضد الدولة عام ٣٧٣ هـ ثم توفى بعده بزمن ليس بطويل وزيره الصاحب، وذلك عام ٣٨٥ هـ .

— ٣ —

ويحتل أبو دلف منزلة ضخمة بين الرحالة المسلمين والجغرافيين العرب على مرور الأيام .

ويعد من أشهر الرحالة المسلمين فى القرن الرابع الهجرى ، وقد بهر العالم بما قام به من رحلات ، وما كتبه عن مشاهداته وأوصافه للبلاد التى رحل إليها وطاف بها . . وقد حفظ لنا ابن النديم فى كتابه «الفهرست» ، وياقوت فى «عجائب المخلوقات» ، و« آثار البلاد » مقتطفات كبيرة من وصف أبى دلف للبلاد التى جابها . والأسفار التى قام بها رحالتنا العالمى المسلم أبو دلف فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، فى أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك : الهند والصين ، وآسيا الوسطى ، وهى الأسفار والرحلات التى طار ذكرها ، وشهر أمرها بين الناس فى عصر أبى دلف وبعد عصره حتى اليوم ، والتى نال أبو دلف بها

(١) ٢٣٩ المرجع السابق .

فى حياته مجدا كبيرا ، قاده إلى قصور الملوك والوزراء والأمراء ، ونال بها بعد وفاته مجدا تليدا خالدا فيما كتبه عنه أعلام المستشرقين من كتابات ، وما حفلت به دوائر الاستشراق عن رحلاته من معلومات ، وما سجل عنه فى دوائر المعارف من عجائب الكشوف الجغرافية .

يصفه ابن النديم[١] بالجوالة ، ويذكر القزوينى أنه كان جوالة مشهورا جاب البلاد وشاهد عجائبها[٢] ، وأنه كان سياحاً زار البلاد ، وأخبر بعجائبها[٣] .

ويذكر كذلك القزوينى بلاد بهى وعجائبها وهى من بلاد الترك ، ثم يقول: أخبر بهذه كلها ، أعنى بلاد الترك وقبائلها ، مسعر ، فإنه كان سياحة رآها كلها[٤] .

وما كتبه أبو دلف عن سياحاته ورحلاته يشهد له الباحثون من المستشرقين بالدقة والصدق والواقع ، وإن كان ياقوت الحموى يقول عنه : إنه كان يحكى عنه الكذب[٥] ، ويعنى بذلك أن رحلاته كان بعضها من نسج الخيال ، وتكفل لنا بالرد على هذا الاتهام كراتشوفسكى وسواه من المستشرقين ، وسيأتى كلامهم .

ولقد كان أبو دلف أحد الباحثين المعدودين الذين مكنتهم وحدة الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى من القيام برحلات خطيرة ، على جانب كبير من الأهمية .

فمع أن العالم الإسلامى فى عصر أبى دلف ، وهو القرن الرابع الهجرى ، كان مقسما إلى دول كثيرة ، استقلت عن خلافة بغداد ، وتركت التبعية السياسية للخلفاء العباسيين ، إلا أنه كان موحد العقيدة واللغة والثقافة والحضارة ، خاضعاً للتأثير الإسلامى وحده ، ومن ثم كان فى إمكان أبى دلف أن يجوب البلاد ، وأن يسير فى الممالك الإسلامية ، للبحث والكشف والتنقيب ، لا يحده حد ، ولا يثنيه قيد ، ولا يحول بينه وبين نهمه العلمى حائل .

وقد ألف أبو دلف « الرسالة الأولى » وتحتوى على رحلته عبر الصين والهند التى قام بها عام ٣٣١ هـ ٩٤٢ م ، وقد قام المستشرق الألمانى رور صوير عام ١٩٣٩ بتحقيقها ، ويبدو

(١) ١ / ٣٤٦ الفهرست . (٢) ٢ / ٢٦٧ آثار البلاد . (٣) ٩٧ عجائب المخلوقات .
(٤) ٥٨٩ المرجع السابق . (٥) ٥ / ٣٢٦ معجم البلدان لياقوت .

ن أبا دلف جمع مادتها من الذاكرة بعد قيامه برحلته هذه بمدة تطول أو تقصر ، وتضمن لرسالة إلى جانب صدقها الكثير من المعلومات التقريبية والخيالية عن هذه البلاد الواسعة ، التي ساح فيها .

وفي مقدمة هذه الرسالة يقول أبو دلف[1] .

« إني لما رأيتكما يا سيدي — أطال الله بقاءكما — لهجين بالتصنيف ، مولعين بالتأليف ، أحببت أن لا أخلي دستوركما ، وقانون حكمتكما ، من فائدة وقعت إليّ مشاهدتها ، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها ، ليروق معنى ما تتطلبانه السمع ، ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب ، فرأيت معاونتكما ، لما وشج بيننا من الإخاء ، وتوكد من المودة والصفاء » .

والظاهر — كما أرجح — أنه يخاطب أحد الملوك الساسانيين والصاحب بن عباد ، وأنه حين كتب هذه الرسالة أهدى منها نسخة إلى هذا ، وأخرى إلى ذاك ، وهذا يدل على أنه كتبها بعد عهد طويل من قيامه بالرحلة .

وقد كتب كثير من المستشرقين روايات طويلة عن هذه الرسالة :

درسها وستنفلد عام ١٨٤٢ ، وسلوزر عام ١٨٤٤ وطبعها وترجمها إلى الألمانية ، وشاركه في ذلك المستشرق ڤراين في « مجموعة الرحلات والنصوص الجغرافية » التي نشرها عن الشرق الأقصى .

وألقى المستشرق الروسي غرينوريف عام ١٨٧٦ بحثا عنها في المؤتمر الدولي الثالث عشر للمستشرقين المنعقد في بطرسبرج .

ودرسها روزن ، وماركفارت (١٩٠٣) ، ووضح خط رحلة أبي دلف إلى الصين .

وكذلك فصل بارتولد ، ومينورسكي (١٩٦٧) الذي قال عنها : إن في الرحلة من الوقائع بعضها حقيقي ، وبعضها من نسج الخيال ، وفي وصف أبي دلف لرحلاته — كما يقول مينورسكي — خلط وتعقيد شديدان ، وإن كان يعد خلاصة للمعارف الجغرافية آنذاك عن الصين والهند ، ويشكك أخيرا هذا المستشرق في حدوث رحلات أبي دلف .

---

(١) ٥ / ٤٠٨ و ٤٠٩ معجم البلدان .

ويرد عليه كراتشوفسكي فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »[1] مؤكداً أن رحلة أبى دلف إلى الصين واقعة حقيقية لا شك فيها ، ويؤكد حدوثها روايات ابن النديم فى كتابة « الفهرست » عن أبى دلف[2] . بل إن الرجل لم يترك أدنى شك لدى خبير بالموضوع مثل ڤيران (١٩١٣) .

ويؤكد رور سوير (١٩٣٩) أنه لا أساس للقول بأن الرحلة من نسج الخيال ، إذ أن بعض التفاصيل المتعلقة بهـــا وجدت دلائل على صحتها فى سفارات متأخرة ، مثل سفارة شاهرخ ، كما أكد الباحثون دقة ملاحظات أبى دلف فى محيط الظواهر الطبيعية والتاريخية ، وفى وصفه لمشاهده عامة .

وفى هذه الرحلة يذكر أبو دلف الأوانى الصينية وأنها كانت مفضلة فى الأسواق، وأن الخزف الصينى كان يقلد فى بعض البلدان ، ولا سيما فى ملبار وإيران .

وفيما بين عام ٣٣١ ـ ٣٤١ هـ : ٩٤٢ ـ ٩٥٢ م ، زار أبو دلف بتشجيع من الصاحب الوزير على ما أظن وكما أشار إلى ذلك الثعالبى فى « اليتيمة » ، أماكن مختلفة فى إيران وآسيا الوسطى فى حماية الوالى على سيستان من قبل أبى محمد بن أحمد (٣٣١ ـ ٣٥٢ : ٩٤٢ ـ ٩٦٣) وألف أبو دلف فى وصف هذه الرحلة ومشاهداته عبر أرمينية وأذربيجان وإيران رسالة سماها « الرسالة الثانية » ، ويقول فى مقدمتها على طريقته نفسها فى مقدمة الرسالة الأولى :

« جردت لـكما ، يا من أنا عبدكما ، أدام الله لـكما العز والتأييد ، والقدرة والتمـكين ، جملة من سفرى من بخارى إلى الصين ، ورجوعى منها على الهند ، وذكرت بعض أعاجيب ما دخلته من بلدانها ، وسلـكته من قبائلها ، ورأيت الآن تجريد رسالة ثانية ، تجمع عامة ما شاهدته وتحيط بأكثر ما عاينته. ليقتنع به المتبرون،ويتدرب به أولو العزة والطمأنينة، ويثقف به رأى من عجز عن سياحة الأرض »[3] .

(١) ص ١٨٩ من الـكتاب . (٢) ٣٤٦ و ٣٤٧ الفهرست: ٣٥٠و ٣٥١ الفهرست أيضا .

(٣) ٢٩ و ٣٠ الرسالة الثانية طبع القاهرة ، نشر عالم الـكتب ـ مطبعة مخيمر . وقد وردت كلمة ثانية ، فى الرسالة (ص ٢٩) محرفة إلى كلمة « شانية » ، وهو خطأ .

واللذان يوجه هنا أبو دلف إليهما هذه الرسالة هما اللذان وجه إليهما الرسالة الأولى ، كما يبدو من هذه المقدمة الموجزة الصغيرة .

ولهذه الرسالة الثانية فى وصف رحلاته فى أواسط آسيا أهمية كبيرة ، كما سنذكر بعد قليل .

وتبدأ وقائع هذه الرحلة التى تسجلها الرسالة الثانية من مدينة « الشيز » فى جنوبى أذربيجان لتشمل أماكن كثيرة فى خراسان وإيران والقوقاز وأرمينية . ومن هنا كانت الرسالة الثانية من المصادر العربية القيمة ذات الفائدة الكبيرة للتاريخ العام والتاريخ الجغرافى والجيولوجى والأثرى لهذه البلاد ، وهى إلى جانب هذا تحتوى على كثير من الأشياء الطريفة ، والمشاهدات العجيبة ، والنوادر الغريبة ، وبعضها مما يحير العقول[1] .

وتتميز هذه الرسالة بتركيز شديد ، ودقة متناهية وموضوعية غريبة ، كما تتميز بمادتها العلمية القيمة التى تضعها فى عداد المصادر الأولى للتاريخ العام والجغرافى لآسيا الوسطى . وتحتوى على معلومات جليلة متعلقة بالمصادر النفطية فى باكو ، وبالمعادن المفيدة فى أرمينية ، وأبو دلف أحد الرحالة الأوائل الذين تحدثوا عن استخراج النفط فى باكو ، وما أروع ما كتبه عن معدنيات وطواحين تفليس[2] ، ولا يستغنى عن دراستها مؤرخ أو جغرافى أو جيولوجى ، وفيها يذكر أبو دلف أكثر من أربعين موضعا يوجد فيها المعادن ، وأماكن أخرى فيها آثار للفرس أو للساسانيين .

ولقد حقق مينورسكى هذه الرسالة ، وطبعت بمصر عام ١٩٥٠ فى ٣١ صفحة النص العربى + ١٣٦ صفحة الترجمة الإنجليزية والدراسة .

ثم طبعت فى موسكو بتحقيق خالدوف وبلغاركوف عام ١٩٦٦ م .

وطبع تحقيقهما فى القاهرة بترجمة محمد منير موسى عام ١٩٦٦ م .

وفى عام ١٩٢٤ عثر فى مدينة مشهد الإيرانية على مخطوطة تشتمل على أربع رسائل :

١ ـ رسالة أبى دلف .

---

(١) ص ٣ مقدمة الرسالة الثانية .   (٢) ص ٢٢ مقدمة الرسالة الثانية .

٢ ـ رسالة ابن فضلان .

٣ ـ رسالة فى أخبار البلدان لابن الفقيه .

٤ ـ رسالة أخرى .

وأصبح لهذه المخطوطة أهمية كبيرة فى تراث أبى دلف ، وفى تاريخ البحث العلمى الجغرافى القديم .

ورسالة أبى دلف فى مخطوطة مشهد تشتمل على رسالتيه الأولى والثانية وقد ذكرنا على أنهما كتاب واحد .

ويبدو أن هذا الكتاب كان قديماً يسمى عجائب البلدان كما نقلنا عن القزوينى وياقوت، وذكرها بهذا الاسم كذلك بروكلمان .

وأبو دلف فى رحلاته يعنى عناية شديدة بذكر أماكن المعادن والآثار ، وطالما يقف أمام الأشياء موقف العالم المدقق الحكيم المجرب الذى يحاول فهم الأشياء والوصول إلى دخائلها .

ومن أهمية البحث الجغرافى الذى قام به أبو دلف أنه عرض لمدينة الشيز ، وهى بين المراغة وزنجان وشهرزور ، وتوجد الآن فى وادى سارى كوتز فى الاتحاد السوفيتى . ومن وصف أبى دلف لهذه المدينة : أمكن للعلماء الروس تحديدها واستخراج آثار تخت سليمان من تحت طبقاتها الأرضية . ومن مثل تحقيقاته العلمية ما ذكره فى صعوده إلى قمة جبل دبناوند فى فارس ودخوله كهفاً فى هذا الجبل ورصده لظاهرة وجود نار مشتعلة فيه[1] .

ويذكر أبو دلف أنه سار فى منارة خوارزم ، ورأى بها آثاراً كثيرة لجماعة من ملوك العرب والعجم ، ويتحدث عن انخساف بعض قراها تحت الأرض بنحو مائة قامة .

ويشكك بعض الباحثين فى وصول أبى دلف إلى خوارزم بدعوى أن معلوماته عن هذه البلاد عامة ضحلة ، ولكن ذلك لا يقف حجة لهذا الشك .

وبعد فقد كان أبو دلف ابن ينبع ، من أعظم الرحالين الجغرافيين المسلمين ، الذين ظهروا

---

(١) الرسالة الثانية ص ٨٧ .

فى القرن الرابع الهجرى . وقد نالت رسالتاه أعظم اهتمام فى عالم الاستشراق ، وأولاه المستشرقون كثيرا من العناية والدراسة والبحث .

وعمل أبى دلف فى ميدان الرحلة متعدد : فهو يظهر لنا فى صورة الرحالة الوصاف للجغرافية الإقليمية القديمة .

كما يظهر فى صورة الجغرافى المتمكن ، والأثرى المنقب ، والجيولوجى الدقيق العالم بطبقات الأرض وصخورها مما يرفع من منزلته بين العلماء .

ويظهر لنا كذلك فى صورة الطبيب الذى يعلم أماكن المصحات الطبيعية التى تلائم طبيعة المرضى والتى تساعدهم على الشفاء .

ويصدق عليه ما قاله المسعودى عن نفسه : «قطعنا بلاد السند والزنج ، والصين والرانج ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينية وأذربيجان »[1] .

— ٤ —

وقد عاش أبو دلف عالم ينبع وأديبها وشاعرها فى عصر ازدهار الشعر ونهضته فى القرن الرابع الهجرى .

وشهر — أول ما شهر ابن ينبع — بالشعر ، فقصد به ملوك الساسانيين ووزراءهم يمدحهم ، وينشد فيهم القصائد الطوال ، ثم ذهب إلى البويهيين ، ملوكهم ووزرائهم ، فمدحهم بقصائده الجياد .

ومن الأسف أن شعر أبى دلف أو ديوانه يعد مفقودا حتى اليوم ، ولا نعرف له إلا القليل جدا من شعره ، مما سجله الثعالبى فى « اليتيمة » ، ومن أهم ما حفظه الثعالبى لنا من هذا التراث الشعرى قصيدة أبى دلف — أو رائيته الساسانية ، التى سوف نتحدث عنها بعد قليل .

وأشهر أغراض شعره : المدح — والهجاء — والفكاهة ، وأهم أغراضه الشعرية على الإطلاق هو شعره الساسانى الذى سنتعرض له .

ولنبدأ بذكر مقتطفات مما بقى من شعره ، لنتعرف إلى شاعريته ، ونقف على مدى أصالته .

(١) مقدمة الجزء الأول من مروج الذهب للمسعودى (ت ٣٤٦ هـ) .

١ ـ كان أبو عيسى بن المنجم الطبيب من جلساء الصاحب ، وكان الصاحب قد أهداه دابة فارهة ، فكان يركبها كلما قصد مجالس الوزير ، وهلكت الدابة أو قل نفقت ، فطلب الصاحب من شعرائه أن يكتب كل منهم قصيدة فى رثاء البرذون الراحل ، وينشدها فى مجلسه ، ويقدمها إلى أبى عيسى ، فاجتمع الشعراء ، ثلاثة عشر شاعرا ، فى مجلس حافل من مجالس الصاحب الوزير ، وألقى كل منهم قصيدة[1] . وقام شاعرنا أبو دلف فأنشد أرجوزة طويلة فى رثاء الفقيد، ضمنها أحر عواطفه ، فماذا قال الشاعر فى هذا الموضوع ؟ استمعوا إلى أبى دلف ينشد[2] :

دهـــر على أبنائه وثاب
يا لك دهـــراً كله عقاب
أصبح لا يردعـه العتاب
واها لنـــاء ما له إياب
لكل قلب بعده اكتئاب
ذو نسب تحسده الأنساب
قد كملت فى طبعه الآداب
كأنمـــا غُرَّتُهُ شهاب
كأنمـــا لَبَّاتُه محراب
لا خبرٌ منك ولا كتاب
تناوبتك للردى أنياب
تجزع من أمثالها الأحباب
وكنت لو طالت بك الأوصاب
يخف فى مصرعك المصاب

(١) ٣ : ٢١٣ ـ يتيمة الدهر . (٢) ٣ : ٢٢٣ ـ ٢٢٥ المرجع .

وأنت فرد ، ما له أتراب

قل لأبي عيسى : وما الأسباب

بدافع : تم لك الثواب

فاسكن فهذا الصاحب الوهاب

في جوده وفضله مناب

٢ ـ ويقول أبو دلف أيضا يصف ترفه وشجاعته[1] :

إني امرؤ كسروى الفعال ... أصيفُ الجبال وأشتو العراقا

وألبس للحرب أثوابهـا ... وأعتنق الدارعـين اعتناقا

يقول ابن الفقيه[1] : اختار أبو دلف بفضل رأيه أن يصيف الجبال ، ليسلم من سمائم العراق وذبابه وسخونة مائه وهوائه ، ويشتو بالعراق ليسلم من زمهرير الجبال وكثرة رياحها ووحولها .

٣ ـ ولما طوت الأحداث حياة أبي دلف المترفة ، فأحالته فقيرا بعد غنى ، قال[2] :

ألم ترني حـين حال الزمان ... أصيف العراق وأشتو الجبالا

سمـوم المصيف وبرد الشتاء ... حنانيك حالا أزالتك حالا

فصبرا على حـدث النائبات ... تأبى الحوادث إلا انتقالا

٤ ـ ووقف أبو دلف أمام بعض آثار تدمر في الشام ، فقال[2] :

ما صورتان بتدمر قد راعتا ... أهل الحجى وجماعةَ العشاق

غَبَرَا على طول الزمان ومَرِّه ... لم يسأما من ألفـة وعناق

فليرمـينّ الدهر من نكباته ... شخصيهما منه بسهم فراق

وليُبْلينَّها الزمانُ بكرِّه ... وتعاقب الإظـلام والإشراق

كي يعـلم العلمـاء أن لا دائم ... غـير الإله الواحـد الخـلاق

---

(١) ٢٤١ مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه ـ طبعة بريل ١٣٠٢ هـ .

٢ ٢٤١ المرجع السابق .

٥ ـ ولأبى دلف حكم مأثورة مشهورة ومنها أبياته السائرة[1] :

هى المقادير تجرى فى أزمّتها | فاصبر فليس لها صبر على حال
دع المقادير تجرى فى أعنّتها | ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها | يغـــير الله من حال إلى حال

وليس بين أيدينا نصوص من حكمه ؛ لأن شعره مفقود إلا النماذج القليلة التى رواها الثعالبى .

٦ ـ ويذكر الثعالبى أن الصاحب الوزير بنى قصرا بأصبهان ، وانتقل إليه ، واقترح على شعرائه أن يقولوا فيــه شعرا . وفى يوم حافل اجتمع شعراؤه الثلاثة عشر فى مجلس الصاحب ، ومن بينهم شاعرنا أبو دلف[2] ،فأنشد كل منهم قصيدة طويلة فى مدح الصاحب ووصف القصر ، وقد ذكر الثعالبى هـذه القصائد ومن بينها قصيدة أبى دلف . ومطلع قصيدة أبى دلف هو :

رأينا طلعة الدار | شموسا مع أقمار
ولى مسألةٌ بعد | فعاجلنى بإخبار
بنيت الدار فى دنيا | ك ، أم دنياك فى الدار ؟

٧ ـ ولننتقل إلى قصيدة أبى دلف الساسانية المشهورة العجيبة . . وقبل أن نذكرها نذكر مدلول « الشعر الساسانى » .

والشعر الساسانى له بذور قديمة فى شعر الصعاليك ، وفى مزاح أشعب وطبقته ، وفى أدب الجاحظ وبعض كتاباته .

وقد عمّ الفقر البلاد الإسلامية فى العصر البويهى ، كما ذكرنا آنفاً ، وما أقسى ما قاله أبو حيان فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة »[3] : القوت لم يكن إليه سبيل إلا بإخلاق المروءة،

(١) كتاب التمثيل والمحاضرة للثعالبى ، ومن الطريف أن هذه الابيات لشهرتها رويت بروايات مختلفة ، ونسبت لـكثير من الشعراء ، منهم : الشافعى ، والواثق العباسى ، وإسحاق الموصلى . .

(٢) ٣ : ٢٠٢ ـ ٢١٣ اليتيمة .

(٣) ٢ : ١٤٢ الـكتاب المذكور .

وتجرع الأسى ، ومقاساة الحرقة ، وقدع الحرمان ، والصبر على ألوان وألوان ؛ أو ما يقوله ابن لنكك البصرى :

جار الزمان علينا في تصرفه ... وأى دهر على الأحرار لم يجر ؟

وكان كثير من الساخطين والمشعوذين والمحتالين والسائلين والحواة يجوبون البلاد ، ويطوفون بالأقاليم ، ويتفننون في اختراع الحيل للحصول على المال ، ويظهرون أحيانا إن صدقا وإن كذبا أنهم مجاهدون أحيانا أو من أبناء السبيل ، أو ممن نهبت أموالهم فى الطريق ، أو مرضى أو غير ذلك ، فأطلق على هؤلاء بنو ساسان ، أو الساسانيون[1] وكان جامع الأهواز مأوى الكثير منهم[2].

وظهر الشعراء والأدباء الذين يقولون شعرهم وأدبهم فى الاستجداء ، وفى الاحتيال على أخذ المال من أى طريق ، وقيل لجماعة هؤلاء الشعراء والأدباء أيضا : ساسانيون ، وقيل لأدبهم وشعرهم: أدب وشعر ساسانى. وكم هناك من فرق بين المدح وبين الاستجداء والاحتيال على الناس ؟

وللساسانيين لغة واصطلاحات خاصة لا يعرفها إلا من كان منهم ، وتعرف هذه اللغة باسم « مناكاة بنى ساسان » ، وكان الصاحب يحفظ منها الكثير حفظاً عجيباً ، كما يقول الثعالبى فى اليتيمة[3]، وكان يعجبه من أبى دلف وفور حظه من هذه اللغة فى شعره، وبخاصة فى قصيدته ساسانية الطويل ، التى كتبها وقدمها[4] إلى الصاحب ، ووصف فيها حيل بنى ساسان وأساليب حياتهم ، وقد اختار منها الثعالبى نحوا من مائتى بيت .

هذا هو معنى الشعر الساسانى بإجمال ، فمن هو ساسان الذى نسب إليه ؟

قيل : هو أمير الأسرة الساسانية[5] الفارسية المالكة ،حزن لما تولت أخته الملك وحرم

---

(١) ١ أ / ٤٦ و ٤٧ دائرة المعارف الإسلامية . (٢) ٧ أحسن التقاسيم للمقدسى .

(٣) ٣ / ١٧٦ اليتيمة . (٤) ٢١٨ « الأدب فى ظل بنى بويه للزهيرى » ـ طبعة عام ١٩٤٩م.

(٥) أسرة فارسية حكمت ايران ، أولهم ارشير (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) ، وآخرهم يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) .

هو منه ، فاشترى غنماً ، وجمل يرعاها ، ويمير بأنه راعى غنم ، فنسب إليه كل من احترف الـكدية .

وقيل: إن الساسانيين كانوا شراذم الأمراء من بنى ساسان، جاء الإسلام فذلوا بعد عز ، وافتقروا بعد غنى ، ورحلوا من مـكان إلى مـكان ، فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة عار وذل ، بعد أن كانت نسبة شرف ومجد .

وقيل إن ساسان كان رجلا من عامة الناس ، ماهرا فى الحيلة والاستجداء ، فنسب إليه هؤلاء .

وكان من الساسانيين شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الألم عبقريتهم ، ومنهم شاعرنا أبو دلف ، وشاعر آخر ضاهاه فى رفعة المنزلة فى الأدب الساسانى ، وهو الأحنف العكبرى ، الذى قيل عنه : إنه آدب بنى ساسان فى بغداد ، وقال الثعالبى عنه : هو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام .

وقد أكثر العـكبرى من تصوير بؤسه وحرمانه فيقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن ... تأوى إليه ومالى مثلها وطن

ويقول أيضـا :

عشت فى ذلة وقلـة مال ... واغتراب فى معشر أنـذال

بالأمانى أقول لا بالمعانى ... فغذائى حـلاوة الآمـال

ودالية الأحنف الساسانية مشهورة وفيها يقول :

على أنى بحمد الله ... فى بيت مـن المجد

بإخوانى بنى ساسا ... ن أهل الجد والجـد

لهـم أرض خراسان ... فقاشان إلى الهنـد

إلى الروم إلى الزنج ... إلى البلغار والسند

قطعنا ذلك النهج ... بلا سيف ولا غمد

وقد هزت هذه القصيدة أبا دلف ، فعارضها بقصيدته الساسانية المشهورة ، التى حشر

فيها الخليفة للطيع لله العباسى (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) ـ الذى لم يكن يملك فى ظلال البويهيين من الأمر شيئاً ، حشره فى جملة الساسانيين الصعاليك الفقراء ، وكان ذلك مما يتندر به الصاحب وعضد الدولة ، وهو على أى حال تندر مر ؛ لأنه يشير إلى الحقيقة المرة كاملة ، إذ كان الخليفة فى ظل البويهين لا شأن له بشىء من أمور الخلافة والسلطان ، ويعيش دائماً فى فقر وحرمان .

قصيدة أبى دلف الساسانية[1] :

قصيدة طويلة ساسانية ، ذكرها الثعالبى فى اليتيمة ، وشرح كثيراً من اصطلاحاتها الساسانية ، ولها أهمية كبيرة ، لا فى شعر أبى دلف ، ولا فى الشعر الساسانى ، وحدها بخاصة ، بل فى الشعر العباسى عامة .

وقد اهتم بها المستشرقون اهتماماً شديدا ، فمثلوا مثلا بما جاء فيها من وصف الأوانى الصينية[2] .

وهذه القصيدة تجمع ما تفرق من اصطلاحات الساسانيين ، ولا يقاربها فى هذا الباب أثر أدبى آخر إلا مقامات البديع .

وقد استخدم أبو دلف بكثرة فى القصيدة كلمات غامضة من اللغة السرية لآل ساسان ، وقد شرحها الثعالبى وكشف عن مغاليقها ، ولولا ذلك لما فهمنا عنها شيئاً . وكان أبو دلف يجيد هذه اللغة تماماً . وقد علم الصاحب إياها بنجاح ، وقد أعلن أبو دلف أنه نفسه من زمرة الساسانيين.

يقول شاعرنا من هذه القصيدة :

جفونٌ دمعها يجرى لطول الصد والهجر

وقلبٌ ترك الوجد به جمراً على جمر

لقد ذقت الهوى طعميـ ـن من حلو ومن مر

---

(١) ٣ : ٣٥٤ ـ ٣٧٢ اليتيمة .

(٢) « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » ، د . زكى حسن .

ومن كان من الأحرا ر يسلو سلوة الحر
كأمثالى ، وفى الغرب ة أودى أكثر العمر
وشاهــدت أعاجيباً وألواناً من الدهر
على أنى من القوم الـ بهاليل بنى الغرّ
بنى ساسان والحامى الـ حمى فى سالف العصر
فنحن الناس كل النا س فى البر وفى البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
إلى طنجة ، بل فى كل أرض خيلنا تسرى
لنا الدنيا بمـــا فيها من الإسلام والـكفر
فإن ضاق بنا قطر نسر عنه إلى قطر

ويقول أبو دلف فى القصيدة أيضا :

ومنـــا شعــــراء الأر ض أهل البدو والحضر
ومنـــا سائر الأنصـــا ر والأشراف من فهر

ويستطرد أبو دلف ، فيجعل الخليفة الطيع لله العباسى من جملة الساسانيين :

ومنا قيم الدين الـ مطيع الشائع الذكر

وكان معز الدولة ثم ابنه عز الدولة قد ساموه الذل والهوان[1] . .

ثم يقول أبو دلف عفا الله عنه :

سقى الله بنى ساســا ن غيثاً دائم القطر
ألا إنى حلبت الدهـ ر من شطر إلى شطر
وجبت الأرض حتى صر ت فى التطواف كالخضر
وللغربة فى الحر فعال النار فى التبر
وما عيش الفتى إلا كحال المــد والجزر

(١) ٦ / ٨٦ و ٣٠٧ « تجارب الأمم » لمسكويه .

فبعض منــه للخير وبعض منــه للشر

فإن لمت على الغربَ ة مثلى فاسمعْ عــذرى

أمالى أسوة فى غر بتى بالســادة الطهر

فإن أظفر بآمالى شفيت غلة الصدر

وقد تخفق فوق عز ة ألوية النصر

وإما تــكن الأخرى فلا أبت مــع السَّفر

ولا عدت متى عــدت بلا عز ولا وفر

هذه هى أبيات من القصيدة الساسانية ، التى نظمها أبو دلف ، وأنشدها الصاحب ، وطارت شهرتها بين الأدباء. وقد أتينا على أبيات قليلة منها بعيدة عن اصطلاحات الساسانيين المويصة .

ولا نقول عنها إلا أنها وثيقة أدبية كبيرة[1] الدلالة فى الشعر العباسى ، وأنها من أرفع نماذج الشعر الساسانى ، وهى حافلة بالبلاغة والصور والأخيلة العجيبة .

— ٥ —

وتقاذفت الأيام بأبى دلف ، وشهد نهاية صديقيه : الصاحب وعضد الدولة ، ومرت به السنوات ، من فقر لغنى ، ومن غنى لفقر ، ولم يجد كريما كالملك الساسانى ولا كالصاحب الوزير ، ولا كعضد الدولة البويهى .

ورأى الحياة من حوله لم تعد تحتفى بالأدب ، ولا تمير الأدباء جانبا من رعايتها .

وشاهد نتائج رحلاته وطوافه بالبلاد ، وتدوينه للأرجاء ، تصبح وكأنها ليست شيئا مذكورا .

وتذكر زملاءه الشعراء : المتنبى، والسلامى، والقاضى الجرجانى، وأبا سعيد الرستمى ، والبستى .

(١) بعد أن كتبت ذلك وجدت آدم متز « فى الحضارة الإسلامية » ٢ : ١٠٧ يقول عنها : إنها وثيقة اجتماعية فى القرن الرابع .

وأقرانه من الأدباء والكتاب : الخوارزمى ، البديع الهمذانى ، الصابى ، الصاحب ، ابن العميد :

وقد طوت كل هؤلاء الأيام ، ومضت بهم الحياة إلى مصيرهم المحتوم .

فأسلم نفسه للمقادير ، إلى أن لقى ربه نحو عام ٣٩١ ﻫ ـ ١٠٠١ م كما أرجح ، أو عام ٣٩٠ ﻫ كما ذكر الزركلى فى « الأعلام » ، والعلامة حمد الجاسر فى كتابه « بلاد ينبع » نقلا عن « الأعلام » .

وبذلك انتهت صفحة كبيرة خالدة من صفحات تاريخنا الفكرى والأدبى فى القرن الرابع الهجرى .

الحريرى

٤٤٦ — ٥١٦ هـ

هو أبو محمد القاسم على بن محمد بن عثمان الحريرى البصرى اللغوى النحوى الكاتب الشاعر صاحب المقامات المشهورة والبدائع المأثورة ، وهو عربى صميم من بنى حرام . ولد ٤٤٦ بمشان البصرة[1] ، ونشأ بالبصرة وانقطع لتعليم العربية من اللغة والنحو والأدب ، حتى صار نادرة زمانه فى كلها ولا سيما الإنشاء ، لجارى البديع فى اختراع مقامات متخيلة القصص يأتى فيها على كثير من مواد اللغة وفنون البلاغة وأمثال العرب وحكمها ، واتفق أن أعرابيا فصيحا يسمى أبا زيد قدم البصرة من سروج[2] ، فأُعجب أهل البصرة به ، فنحله الحريرى وقائع مقاماته ، وسمى راويها الحارث بن همام يريد نفسه آخذا من الحديث « كلكم حارث وكلكم همام » ، فالحارث : الكاسب . والهمام : كثير الاهتمام . وأول مقامة صنفها هى المقامة الحرامية الثامنة والأربعون ، وعدة المقامات خمسون مقامة ، صنفها للوزير جمال الدين وزير المسترشد هكذا وجد بخطه ، وقيل : إنه عملها للوزير أنو شروان وزير المسترشد أيضا ، وقد استعظمها عليه حساده ، وزعموا أنها لمغربى قدم البصرة ومات بها .

ومن يطلع على مقاماته ويعرف منازيها ومراميها وبلاغة عباراتها ، يعرف ما كان عليه الرجل من الفضل الجم والأدب الغزير . وقد شرحت المقامات عدة شروح وترجمت إلى عدة لغات وغاية ما أخذه كتاب الفرنجة عليها : وحدة مغزاها وأن أكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء ، وللحريرى العذر فى ذلك لأنه فرض روايتها عن الأعراب ، وهم كانوا لا يقدمون المدن إلا منتجعين مستجدين ، وكان الحريرى على غناه قذرا وسخا قصيراً دميا ، يولع بنتف لحيته ، وله ديوان رسائل وشعر جيل وتآليف شريفة ، منها : درة الغواص فى أوهام الخواص ، وملحة الإعراب فى النحو ، والمقامات مطبوعة مشهورة .

---

(١) هى قرية قريبة من البصرة ، كثيرة النخل ، وكان له فيها ١٨ ألف نخلة .

(٢) بلد بالجزيرة .

وقد نسج الحريري [1] . على منوال الهمذاني في مقاماته ، فقلده في أسلوبها ، ونظمها وموضوعاتها وصفات راويها ، فقد جعل أبازيد السروجي الذي عزا إليه مقاماته، مثل أبي الفتح الإسكندري : رجلا أديباً محتالا ، وكأنما أخذ أوصافه من أوصاف ذلك الرجل ، وكانت موضوعاته في مقاماته أشبه بموضوعات مقـــامات البديع ، لأن الحريري وصف أبا زيد السروجي بأنه فقير محتال، يستعمل ذكاءه وقوة بيانه في كسب عطف الناس عليه واستدرار أموالهم ، كما وصفه بأنه شاعر بليغ وخطيب مفوه ، وشحاذ ملحّ في السؤال، امتلأت نفسه بالاحتيال على الناس ، ينتقل من مكان إلى مكان ، ويرحل من بلد إلى بلد للسؤال ، وقد اتخذ ذلك حرفة له . وكل مقاماته وصف لنفس هذا الرجل ، أو صور لبعض الناس ، ولا سيما الأدباء منهم ، وبيان لـما هو كامن في نفوسهم من أطماع وحيل ، واستعمال ما وهبوا من فصاحة وبلاغة في ذلك . وقد أطنب الحريري في ذكر صفات أبي الفتح الإسكندري . أما أسلوب مقاماته فأظهر شيء فيه تعمد السجع والصناعة اللفظية . ولـكن التـكلف لا يظهر في كثير منها ، بل لقد يـكون السجع حلية لـكلامه ، وسببا لحسن ديباجته ، ولولا ذلك لـكان كلامه غير مقبـــول لقلة معانيه أو تـكرارها . . ومن مميزات أسلوب هذه المقامات أنها جعبة ألفاظ لغوية ، وجمل مختارة ، وأمثال سائرة ، وأشعار رقيقة ، وقد ولع الحريري بالصناعة اللفظية كـكل كـتاب زمانه، وأكثر من أنواع البديع ولاسيما التورية والجناس ، ولـكنه دل على نبوغ فائق في هذا النوع من الـكتابة الفنية .

ومن مقامة للحريري يوصى ابنه بالـكُدية والشحاذة :

يابني ؛ إني جربت حقائق الأمور ، وبلوت تصاريف الدهور ، فرأيت المرء بنشبه لا بنسبه ، والفحص عن مكسبه لا عن حسبه ، وكنت سمعت أن المعايش إمارة وتجارة ،

(١) ولد أبو القاسم بن على الحريري سنة ٤٤٦ هـ بقرب مدينة البصرة ونشأ بالبصرة ، فاتصل بـكثير من علماء اللغة العربية وأخذ عنهم فنونها وعرف كثيراً من مفرداتها ، حتى صار إماما في ذلك . وألف كتبا في اللغة منها : درة الغواص في أوهام الخواص ، وكان شاعراً وأديبا وكاتبا ومؤلفاً ؛ ومن أشهر ما كتب مقاماته المعروفة ، ويحسب الحريري بهذه المقامات من أشهر أدباء العرب وأكبر كتابهم .

وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أخذت منها معيشة ولا استرغدت بها عيشة ، أما فرص الولايات ، وخلس الإمارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفيء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفطام ، أما بضائع التجـــارات ، فعرضة للمخاطرات، وطعمة للغارات، وما أشبهها بالطيور الطيارات. وأما اتخاذ الضياع، والتصدى للازدراع ، فمهلكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا بها عن إذلال ، أو رُزِقَ رَوْحَ بال ،وأما حرف أولى الصناعات ، فغير فاضلة عن الأقوات، ولا نافقة في جميع الأوقات ، ومعظمها معصوب بشبيبة الحياة ، ولم أر ما هو بارد المغنم ؛ لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ،وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها . فشهدت وقائعها معلما ، واخترت سيماها لى ميسما . إذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو إليه الجمهور ، أو يستصبح به العمى والعور ، وكان أسلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف ، ولا يخشون حمة لاسع ، ولا يدينون لدان وشاسع ، ولا يرهبون ممن برق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد . أنديتهم منزهة ، وقلوبهم مرفهة ، وطعمهم معجلة ، وأوقاتهم غير محجلة . أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطاناً ، ولا يتقون سلطاناً ، ولا يمتازون عما تغدو خماصاً وتروح بطاناً ...الخ.

ومن مقامات الحريرى المقامة الإسكندرانية ، التى تتضمن مخاصمة أبى زيد مع امرأته أمام القاضى فنها :

« ... فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عشية عرية ، وقد أحضر مال الصدقات ، ليفضه على ذوى الفاقات ، إذ دخل شيخ عفرية ، تعتله امرأة مصبية . فقالت : أيد الله القاضى ، وأدام به التراضى ،إنى امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة ، وأشرف خؤولة وعمومة ، ميسمى الصون ، وشيمتى الهون ، وخلقى نعم العون ، وبينى وبين جاراتى بون ، وكان أبى إذا خطبنى بناة المجد ، وأرباب الجد ، سكتهم وبكتهم ، وعاف وصلهم وصلتهم ، واحتج بأنه عاهد الله تعالى بحلفة ، ألا يصاهر غير ذى حرفة ، فقيض القدر لنصبى ووصبى،

أن حضر هذا الخدعة نادى أبى . فأقسم رهطه ، أنه وفق شرطه ، وادعى أنه طالما نظم درة إلى درة ، فباعها ببدرة . فاغتر أبى بزخرف محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله . فلما استخرجنى من كناسى ، ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كسره ، وحصلنى تحت أسره ، وجدته قعدة جثمة ، وألفيته ضجعة نومة . وكنت صحبته برياش وزى ، وأثاث ورئى . فما برح يبيعه فى سوق الهضم ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم ، إلى أن مزق مالى بأسره .

الشعر فى العصر العباسى الثانى

منزلة الشعر والشعراء :

كان لتعدد بيئات الأدب ومواطنه ، ولتنافس الدول الناشئة وحاجة ملوكها إلى الشعر والشعراء للدعاية والمدح والتغنى بالبطولات والانتصارات ، ولظهور آثار الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية فى الأدب والشعر ، ولرقى الحضارة والأذواق وتعدد منابع الثقافة الأدبية ، ولامتزاج العرب بشتى العناصر والألوان ، ولجمال الطبيعة وتعـــدد مظاهرها ومشاهدها ، أثر فى نهضة الشعر وازدهاره ، وفى سمو منزلة الشاعر وعظمة مكانته ، وفى تقدير المجتمع له واعتداده به ، وعنايته بشعره طيلة العصر العباسى الثانى .

ففى ظلال الدول العربية المستقلة التى قامت فى العصر العباسى الثانى فى أرض الجزيرة والشام ومصر ، كالدولة الحمدانية ،وكدولة الفاطميين ازدهر الشعر ازدهاراً كبيراً،وارتفعت منزلة الشعراء ، وزادت العناية بشأنهم ، وذلك استجابة فطرية لطبيعة العربى فى حب الشعر وتذوقه والاعتداد بالشعراء .

وكذلك كان حال الشعر فى ظـــلال بعض الدول الأعجمية كالدولة البويهية وكدولة السامانيين والأيوبيين ، اللواتى تنافسن فى رعاية الشعر والشعراء تنافسا كبيراً ، أثراً للرغبة فى توطيد دعائم الدولة ، وإذاعة مفاخرها ومحامدها ، والإشادة بأيامها وانتصاراتها ، فـكان الشعر إبان ذلك العهـــد كالصحف اليومية ، التى تسجل الأحداث وتذيعها وتخلدها على التاريخ ؛ وتقوم بالدعاية للدولة القائمة وملوكها وحكامها ، وقـــد بلغ من تنافس الملوك على أبى الطيب المتنبى الشاعر العربى الخالد ، ما عنيت بتدوينه كتب الأدب ومصادره ، وكانت الملوك تسعى ليمدحها المتنبى بروائع قصائده .

أما فى العهد السلجوقى فلم تـكن حالة الشعر والشعراء فى ظلاله كحالته فى ظلال العهد البويهى ، لعجمة الألسنة ، وكثرة الاضطرابات ، وسقوط عروش الحمدانيين والسامانيين والبويهيين ، التى كانت مضرب الأمثال فى العناية بالشعر والشعراء ، فذبلت رياض الشعر فى العراق وفارس وخراسان ، وبقى مجده وجلاله فى الشام ومصر فى ظلال الفاطميين والأيوبيين .

ونلمس حركة الشعر وازدهاره فى ظلال العهد البويهى إذا ما طالعنا كتاب « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » للإمام أبى منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى النيسابورى المتوفى عام ٤٢٩ هـ ، وقد ألفه ليكون ذيلا لكتاب « البارع فى شعراء المولدين » لهارون ابن المنجم م ٢٨٥ هـ ، وجمع فيه شعر نحو ٤٥٠ شاعراً ، وقسمه أربعة أقسام : الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام ومصر ، والثانى فى محاسن أشعار أهل العراق والدولة البويهية ، والثالث فى محاسن أشعار أهـــل الجبال وجرجان وطبرستان ، والرابع فى محاسن أشعار أهل خراسان وما وراء النهر . . . وهى من أحسن مصادر الأدب العباسى ، وقد ذيله أبو الحسن على الباخرزى م ٤٦٧ هـ بكتابه « دمية القصر » ، وذيل الدمية كل من : العماد الكاتب م ٥٩٧ هـ فى كتابه « خريدة القصر » وهو فى عشرة مجلدات ، وأبى المعالى سعد بن الوراق فى كتابه « زينة الدهر » ، وأبى الحسن على بن زيد فى كتابه « وشاح الدمية » . . وكتاب يتيمة الدهر يدلك على مدى ما بلغه الشعر فى العهد البويهى من رقى وازدهار .

وقد تعددت مواطن الشعر فى العصر العباسى الثانى ، فنفقت سوقه فى قرطبة والقيروان ومصر والشام والحجاز والجزيرة وبغداد وجرجان وفارس وخراسان وسواها من العواصم الإسلامية الكبرى التى ازدهرت فيها الثقافة العربية أيما ازدهار فى هذا العصر .

الشعر الشامى :

ونلاحظ أن شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها فى الجاهلية والإسلام ، والسبب فى تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم فى الشعر : قربهم من جزيرة العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حمدان وبنى ورقاء ، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينتقده ويثيب على

الجيد منه فيجزل ، ويفضل ؛ انبعثت قرائحهم فى الإجادة فقادوا محاسن الـكلام بألين زمام وأحسنوا وأبدعوا ماشاءوا . ومانبغ فحل من أدباء الشرق إلا استقى من معين أدباء والجزيرة ، إما بالإصالة منهم أو بالأخذ عمن أخذ عنهم وانـكب على حفظ أقوالهم ومدا أدبهم ، ومن هؤلاء : أبو بكر الخوارزمى والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى وا ابن عباد وكان له دفتر خاص بأدب أهل الشام لا يزال ينظر فيه ويعجب به . . وب حالة الشعر على ما وصفناه إلى قبيل انتهاء هذا العصر ، وفى القرن الأخير شاركت . ر الشام والجزيرة ، ونبغ فيها كثيرون فى أيام الحروب الصليبية .

أشهر الشعراء :

اشتهر بالشعر فى الشرق الإسلامى فى هذا العصر كثير من الشعراء ، وكا . ؛ هم من أهل بغداد ومدن العراق . . فمن شعراء بغداد :

١ ـ أبو الحسن محمد بن عبد الله السلامى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ .

٢ ـ أبو النصر عبد العزيز بن عمر الشهير بابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ .

٣ ـ الشريف الرضى م ٤٠٥ هـ .

٤ ـ مهيار الديلمى م ٤٢٨ هـ .

٥ ـ أبو الفتح محمد بن عبيد الله سبط التعاويذى المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

٦ ـ ومنهم ابن حجاج م ٣٩١ هـ ، وابن سكرة م ٣٨٥ هـ .

ومن شعراء جرجان وخوارزم وأقصى خراسان :

١ ـ أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى م سنة ٣٨٣ هـ .

٢ ـ القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز م سنة ٣٩٢ هـ .

٣ ـ أبو الفتح على بن محمد البستى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ .

٤ ـ أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى م سنة ٥١٥ هـ .

٥ ـ القاضى أبو بكر ناصح الدين الأرجانى م ٥٤٤ هـ .

٦ ـ أبو إسماعيل الحسين بن على مؤيد الدين الطغرائى م سنة ٥٥٧ هـ .

٧ ـ ومنهم كذلك : المأمونى ، والخوارزمى ، والبديع ، والميكالى والباخرزى ، وسواهم .

ومن شعراء الشام المتنبى ، وأبو فراس ، والرفاء م ٣٦٣ هـ ، والصنوبرى ، وكشاجم ، والوأواء الدمشقى م ٣٩٠ هـ ، والمعرى ، وابن الخياط الدمشقى م ٥١٧ هـ ، وابن حيوس م ٤٧٣ هـ ، وابن سنان الخفاجى ، وسواهم .

ومن شعراء مصر : ابن وكيع التنيسى[1] م ٣٩٣ هـ ، وتميم بن المعز الفاطمى (٣٣٧ـ ٣٧٤ هـ) ، وعمارة اليمنى ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه ، وابن الفارض ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وسواهم .

وفى كتابى « الأدب فى ظل بنى بويه » للزهيرى و « الشعر العربى فى العصر السلجوقى » لعلى جواد الطاهر ، تفصيل للمؤثرات العامة فى الشعر فى العصر العباسى الثانى .. نستطيع تصويره فيما يلى من الفصول .

عوامل أثرت فى الشعر فى هذا العصر :

تأثر الشعر العربى فى العصر العباسى الثانى بمؤثرات كثيرة ، من أهمها :

١ ـ رقى ثقافات الأدب ، وازدهار فنونه وتعدد مواطنه ، ونشأة ألوان جديدة منه كالنقد والبلاغة ، مما أثر فى الشعر وهو أحد ألوان الأدب تأثيراً واضحاً .

٢ ـ ازدهار الحضارة ، وخاصة الحضارة العقلية والعلمية ، التى أثرت فى عقول الشعراء وأخيلتهم فى هذا العهد أيما تأثير ؛ وكان لنمو العلوم وتكاملها وتعدد مصادرها ، والتأثير الفارسى والهندى واليونانى فى العقلية العربية ، ولاختلاط العربى بغيره من أبناء الأمم المتمدينة بالجوار والتعامل والرحلة وغيرها كبير النتائج فى حياة الشعر وتطوره فى هذا العصر .

٣ ـ رعاية الدول المستقلة المتنافسة للشعر والشعراء ، وتقديرها لهما تقديراً ظاهراً ، مما نهض بالشعر ، ورفع من منزلة الشعراء .

(١) ١ : ٢٤٣ ـ ٢٤٥ وفيات الأعيان لابن خلكان ط ١٢٩٩ .

٤ ـ جمال الطبيعة وتعدد مظاهرها فى العالم العربى الإسلامى ، مما ألهم الشعراء بروائع الآيات فى أوصافها ، واشتهر الصنوبرى والرفاء وابن وكيع وتميم بن المعز والشريف العقيلى وسواهم بشعرهم فى الطبيعة .

٥ ـ اعتزاز العناصر العربية بالشعر والشعراء ، واهتمامها الشديد بتشجيع النهضة الشعرية ، استجابة لبواعث الذوق والملكة والفطرة العربية الأصيلة . . مما دفع بالشعر إلى التطور والتجديد وسمو المنزلة .

٦ ـ تعدد مدارس الشعر ، وخاصة مدرسة الشعر المصرى ، ومدرسة الشعر الشامى ومدرسة الشعر البغدادى ، وتنافس هذا المدارس فيما بينها ، مما أدى إلى ازدهار الشعر ونهضته .

ثقافة الشعراء :

والحق أن ثقافة الشعراء فى هذا العصر لم تعد كما كانت من قبل ثقافة محـدودة ، بل اتسعت فتناولت كل ثقافة ، وشملت كل معرفة ، وأصبح الشاعر مطالبـا بالتزود بزاد كبير من الشعر القديم ، والشعر المحدث ، من شتى علوم الأدب ومعارفه ، وأصبح مطالبا بأن يكون شعره صورة لهذه الثقافة المحيطة الواسعة جميعا ، ومن ثم وجدنا الشعر قد تطور فى معانيه وأخيلته وموضوعاته وأغراضه ، وتأثر بالعقلية الجديدة تأثرا كبيرا ، ممـا يستطيع أولو الذوق تبينه واضحا جليا فى قصائد الشعر العباسى وآثاره .

خصائص الشعر العباسي

أولا ـ في الألفاظ :

أخذ الشاعر العباسي في هذا العصر يتأنق تأنقاً شديداً في اختيار ألفاظه ، ويحرص على أن تكون ممثلة لموضوع القصيدة تمثيلا ظاهراً ، فالألفاظ الجزلة القوية يحرص الشاعر على تخيرها وخاصة في الشعر الحماسي ، والألفاظ الرقيقة العذبة يتعمدها تعمداً ظاهراً ، وخاصة في مواقف النسيب والغزل .

والجزل من الكلام هو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها[١] ، وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا لا ينغلق معناه[٢] .

ويقول ابن الأثير : الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر أيام البعاد ، وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك ، ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعني به أن يكون متينا على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع ، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا ، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبي تمام :

ناعمات الأطراف لو أنهـــا تلبس أغنت عن الملاء الرقاق[٣]

ويقول : وأما البداوة في الألفاظ فتلك أمة قد خلت وقد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن[٤] .

وقد عرف النقاد أمر الجزالة والرقة وشأنها في الكلام ، وبحثهما منهم كثيرون في نقدهم ودراساتهم . فالفرزدق يقول في جرير : ما أحوجني مع فسوق إلى رقة شعره وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعري[٥] . فهو يرى أن الجزالة والرقة بحسب الشاعر والموضوع الذي

---

(١) ٦٤ الصناعتين . (٢) ٦٦ المرجع . (٣) ٦٥ المثل السائر .
(٤) ٦٨ المثل السائر . (٥) ٢٧ الشعر والشعراء .

ينظم فيه. ويقول عبد الملك فى الأعشى : قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره[١]. ويقول الأصمعى فى شعر النابغة : إن قلت ألين من الحرير صدقت وإن قلت أشد من الحديد صدقت[٢] . وقال أبو عبيدة فى شعره : له ديباجة إن شئت قلت شهد إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالها[٣] . وبحث الجرجانى فى وساطته الجزالة والرقة بتفصيل[٤] . وذكر أثر نفس الشاعر وخلقه وبيئته وعصره ولون معيشته فيها ورأى أن الرقة إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك ، ودعا إلى[٥] تنزيل الجزالة والرقة منازلها بحسب المعانى والأغراض والموضوعات . وقد ذكر الجاحظ فى البيان الجزالة والرقة عرضا ، فتراه يقول : ومن الكلام الجزل والسخيف والخفيف والثقيل وكل عربى وبكل قد تكلموا[٦] وذكر أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وأنه قد يحتاج إليه فى بعض المواضع وربما أمتع كثيراً[٧] .

ويقول : وحاجة الكلام إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة . ويدعو إلى ترك الوحشى والسوقى فى مواضع كثيرة من بيانه . وعرض لهما ابن المدبر عرضا فقال : لا يعتد بالمعنى الجزل ما لم تلبسه لفظا جزلا . وعرض لهما أرسطو فى كتابة الخطابة فذكر أنه « لا ينبغى أن تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه، فلا تبلغ درجة العامية ولا محوج إلى الكلفة المشنوءة » وذكر أنه « ينبغى أن يلاءم بين اللفظ والمعنى فالمعنى الجزل يعبر عنه بألفاظ جزلة والمعنى الرقيق يعبر عنه بلفظ رقيق »[٨] .

وقد ظهر النقد البيانى لألفاظ الشعر فى هذا العصر ، وأخذ علماء النقد يكتبون عن الألفاظ كتابة عميقة . يقول أبو هلال فى كتابه « الصناعتين » : « فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة ، والسهولة والرصانة ، مع السلاسة والفصاحة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف وبعد عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب ،قبله

---

(١) ٣٨ الجمهرة . (٢) ٣٨٠ / ٣ العقد . (٣) ٣٢ جمهرة أشعار العرب .

(٤) ٣٢ وما بعدها من الوساطة . (٥) ٢٩ المرجع . (٦) ١١٠ / ١ البيان والتبيين .

(٧) ١١٠ / ١ البيان والتبيين . (٨) راجع كتاب الشعر فى « الشفاء » لابن سينا .

ولم يرده ، وعلى السمع المصيب ، استوعبه ولم يمجه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسى البشع »[١] .

وقد صاحب ذلك ظهور سمات أخرى للفظ الشعرى ، وهى :

١ — التوسع فى استعمال الألفاظ الاصطلاحية ، وهى عديدة ، تتناول مصطلحات شتى العلوم .

٢ — دخول كثير من الألفاظ الأعجمية فى الشعر . فابن الرومى يستعمل كلمة شير وهى الأسد فى الفارسية ، وزرياب وهو ماء الذهب ، وكذلك يستعمل المعرى كلمتى : فرازين وبياذق ، وهما من أسماء الشطرنج ، وقد كان القدماء يستعملون ألفاظ العجم عند الحاجة ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما بلغه المولدون[٢] . وعن الجاحظ : كان الشاعر يتملح بها على عادة بعض الشعراء فى ذلك الزمان .

٣ — استعمال ألفاظ خارجة عن نصوص اللغة ، فالمتنبي يستعمل « فريص » جمعاً لفرائص ، وفرد رجل بمعنى رجل واحدة ، و « أدلت له » بدل «أدلته من » وهذه الظاهرة عامة فى العصر العباسى الثانى .

٤ — شيوع الألفاظ البذيئة ، وخاصة فى شعر المجون والهجاء وكذلك استعمال بعض الكلمات الحاسية والمفردات الغريبة التى كان يعمـــد إليها بعض الشعراء كالمعرى فى اللزوميات مثلا .

ثانياً — فى الأسلوب :

ومن أظهر خصائص الأسلوب فى الشعر ما يلى :

١ — التوفر على صناعة البديع ، وتلك سمة المولدين منذ مسلم بن الوليد إلى نهاية العصر العباسى الثانى . وقد استن النقاد مناهج خاصة بألوان البديع ، وكان ابن المعتز م سنة ٢٩٦ ﻫ أول من جمع فنونه وألوانه وألف فيه . ثم جاء قدامة بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » ، وأبو هلال فى كتابه « الصناعتين » ، والقاضى الجرجانى فى كتابه « الوساطة » والآمدى

(١) ٤١ الصناعتين . (٢) ٣٤٧ الوساطة . (٣) ١ : ٦١ البيان والتبيين .

فى كتابه « الموازنة بين الطائيين » وابن سنان فى كتابه « سر الفصاحة » وابن رشيق فى كتابه « العمدة » فوضعوا أصول علم البديع ، وجمعوا شتى ألوانه ، وألفوا فيه ، وكانت ألوان البديع عند ابن المعتز سبعة عشر لوناً ، وعند قدامة عشرين ، وعند أبى هلال خمسة وثلاثين .

وقد زادت ألوان البديع على مر العصور ، زيادة كبيرة ، وكان الشعراء المولدون يعنون بهذه الألوان البديعية عناية ظاهرة ، ويستعملونها فى شعرهم ، وانتقل الأمر من الصناعة البديعية المعنوية إلى الصناعة اللفظية التى أثرت فى الأدب شعره ونثره على السواء تأثيراً خطيراً . وخاصة فى آخر هذا العصر ، ولننظر مثلا إلى قول مهيار الديلمى ، وهو أحد الشعراء المطبوعين ، والفحول المجيدين . وكان مجوسيا وأسلم على يد الشريف الرضى ، وعليه تخرج فى نظم الشعر ، وفى طريقة سبكه ، وعلى منواله نسج ، حتى إنه يخيل لقارئ الديوانين أن ناظمهما واحد ، غير أنه يلاحظ أن فى كلام مهيار سهولة وجنوحا عن الغريب ، ويرى فى كلام الشريف بعد تصور ودقة خيال . فهو يلى الشريف فى طريقته ، وفيهما تحقق معنى التلميذ والأستاذ . يقول مهيار من قصيدة له :

بكر العارض تحدوه النعامى[1]	فسقاك الرى يا دار أماما
وبجرعاء الحمى قلبى فعج	بالحمى واقرأ على قلبى السلاما
وترجل فتحدث عجباً	أن قلباً سار عن جسم أقاما
قل لجيران الغضى آها على	طيب عيش بالغضى لو كان داما
يصل العام ولا ينسا كو	وقصارى الوجد أن يسلخ عاما
حملوا ريح الصبا من نشركم	قبل أن تحمل شيحاً وخزامى
وابعثوا أشباحكم لى فى الكرى	إن أذنتم لجفونى أن تناما

فنجد فى هذا الشعر صناعة بديعية بديعة ، صناعة معنوية ، أظهرها الطباق ، مثل : سار وأقام ، ومثل : الكرى وتنام . . فإذا انتقلنا إلى شاعر آخر كالبهاء زهير م ٦٥٦ هـ الذى اشتهر برقة اللفظ وسهولته ، وبالصناعة البديعية اللفظية ، فقرأنا له مثل قوله :

(١) العارض: السحاب والنعامى : ريح الجنوب أو بينه وبين الصبا .

عيرى على السلوان قادر ... وسواى فى العشاق غادر
لى فى الغرام سريرة ... والله أعـــلم بالسرائر
ومشبـــه بالغصن قلـ ... ـبى لا يزال عليه طائر
حلو الحديث وإنها ... لحلاوة شقت مرائر
أشـكو وأشـكر فعـله ... فاعجب لشاك منه شاكر
لا تنـــكروا خفقان قلـ ... ـبى والحبيب لدىّ حاضر
ما القلب إلا داره ... ضربت له فيها البشائر
يا تاركى فى حبـــه ... مثـلا من الأمثال سائر
أبداً حديثى ليس بالـ ... ـمنسوخ إلا فى الدفاتر
ياليل ما لك آخر ... يرجى ولا للشوق آخر
ياليل طل يا شوق دم ... إنى على الحالين صابر
لى فيـك أجر مجاهد ... إن صح أن الليـل كافر
طرفى وطرف النجم فيـ ... ـك كلاهما ساه وساهر
يهنيـك بدرك حاضر ... يا ليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ... من منهما زاه وزاهر

وتنسب هذه القصيدة لابن الفارض وهى ليست من مشربه إلا فى كثرة المحسنات البديعية، وتلك شبهة من نسبها له وهى مثبتة فى كل النسخ من ديوان زهير مع تعيين الزمان والمكان اللذين قيلت فيهما . إذا قرأنا هذه القصيدة وجدنا فيها كثيراً من ألوان البديع اللفظية وخاصة الجناس ، وإن كانت حلاوة البهاء وقوة ملـكاته لم تدع لصناعته اللفظية أن تجنى على أسلوبه فى شعره .

٢ — شيوع الأسلوب المنطقى فى الشعر ممـا يسميه علمـاء البديع المذهب الـكلامى ، وذلك يشمل :

(ا) الاحتجاج على صحة المعنى مثل قول المتنبى :

ما أبعد العيب والنقصان من شرفى ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم

(ب) حسن التعليل للمعنى كقول الشاعر :

قد طيب الأفواه حسن ثنائه ... من أجل ذا تجد الثنور عِذابا

(ج) الإتيان بالأسلوب على نهج القياس المنطقى كقول المتنبى :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبًّا

فحب الجبان النفس أورده البقا ... وحب الشجاع الحرب أورده الحربا

ويختلف الرزقان والفعل واحد ... إلى أن ترى إحسان ذا لذا ذنبا

(د) استعمال الحوار الذى يخضع للجدل المنطق الذى تأخذ الحجة فيه برقاب الحجة ، والدليل بزمام الدليل كقول المعرى :

هى قالت لما رأت شيب رأسى ... وأرادت تنكراً وازورارا

أنا بدر ، وقد بدا الصبح فى رأ ... سك ، والصبح يطرد الأقمارا

لست بدراً وإنما أنت شمس ... لا ترى فى الدجى وتبدو نهارا

وقد كان هذا الأسلوب المنطق منذ العصر العباسى الأول مثار جدل عنيف بين الشعراء ، يقبل عليه ويستحسنه المجددون ، وينكره ويزورُّ عنه المقلدون ، حتى عابه ابن قتيبة فى مقدمة كتابه أدب الكاتب ، والبحترى الشاعر ، الذى قال :

كلفتمونا حدود منطقكم ... والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ... ـطق ما نوعه وما سببه

والشعر لمح تكفى إشارته ... وليس بالهذر طولت خطبه

٣ ـ شيوع الفكاهة فى الأسلوب ، وقد حرص على ذلك أمثال : ابن حجاج م ٣٩١ هـ ، وابن سكرة الهاشمى م ٣٨٥ هـ ، وكان يقال ببغداد فيهما : إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخى جدًّا ، وتبعهما الحسين بن محمد الملقب بالبارع م ٥٢٤ هـ ، والشريف أبو يعلى بن الهبارية م ٥٠٤ هـ ، وأمثلة هذا الشعر فى اليتيمة كثيرة فى شعر الشاعرين ابن سكرة وابن حجاج .

ثالثاً — فى المعانى :

١ — اتسعت أمام الشاعر معانى الشعر فى هذا العصر اتساعاً كبيراً ، بتأثير رقى الحياة الاجتماعية والعقلية ، وتعدد ألوان الحضارة ، وكثرة مظاهر الطبيعة ، ورقى المعرفة وأنماط التعليم ، وبكثرة ألوان الثقافة الأدبية المحتوم على الشعراء الإلمام بهـا ، وبتأثير الثقافات المترجمة ، وخاصة الفلسفة والمنطق ، وبما أخذوه من معانى الشعراء السابقين .

٢ — وقد ابتكر الشعراء فى هذا العصر الكثير من المعانى التى لم يسبقوا إليها ، مما نجده فى المتنبى والمعرى ومهيار والشريف الرضى وسواهم ، وهذا السرى الرفاء فى رثائه لصديقه الفتى المصلوب من بنى شيبان يجعله بدراً مفقوداً مع أنه غير آفل ، ويسوى بين ثنى عطفه فى غلالة الصلب وسابغة الحرب ، ويجعله معرى كالسيف منتضى ، ويرى أن القدر أحله الهواء ضناً به عن ضنك الثرى . وهذا الصابى فى قصيدته التى يعزى بها نفسه وهو فى السجن ، يفضل من سجنه عزه على من أطلقه ذله ، ويجعل هذه النائبة أثرا لمنازلته الدهر ، ويجعله السماية به أثراً لمديده إلى النجم وسميه إلى المجد . . ولننظر إلى قول المعرى مثلا من قصيدته فى رثاء صديق له من الفقهاء :

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ	ـت على فرع غصنها المياد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ	ـب فأين القبور من عهد عاد ؟
خفف الوطء ما أظن أديم	الأرض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ	ـد هــــوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت فى الهواء رويدا	لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدا مراراً	ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقـايا دفين	فى طويل الأزمان والآباد

إلى آخر هــــذه القصيدة التى نجدها صدى لعقلية جديدة ، ونلمس فى معانيها جدة وابتكارا . . وهذا المتنبى يقول :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه	وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقـــول عداته · وأصبح فى ليل من الشك مظلم

أصادق نفس المرء من قبل جسمه · وأعرفها فى فعـــله والتـكلم

وهى معان جديدة مبتـكرة ، لم يكن يعرفها الشاعر العربى من قبل .

٣ ــ وقد أخذ الشاعر فى هذا العصر معانى الشعراء السابقين ، حيناً يأتى مجوداً مبرزاً فى أخذه ، وحينا يأتى مقصراً متخلفا ، ومرة ثالثة يأتى مساويا لمن أخذه منه ، فمثال ماجود فيه الشاعر قول المتنبى فى مدح ابن العميد :

وجمعت كل الفاضلين كأنمـــا · جمع الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا كما نسق الحساب مقدما · وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

وهو مأخوذ من قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر · أن يجمع العالم فى واحـــد

وأخذه أبو نواس من قول جرير :

إذا غضبت عليـــك بنو تميم · رأيت النـــاس كلهمو غضابا

فالمتنبى مجود محلق فى أخذه يمتاز بأسلوبه القوى ، وبدقة معناه . فممدوحه تجمع فيه كل الفاضلين ، كل الناس الأخيار ، فلم يتجمع فيه الشرير ولا الذليل ، أما العالم الذى جمع فى واحد هو الممدوح فى بيت أبى نواس فإنه يحتوى على العزيز والذليل والقوى والضعيف والخير والشرير ، والعالم والجاهل . وأما القبيلة التى يغضب الناس كلهم إذا غضبت فلا تفيد المبالغة فى المدح ، ولا العموم فيه اللذين نجدهما عند المتنبى .

ومن مثل تقصير الشاعر العباسى فى الأخذ قول الرستمى الشاعر فى الصاحب بن عباد :

قل لباغى الندى : خف الله لا · تسأله عمراً فإنه موهـــوب

أخذه من قول أبى تمام :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه · لجـــاد بها فليتق الله سائله

للمعنى واحد عند الشاعرين ؛ والممدوح لو سئل لأعطى وجاد ولو بروحه إن لم يستطع أن يجود بمال ، وأبو تمام قد أبان عن المعنى إبانة ظاهرة : إن ممدوحه يجود بروحه إذا لم

يكن فى كفه غيرها ، الصورة واضحة قوية مؤثرة معبرة وملهمة ، الممدوح فى مجلسه ، والعافون يسألونه ، وهو يجود بماله إن كان له مال فليجد بروحه التى لا يملك سواها ، ثم أعقب ذلك بتنبيه السائلين لممدوحه بأن يتقوا الله فيه . أما الرستمى فإنه لم يبن عن الممدوح إبانة ظاهرة ، وحذر السائل من أن يسأل ممدوحه العمر ، ولفظة العمر ليست فى وضوح لفظه «الروح» ، أما العمر فأيام وسنين ، وهى ليست فى يده ولا يستطيع أن يجود بها وقوله : فإنه — أى العمر — موهوب ، لا يدل على أن ممدوحه هو الواهب له ، وسؤال العمر لا يتأتى أبداً ، ولكن السؤال عند أبى تمام هو سؤال الندى ، والممدوح ليس فى يده مال ، إنما فى يده روحه ، فهو يجود بها حتى لا يوصف بالبخل . أما سؤال العمر فغريب بعيد .

والسرقات الشعرية من موضوعات علم البلاغة الذى يتصل الحديث على جميع جوانبها الفنية .

٤ — الإكثار من المبالغة والتهويل ، وذلك سمة هذا العصر ، من أثر الرقى العقلى والثقافى والأدبى ، وإيثارهم فى الشعر للأخيلة الجامحة البعيدة المدى ، وتأثرهم بالعناصر الأعجمية . ومن مثل هذه المبالغة قول ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) من المقصورة المشهورة :

ما رست من لو هوت الأفلاك من	جوانب الجـــو عليه ما شكا
ولو حمى المقدور منه مهجة	لرامها أو يستبيح ما حمى
تغــدو المنايا طائعات أمره	ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى

٥ — ومن ميزات معانى الشعر فى هذا العصر الإكثار من ضرب المثل وحسن الاحتجاج كقول ابن نباتة السعدى يصف فرسا أغر محجلا :

وأدهم يستمد الليـــل منه	وتطلع بـــين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير زهوا	ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه	تشبث بالقــوائم والمحيا

وقول قابوس بن وشمكير :

ياذا الذى بصروف الدهر عيرنا	هل عاند الدهر إلا من له خطر؟
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف	وتستقر بأقصى قاعه الدرر
وفى السماء نجوم لا عداد لها	وليس يكسف إلا الشمس والقمر

٦ ــ الإبداع فى تصوير المعانى كقول أبى الفضل الميكالى يصف شرار النار :

كأن الشـــرار على نارنا	وقد راق منظرها كل عين
قراضة تبر إذا ما علا	فإما هوت ففتات اللجين

وهى صورة بديعة دقيقة ، غاية الإبداع ، وتمام الدقة .

٧ ــ تمحيص الأفكار وترتيب العناصر ، وذلك أثر لرقى الثقافة والعقل برقى الحضارة وازدهار العلم ، ونلمس ذلك واضحا جليا فى كثير من شعر هذا العصر ، ومن ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف حمى أصابته بمصر :

وزائرتى كأن بها حياء	فليس تزور إلا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا	فعافتها وباتت فى عظامى
يضيق الجلد عن نفسى وعنها	فتوسعه بأنواع السقام
كأن الصبح يطردها فتجرى	مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق	مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر	إذا ألقاك فى الكرب العظام
أبنت الدهر عندى كل بنت	فكيف وصلت أنت من الزحام؟
جرحت مجرحا لم يبق فيه	مكان للسيوف ولا السهام

إلى آخر هذه القصيدة الرفيعة .

رابعاً — في الأخيلة :

وقد نضج خيال الشعراء في هذا العصر ، وقوى تحليقهم في أودية الشعر وأخيلته ، فجالوا في كل مجال ، وحوموا في كل أفق ، وصعدوا في كل جو . . ومن ثم نرى عنايتهم الواضحة بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز ، ونرى أنهم كثيراً ما أبعدوا الخيال إبعاداً شديداً يقول ابن النبيه المصري :

باكر صبوحك ، أهنا العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره

والليل تجرى الدراري في مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره

وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره

فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب ... ينوب عن ثغر من تهوى جواهره

حمراء في وجنة الساقي لها شبه ... فهل جناها مع العنقود عاصره

ساق تكون من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودت غدائره

وهو خيال مجنح يطير في كل مطار ، ولا يقف في سيره عند مسار .

أغراض الشعر

نظم الشعراء قصائدهم فى هذا العصر فى كل غرض ، وجالوا فى كل مجال ، ومن ثم نجد أغراض الشعر تتداول بابين واسعين من أبوابه :

(ا) أغراض قديمة نظم فيها الشعراء العباسيون كما نظم فيها الشعراء من قبلهم ، ولكنهم امتازوا فيها فى أحيان كثيرة : بتجويد الأسلوب ، وتهذيب المعنى ؛ ورقة الخيال ، ومن هذه الأغراض :

١ ـ المدح ، وقد أكثر منه الشعراء العباسيون لأنه قد كان يتنافس عليه الملوك والأمراء والولاة ، ليكسبوا حمداً ، ولينالوا مجداً ، ولتذيع مآثرهم على الأفواه ، وأبو الطيب المتنبى من بين شعراء هذا العصر مضرب الأمثال فى المدح السياسى الذى ملأه مبالغة تهويلا وإبعادا فى الخيال والتصوير ، يقول فى مدح بعض الولاة :

لو كان علمك بالإله مقسما   فى النـاس ما بعث الإله رسولا
أو كان لفظك فيهمو ما أ   نزل القرآن والتوراة والإنجيلا

٢ ـ الهجاء ، وأمثلته كثيرة فى هذا العصر ، ومنها أهاجى المتنبى فى كافور ، وكان بعض الشعراء ينظم قصيدة فى المدح لمن يريد أن يمدحه ، ويعد معها قصيدة أخرى فى الهجاء إن لم يعطه الممدوح ما يريد ، ويروى أن ابن الهبارية قدم أصبهان ، وبها السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك ، فدخل ابن الهبارية على الوزير ، ومعه رقعتان ، فى إحداها مدح ، وفى الأخرى هجاء ، فأعطاه الثانية غلطا ، وكان مما فيها :

لا غرو إن ملك ابن إسـ   ـحاق وساعده القـــدر
وصفا لدولته وخص   أبا المحاسن بالكدر
فالدهر كالدولاب ليس   يدور إلا بالبقـــر

فوقع الوزير عليها : فصرف له رسمه مضاعفا . وقد يهجو الشاعر إنسانا لا رغبة فى هجائه ، ولكن رغبة فى المزاح معه والتفكه عليه . . ويقول ابن سكرة فى الهجاء :

نهت علينا ، ولست فينا ولى عهد ، ولا خليفة
فتة ، وزد ، ما على جار يقطع عنى ، ولا وظيفة
ولا تقل : ليس فى عيب قد تقذف الحرة العفيفة
الشعر نار بلا دخان وللقوافى رقى لطيفة
لو هجى المسك - وهو أهل لكل مدح - لصار جيفه

٣ - الغزل ، وقد نظم منه كل الشعراء العباسيين ، مع حرصهم على رقة الشكوى . وإظهار أثر الوجد ، والهيام فى كل واد بالمحبوب المرموق ، ومن أمثلته قول ابن الخياط الدمشقى م ٥١٧ هـ :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه لقد كاد رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلى لو أحببتما لعلمتما محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر فذو الذكرى يشوق وذو الهوى يتوق ، ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه وشوق على بعد المزار وقربه
وفى الركب مطوى الضلوع على جوى متى يدعه داعى الغرام يلبه
إذا خطرت من جانب الرمل نفحة تضمن منها داءه دون صحبه
ومحتجب بين الأسنة معرض وفى القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست فى الحى أنة حذارا وخوفا أن تكون لحبه
فيا لسقامى من هوى متجنب بكى عاذلاه رحمة لمحبه
أهيم إلى ماء ببرقة عاقل[1] ظمئت على طول الورود بشربه
وأستاف حر الرمال شوقا إلى اللوى وقد أودعتنى السقم قضبان كثبه
ولست على وجدى بأول عاشق أصابت سهام الحب حبة قلبه

---

(١) إحدى برق نجد .

ومن مثل النزل النادرة فى هذا العصر قول ابن زريق البغدادى الكاتب :

أستودع الله فى بغداد لى قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعته وبودى لو يودعنى ... صفو الحياة وأنى لا أودعه

٤ ـ المثل والحكمة . . ولازدهار الثقافة ورقى العقل العربى ، ودخول الفلسفة والمنطق إلى تيار الفكر الإسلامى ، أكثر الشعراء فى هذا العصر منهما ، ولزوميات المعرى وحكم المتنبى مشهورة ، يقول المعرى من لزومياته مظهرا نزعته إلى التشاؤم من أعمال الإنسان والزمان :

أولو الفضل فى أوطانهم غرباء ... تشذ وتنأى عنهم القرناء
وحسب الفتى من ذلة العيش أنه ... يموت بأدنى القوت وهو حباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ... ولا بعد مر الأربعين صباء
تواصل حبل النسل ما بين آدم ... وبينى ولم يوصل بلامى باء
تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد ... بعدوى فما أعدتنى الثوباء
وزهدنى فى الخلق معرفتى بهم ... وعلمى بأن العالمين هباء
إذا نزل القدار لم يك للقطا ... نهوض ولا للمخدرات[1] إباء
على الولد يجنى والد ولو انهم ... ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً من بنيك وزادهم ... عليك حقوداً أنهم نجباء

٥ ـ الوصف وقد تطور هذا الفن تطوراً كبيراً فى هذا العصر باتساع المشاهدات ومظاهر الحياة والبيئة والحضارة ، فوصف الشعراء كل شىء رأوه بأبصارهم أو جال فى خلدهم ، جليلا كان أو حقيراً ، كبيراً كان أو صغيراً . . وقد نبغ من فن الوصف أمران :

(١) وصف المعارك الحربية ، وذلك تطور للشعر الحماسى المعروف منذ الجاهلية ، وقد نبغ فى هذا الفن كثير من الشعراء ، منهم المتنبى وأبو فراس الحمدانى ، ومن أمثلته قول المتنبى يمدح سيف الدولة ، ويذكر نوزه على الروم فى قلعة الحدث بالأناضول :

---

(١) الأسود فى آجامها .

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما يفهم الحداث إلا التراجم

إلى أن يقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

ولما سمع سيف الدولة ذلك قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين ، كما انتقدنا على امرئ القيس بيتيه :

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبق الزق الروى ، ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين ، وكان ينبغى لامرئ القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

ولم أسبأ الزق الروى للذة ... ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت ، وما فى الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

وقال المتنبى : « . . إنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت ، أتبعته بذكرى الردى — وهو الموت — ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : « ووجهك وضاح ، وثغرك باسم ، لأنه جمع بين الأضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجمعها .

(ب) وصف الطبيعة ، وقد كثر هذا اللون فى العصر العباسى الثانى ومن شعرائه :

الصنوبرى والرفاء والوأواء وابن وكيع وكشاجم والشريف العقيلي وسواهم . وقد افتن الشعراء فى أوصاف الطبيعة ، فوصفوا مظاهرها وألوانها ، وصفوا الطبيعة الصامتة والحية ، ومن شواهد أوصاف الطبيعة قول أبى سعيد الطبرى[1] :

أروضتنا سقاك الله هل لى ... إلى أفياء دوحك من مصير
غنينا فى ذراك على غناء ... وأفق رجمه سجع الطيور
وكم فى فرع أثلك من صفير ... وكم فى أصل أثلك من زفير
وأحشاء تؤلفها الحشايا ... كتأليف العقود على النحور
وشدو ترقص الأعضاء منه ... وبم لا يعل عراك زير[2]
فيالك روضة راعت فراحت ... رضى الأبصار من نور ونور

وفى هذه الأبيات يدعو الشاعر لروضته بالسقيا، ويتمنى لو استطاع أن يصير إلى أفيائها مرة أخرى ، ولكن أيدي الليالى قد ضربت بينه وبينها ، فلم تبق فى نفسه من ألوان العيش الرغيد إلا أصداء الغناء وسجع الطيور وصفير الحائم وزفير الشراب ، وحركات أعضائهم وعراك البم والزير ، وكذلك تراه يحاول أن يستعيد الذكرى بهذه الألفاظ الموسيقية السلسة التى وشاها بالجناس والطباق .

٦ ـ شعر الهزل واللهو والفكاهة وهو كثير فى هذا العصر، ومن أمثلته شعر الحمدانى فى ابن حرب وطيلسانه ، وشعر ابن حجاج وابن سكرة ، وأبى الرقعمق ، وابن الهبارية ، وصريع الدلاء ، وسواهم ممن كانوا يقضون حياتهم مرحاً ولهواً وفكاهة ، ويسجلون فى شعرهم هذه الحياة اللاهية العابثة ، ومن مثل هذا الشعر قول بعض الشعراء فى وصف مجلس :

مجلس فى فنـــاء دجلة يرتا ... ح إليـــه الخليع والمستور
طائر فى الهواء فالبرق يسرى ... دون أعلاه والحمـــام يطير

---

(١) ٣ : ٢٨٤ اليتيمة .

(٢) البم : من أغلظ أوتار العود ، والزير : الدقيق من الأوتار .

ليس فيه إلا خمار وخمر ... وعمات من نشـــوة ونشور

وحديث كأنه زهر المنثور ... حسنا أو لؤلؤ منثور

وجريح من الدنان تسيل ... الراح من جرحه وقدر تفور

ويقول ابن حجاج يعزى رجلا فى زوجته وقعت من فوق بيته فماتت :

عفا الله عنها ، إنها يوم ودعت ... أجـــل فقيدَ فى التراب مغيب

ولو أنها اغتلت لـكان مصابها ... أخف على قلب الحزين المـــذب

ولـكن رأت فى الأرض أمى مجدلا ... على قدر غرمول الحمار الشغب

فأهوت إليه من يفاع ودونه ... ثمانون باعا فى عـــلو مصوب

فصارت حديثا شاع بين مصدق ... تحققه علما ، وبين مكذب

سعى الطمع المردى إليها بحتفها ... ومن يمتثل أمر المطامع يعطب

فأعظم — يا هذا — لك الله ربها ... وربك أجر الثـكل فى شاة أشعب

ب — الأغراض الجديدة للشعر العباسى : وهى كثيرة، كثرة جدة الحياة نفسها فى هذا العصر ، ومنها :

١ — الشعر الساسانى أو شعر الـكدية ، وهو موروث عن أشعب وطبقته » وقد شاعت حرفة الـكدية فى العهد البويهى وانتشرت ، ومن الجماعات التى احـترفت الـكدية جماعة الساسانيين ، نسبة إلى : « ساسان[1] » .

وفى مقامات البديع المقامة الساسانية التى أوضح فيها كثيراً من البواعث الدافعة إلى الـكدية ، ودافع فيها عن حرفة التسول، ويشير إليهم أبوحيان فى كتابه: الإمتاع والمؤانسة

(١) هو رجل قيل فيه : إن أباه اسفنديار لما حضرته الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته فأنف ابنه ساسان من ذلك واشترى غنما وجعل يرعاها وعير بأنه راعى غنم ؛ ونسب إليه كل من تـكدى ؛ وقيل إنه كان ملـكا من ملوك العجم حاربه « دارا » ملك الفرس ونهب كل ما كان له، واستولى على ملـكه. فصار رجلا فقيراً يتردد فى الأحياء ويستعطى فضرب به المثل وقيل إنه كان رجلا فقيراً حاذقا فى الاستعطاء دقيق الحيلة فى الاستجداء فنسب إليه المـكدون ؛ وقيل إنهم شراذم دولة بنى ساسان التى قضى عليها الإسلام وطردوا من مكان إلى مكان فصارت نسبتهم إلى الساسانيين نسبة عار وذل بعد أن كانت نسبة شرف ومجد ؛ وهو رأى الإمام محمد عبده فى شرحه لمقامات البديع ص ٩٧ .

إشارة المشفق بهم الرائى لحالهم[1] . وكان الساسانيون يطوفون فى الآفاق ، ويتقلون فى البلدان ، يستجدون ويحتالون على الناس ، وكان منهم شعراء صقل الحرمان مواهبهم ، وأنضج الألم عبقريتهم ، ومنهم الأحنف العكبرى، وأبو دلف الخزرجى، ومن شعر الأحنف قوله[2] :

على أنى بحمد الله فى بيت من المجد
بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجد والحد

ويقول :

العنكبوت بنت بيتا على وهن تأوى إليه وما لى مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن وليس لى مثلها إلف ولا سكن

وكان يقال فيه: إنه فرد بنى ساسان بمدينة السلام، وأما أبو دلف فشاعر كذلك مطبوع، وله قصيدة رائية تعرف بالقصيدة الساسانية عارض فيها دالية الأحنف ونهج نهجه فيها ، وشرح فيها أصناف المكدين شرحا وافياً ، ومنها :

على أنى من القوم البهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الحمى فى سالف الدهر
فنحن الناس كل النـــاس فى البر وفى البحر

ومن الأدب الساسانى مقامات البديع الهمذانى .

٢ ـ الشعر الاجتماعى · وهو الذى نظم فى وصف الحياة الاجتماعية وفسادها واضطرابها والثورة على الفروق الظالمة فيها، وعلى الإقطاع والحكام وألوان الاستبداد فى المجتمع، حيناً بأسلوب الفكاهة ، وحيناً بأسلوب الرمز ، وحيناً بالتعريض ، وبالتصريح أيضا . يقول الأحنف العكبرى :

رأيت فى النوم دنيا مزخرفة مثل العروس تراءت فى المقاصير
فقلت جودى ، فقالت لى على عجل إذا تخلصت من أيدى الخنازير

---

(١) ٢ : ١٤٣ الإمتاع والمؤانسة . (٢) ٢ : ٢٨٥ اليتيمة .

ويقول ابن الحجاج وقد رأى كلاب عز الدولة تطعم اللحم :

رأيت كلاب مولانا وقوفا ورابضة على [illegible]ر الطريق

تنـــذ[illegible] [illegible]دا فوددت أنى وحق الله [illegible]وش سلوق

[illegible]ــــو[illegible] ى رافقنى بـكلب لآكل كل يوم مع رفيـــق

[illegible] [illegible]مصاب قد أضحى عدوى لشؤم البخت واللحى صـــديق

ومن المقامة القردية يقول البديع :

الذنب للأيام لا لى فاعتب على صرف الليـــالى

بالحمق أدركت المنى ورفلت فى حلل الجمـــال

وقد كان أدب أبى حيان التوحيدى صورة رائعة من صور الأدب الاجتماعى فى باب النثر .

ومن هذا الشعر الاجتماعى قول ابن لنكك البصرى :

لا تخدعنك اللحى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر

تراهم كالسحاب منتشراً وليس فيه لطالب مطر

فى شجر السرو منهم مثل له رواء وماله ثمر

ويقول كذلك :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف بلا أكناف

بطيالس وقلانس محشوة يتعاشرون بقلة الإنصاف

ومن الشعر الاجتماعى كثير من شعر أبى العلاء فى لزومياته ، مثل قوله :

يتشبه الطاغى بطاغ مثله وأخو السعادة بينهم من يسلم

فى الناس ذو حلم يسفه نفسه كيما يهاب وجاهل يتحلم

وكلاهما تعب يحارب شيمة غلبت فآض بحربها يتألم

٣ ـ الشعر الفلسفى . وقد نضج هذا الشعر بتأثير رقى الثقافة ، ونمو حركة الفكر ، وانتشار علوم الفلسفة ، ومن مثله كثير من شعر المعرى ، ومن مثله كذلك قصيدة ابن سينا فى النفس ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

٤ ـ الشعر الصوفى : الصوفية مجاهدة النفس ورياضتها لتصير سلسة القياد ، مطهرة من الأدران بعيدة عن نزعات الشر والهوى ، وعن الميل إلى الشرور والآثام . وقد نشأ الشعر الصوفى فى أواخر العصر العباسى الأول ، ومن شعرائه طائفة كبيرة من أعلام الصوفيين من أشهرهم فى العصر العباسى الثانى ، ابن الفارض الذى وقف شعره على الهيام بالذات الإلهية ، ومن عيون شعره يائيته المشهورة ومطلعها :

سائق الأظعان يطوى البيد طى منعما ، عرج على كثبان طى

وتائيته مشهورة كذلك ، وله قصيدة لامية يقول فيها :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خاليا فالحب راحته عنا وأوله سقم وآخره قتل
ولكن لدىّ الموت فيه صبابة حياة لمن أهوى على بها الفضل
نصحتك علما بالهوى والذى أرى مخالفتى فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيداً فمت به شهيداً وإلا فالغرام له أهل
فمن لم يمت فى حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

صور عن أشهر الشعراء

١ — الشريف الرضى (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ) :

هو أبو الحسن محمد ، الشريف الرضى ، الموسوى ، جده الأعلى على بن أبى طالب . ولد ببغداد ، عاصمة الملك العباسى ، سنة ٣٥٩ هـ ؛ ونشأ فى بيت أبيه ، نقيب الطالبيين ، الفقيه الورع ؛ التقى الصوفى ، السيد ، العلوى قرين الخليفة ، والموثوق به ، من الشعب ، والمحبوب لدى الجمهور فى بغداد ، على اختلاف الأجناس ، وتباين مذاهب الناس ، حتى رضى حكمه المختصمون ، إبان نظره المظالم ، فلم تعرف عليه خطيئة فى حكم ، ولا تملقت به زلة فى رأى ، ولى إمارة الحج بالناس فحج بهم مرات ، لم تشهد نفوس الحجيج أكثر نسكا ولا أحزم فى أداء المناسك أميراً مثله .

وقد رأى الشريف أباه كعبة الناس وحكمهم ، وبصر بالقوم ينسلون إليه من كل حدب ، يستفتونه فى أمر دينهم ودنياهم . كما أن الخليفة يغمره ببره ، ويصله بعطاياه ، وسمع المتحدثين بصيت أبيه ، والشاعرين ينظمون الشعر فى فضائله ، فتربى الشريف على الفضيلة ، وتفقه فى الدين ، وأشرب حب الأدب وحاكى أباه فى خواص مظاهره ، كما شابه الشعراء الوالدين وهو حدث ، لم يعد العاشرة من عمره إلا قليلا ، وله الشعر الجيد ، والقافية المتقنة وهو فى سن الخامسة عشرة : كمدحه للصاحب بن عباد ، الذى شهد له إذ ذاك بأنه شاعر .

وقد كونت عوامل البيئة من الشريف فقيها ، واسع العلم ، مضطلعاً بعلم المواريث ، لم توجه إليه فتوى أعجزته ، ولا مسألة أمضته ، كما جعلت منه الأديب الرجب والشاعر السائر الشعر ، والكاتب المجلى ، وإن كان لم يحفظ القرآن الكريم إلا بعد وقت طويل .

وإلى هنا كان الشريف قد ملك قلوب العامة ، ولفت إلى نفسه أنظار الخاصة ، باقتفائه أثر أبيه فى مظهره الدينى ، فقدموه يؤمهم فى الصلاة ويفتيهم فى الإسلام ، ويبصرهم بأدب السلوك ، فى مغيب أبيه ، وإن حضر أخوه الأكبر المرتضى ، فالشريف الرضى المقدم مع حداثته ، ثقة من الناس بالرضى ، لا تواضعا من المرتضى ، وقد كان الناس على تحرق على

الإسلام ، لمشو كثير من الخلال غير الكريمة ، وذيوع ألوان من المجون والدعابة ، لم تمل إليها نفوس الناشئين على تقوى وورع ، ولم تستهو عيون المحبين للإسلام ، فكان المظهر الديني له على هذه النفوس وأضرابها عظيم السلطان .

ولما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، كان على هيبة العلماء وجلال المتصوفة ، وكان أبوه في حاجة إلى الدعة ، وكانت ثقة الناس بجميل خلق الشريف ودقيق علمه قد بلغت المنتهى ، فأنابه أبوه عن نفسه في نقابة الطالبيين ، فذاع زهده وورعه ، وبهرت الناس عفته ، ولستهم تقشفه ؛ كذلك ولى نظر المظالم فخافه المجترمون ، وهرب من وجهه الآثمون ، لما عرف عنه من أنه كان يقسو على الجناة ، حرصاً على الفضيلة وناب في إمارة الحج بالناس ، فأمهم إلى الكعبة ، وأظهرهم على مناسك الحج كأفقه أئمة المسلمين ، فزادت ثقة الناس به ، وطبق ذكره الخافقين ، وملأ الأسماع صيته ، وتخطف الأبصار سناه .

وعلى حين ينبه ذكر الرضى ، ويلمع نجمه ، يخبو أوار الخليفة العباسي القادر بالله ، وتهرم الدولة العباسية ، وتموج بغداد بفتنة الديلم ، وتشب دولة بني بويه ويبين فتاها بهاء الدولة فيرى القادر نفسه في عوز إلى من يشد أزره ، ويدني إليه نفوس الشعب ، ويحببه إلى العامة ، والناس شيع لا تجمعهم إلا طريق ، ولا تضمهم إلا سنة ؛ والشعب كله ملتف حول نقيب الطالبيين ، ويرى بهاء الدولة أن يسبق القادر إلى ما يبغى ، والقادر يخشى بهاء الدولة ، لأن عزل الطائع على يد بهاء الدولة علم القادر كيف يحذر بهاء الدولة الشجاع الذى جهر برأيه ، وأصدر أمره عقب وفاة الطاهر أبي الشريف بأن يخلف أباه في نقابة الطالبيين ، بل وبأن يكون نقيب نقباء الطالبيين في جميع أنحاء الدولة ، كما أقامه ولى النظر في المظالم ، وأذنه في إمارة الحج بالناس ، فتم للشريف بذلك التقليد ما لم يجتمع لطالبي قبله .

وقد امتدت به الأيام على هذه النعمة ، وكل ذى نعمة محسود ، فأكل الحقد نفوساً لا تحيا إلا على الأذى ، فانتهز الحاسدون نهزة لبس الشريف السواد ، وألقوا في نفس الخليفة القادر : أن الشريف يحبي العلوية ، ويفضلها على العباسية ، كما تربصوا ببهاء الدولة الدوائر ، واستغلوا انصرافه لأمر الدولة ، وفي هذه الغفلة أحس القادر القوة ، فصرف الشريف عن جميع ما ولاه بهاء الدولة .

وعاش الشريف عيش القانع ، أبي النفس ، عفيفاً ، لم يقبل عطاء ، ولم يطلب نوالا ، بل وزاد على أن رد ما كان يجرى على أبيه من صلات ، حتى لقد ترضاه بنو بويه فلم يلينوا قناته .

ولقد ألح عليه مقرئه القرآن، فى أن يتقبل منزلا ، فأبى قائلا: إننى لا أتقبل بر أبى ، فكيف أقبل برك ؟ فقال أستاذه : إن حقى عليك فوق حق أبيك ، وما زال به حتى قبل الهبة .

نعم عاش على الكفاف ، ولم يتقبل العطاء ، وإن كان قد عرف عنه أنه مدح بهاء الدولة لما أولاه ، وأثنى على بنى بويه جميعاً ، إجلالا لولى النعمة السابغة ، كما امتدح الطائع لله وعتب عليه ، واستعطف القادر وترضاه وآخذه حين أقصاه .

ولقد كان لهذه النشأة العالية أثر فى نفسه ، فتجلى خلقه فى شعره وكتابته . فكان كما سترى شاعراً فى الناهين ، جمع شعره إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، واشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها . فنى شعره المدح لا إلى حد التكسب بالشعر، والعتب لا إلى حد القطيعة والهجر ، والفخر لا إلى حد العظمة والكبر ، والغزل لا إلى حد الاستهتار والتهتك ، والتواضع لا إلى حد الذلة والمسكنة ، فالعفة جملت غزله طاهراً ، والعزة جملته لا ينزل منازل الإسفاف، كما كان كاتباً ممن يتندر بهم الزمان ، فجاءت له براعة أعمت النفوس ، وأسالت العبرات ، وأعجزت البلغاء ، حتى لقد نظمه المتأدبون وأهــل الثقافة مع على بن أبى طالب فى سماط واحد . . والشريف الرضى من عيون الكاتبين ، وأئمة المترسلين .

ونهج نهج علىّ بن أبى طالب ، وقد احتذى حذوه ، حتى لقد غلا غير واحد فادعى أن للشريف يداً فى نهج البلاغة فوق أنه جمع مالعلى . فأصبح نهج البلاغة فى ظن هذا أقوالا لابن أبى طالب ، تعانق أقوالا للشريف فى كتاب من جمع الشريف ينسب لعلى . ولو صح هذا الرأى لكان الشريف الرضى أبلغ الكاتبين فى لغة العرب ؛ لأن نهج البلاغة بعد القرآن الكريم والحديث الشريف بلاغة وحسن أداء .

وسنعرض لك طائفة من نهج البلاغة لتتعرف قلمه ، وتطعم أسلوبه ، وتتذوق خياله .

والشريف سائر الشعر ، هو أشعر قريش ، وسيد القصيد فى الطالبيين ، من غبر منهم ومن كان فى عصره ، على كثرة شعرائهم المفلقين ، وحسبه أن يكون أشعر قبيلة فى أولها عمر بن أبى ربيعة ، وفى آخرها مثل ابن طباطبا الأصفهانى . وإنما كان الشريف أشهر لأن المجيد منهم مقل ، والمكثر منهم ليس بجيد ، والرضى قد جمع بين الإكثار والإجادة ، فهو نسيج وحده ، ووحيد دهره

وغنى الشريف على مزهر الأقدمين من الشعراء ، وحذا حذوهم ، فى جزالة اللفظ ، يستر المعنى الفخم ، فراض شمس القوافى ، ودان له عصى المعانى ، فأبدع وأطرب ، واخترع وحاكى فبذ وقد تنزه عن الحوشى ، وبرئ من سقط القول ، ولم يسف فى دعابة ، كأن النشأة كما صقلت نفسه رأت قلمه .

وشعر الشريف وشعر البحترى يلتقيان فى الكثير من وجوه الشبه ، غير أن شعر الشريف عف ، كما أن فخره وحماسته قد فاقا ما للبحترى منهما . وأكثر الظن عندى أن هذا التلاقى جاء عن طريق أن الشريف قد سمع وقرأ كثيراً للبحترى ، فنحا نحوه ، وقفى على أثره ، فلقد مات البحترى والشريف لم يولد بعد .

وشغف الشريف بتفهم كتاب الله بعد حفظه جعله يحبس قلمه كثيراً على إذاعة أسرار القرآن والحديث الشريف فألف :

١ — المتشابه فى القرآن الكريم .

٢ — تلخيص البيان عن مجازات القرآن .

٣ — مجازات الآثار النبوية .

كما ألف فى غيرها الكتب الآتية :

١ — الخصائص .
٢ — نهج البلاغة .
٣ — الحسن من شعر الحسين .
٤ — أخبار قضاة بغداد .
٥ — رسائل الشريف الرضى .
٦ — ديوان الشريف الرضى .

وبعد هـــذه الحياة المليئة ، بطهارة السريرة ونقاء الطوية ، وجمال النقيبة ، والأثر المحمود ، قبض الله إليه الشريف قبل أخيه المرتضى سنة ٤٠٦ هـ وبكاه الأدب ، وعزى الناس فيه العفة والورع ، وخلال الخير .

ومن مختارات شعر الشريف قوله :

١ — قل لليالى قد ملكت فأسجحى ولتبرك الخلق الكريم الأسجح

إن أشك نملك من فراق أحبتى فلسوء فعلك فى عذارى أقبح

ضوء تشعشع فى سواد ذوائبى لا أستضىء به ولا أستصبح

بعث الشباب به على مقة له بيع العليم بأنه لا يربح

لا تذكرن من الزمان غريبة إن الخطوب قليبها لا ينزح

٢ — وله فى النسيب :

أقل سلامى إن رأيتك خيفة وأعرض كيما لا يقـــال مريب

وأطرق والعينان يومض لحظها إليك وما بين الضلوع وجيب

يقولون مشغوف الفؤاد مروع ومشغوفة تدعو به فيجيب

وما علموا أنا إلى غـــير ريبة بقاء الليالى نغتدى ونؤوب

عفاف من دون التقية زاجـر وصونك من دون الرقيب رقيب

عشقت وما لى يعـلم الله حاجة سوى نظرى والعاشقون ضروب

وما لى يا لميــــاء بالشعر طائل سوى أن أشعارى عليك نسيب

أحبك حبــــا لو جزيت ببعضه أطاعك منى قائد وجنيب

وفى القلب داء فى يديك دواؤه ألا رب داء لا يراه طبيب

٣ — وله يرثى والدته :

أبكيك لو نقع الغليل بكائى وأقول لو ذهب المقـــال بدائى

وأعوذ بالصبر الجميـــل تعزيا لو كان بالصبر الجميل عزائى

وتفرق البعداء بعد مــودة   صعب فكيف تفرق القرباء
لو كان مثلك كل أم برة   غنى البنون بهـــا عن الآباء

٤ ـ وله فى الزهد :

يا آمن الأقـــدار بادر صرفها   واعــلم بأن الطالبين حثاث
خذ من تراثك ما استطعت فإنما   شركاؤك الأيام والوراث
لم يقض حق المـــال إلا معشر   وجدوا الزمان يعيث فيه فعاثوا
مالى إلى الدنيا الغرورة حاجة   فليخز ساحر كيدها النفاث
أم المصائب لا يزال يروعنا   منهـا ذكور نوائب وإناث
إنى لأعجب من رجال أمسكوا   بحبائل الدنيا وهـــن رثاث

٥ ـ وله فى الفخر :

أنا ابن السابقين إلى المعالى   إذا الأمد البعيد ثنى البطاء
اقمنا بالتجارب كل أمر   أبى إلا اعوجاجا والتواء
ولو كان العداء يسوغ فينا   لما سمنا الورى إلا العداء

٦ ـ وقال يمدح بهاء الدولة :

بهاء الملك من هذا البهاء   وضوء المجد من هـذا الضياء
وما يعلو على قلل المعالى   أحق من المعرق فى العلاء
بهاء الدولة المنصور إنى   دعوتك بعد لأى من دعائى
وكنت أظن أن غناك يسرى   إلى بما تبين من غنائى
ولى حق عليك فذاك جدى   قديم فى رضاك وذا ثنائى
ومن شيم الملوك على الليالى   مجازاة الولى على الولاء

٧ ـ وقال يمدح بنى بويه :

ولا يأنف الجار أن يمتفيهم   ولا الحر يأبى أن يكون لهم عبداً
وإن كريم القول من خـدم الملا   وإن لئيم القوم من خدم الرفدا

تخالهم غيداً إذا بذلوا الندى وتحسبهم جنا إذا ركبوا الجردا
أآل بويه ما ترى الناس غيركم ولا نشتكي للخلق لولاكم فقدا
نرى منكم جوداً ومطلكم جدا وإذلالكم عزا وأصراركم شهداً
وعيش الليالي عند غيركم ردى وورد الأماني عند غيركم وقداً

٢ — أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ) :

أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي الكوفي المتنبي ، خاتم ثلاثة الشعراء ، وغاية ما بلغه الشعر من الازدهار عربي صميم من جعفي بن سعد العشيرة إحدى قبائل اليمانية . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ في محلة كندة فنسب إليها ، وليس بكندي ، ونشأ بها ، وأكب على تعلم العربية من صباه . وكان نادرة في الحفظ يحفظ كل ما يقرؤه . فنبغ في اللغة نبوغا جعله يحيط بغريبها وحوشيها ، وكان لا يسأل عن شيء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر .

وكان أبوه فيما يقال سقاء ، فخرج به إلى الشام . ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة في البادية . فخرج إلى بادية بني كلب ، وهو يومئذ فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ، ويأخذ عنهم اللغة ، إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية ، فعظم شأنه بينهم ، ونفذ أمره فيهم . وكان الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدي الشغب على ولاتها ، فوشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية بأن أبا الطيب ادعى النبوة في بني كلب ، وأنه تبعه منهم خلق كثير بحيث يخشى على ملك الشام منه . فخرج لؤلؤ وحارب بني كلب وقبض على أبي الطيب وسجنه طويلا ، ثم استتابه وأطلقه .

وخرج أبو الطيب من السجن وقد لصق به اسم المتنبي مع كراهته له وشدة جحوده وإنكاره ما نسب إليه . والظاهر أن مما روج هذه الإشاعة وسهل قبولها علو همة أبي الطيب وشدة تعاظمه وتكبره وأنفته وميله إلى أن يكون أميراً أو واليا ، وتدرعه لذلك بتعلم الفروسية

وحضور المعارك مع سيف الدولة وصبره فى مقام الطعن والضرب . فرأوا أن من تكون هذه همته بعد خذلانه لا يبعد أن تكون سمت به إلى مقام النبوة ، والعصر عصر قرامطة وباطنية يسوغ فيه استماع مثل هذه الأراجيف .

ولما خرج أبو الطيب من السجن لحق سنة ٣٣٧ بسيف الدولة بن حمدان أمير حلب والجزيرة والثغور ، فمدحه بمدائح خلدته وخلدت اسمه أبد الدهر ، وحضر معه الوقائع العظيمة مع الروم ، وحدث فى واقعة منها أن دارت الدائرة على سيف الدولة ، وتشتت جنده ، وهلكت أتباعه ، وثبت فى ستة نفر أحدهم أبو الطيب ، فاخترقوا صفوف العدو ونجوا ، وبقى أثيراً عند سيف الدولة مقدما على جميع حاشيته وبطانته مع صلفه وتيهه ، فحسده بطانته فوشوا به إليه ، وكان أشدهم فى ذلك ابن خالويه النحوى ، فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلسه ، فضربه ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجه ، ولم ينتصف منه سيف الدولة ، فخرج إلى مصر سنة ٣٤٦ مغاضبا لسيف الدولة ، قاصداً كافورا الإخشيدى ، ووعده هذا أن يوليه ، فطمع فى أن تتم فى مصر أمنيته ، وصاحبها أسود خصى ، فمدحه بقصائد سنية . ولما رأى كافور تعاليه فى شعره وسموه بنفسه ، خافه . وعوتب فيه فقال : يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور ؟ فحسبكم . فأدرك أبو الطيب نيته وعاتبه عتابا أمضه ، واستأذنه فى الخروج من مصر فلم يأذن له وماطله خوفا من هجائه وهرب أبو الطيب سالكا طريق صحراء طورسينا وبادية الشام حتى خرج إلى الكوفة ودخل بغداد، ولاقى بها الأدباء والرؤساء ثم خرج إلى عضد الدولة فمدحه ومدح ابن العميد ، ورجع من عندهما بالأموال الطائلة والذخائر والأعلاق النفيسة إلى أمواله التى جمعها بحرصه وبخله فعاد إلى بغداد ، وخرج منها إلى الكوفة ، فخرج عليه أعراب بنى ضبة ، وفيهم فاتك بن أبى جهل ، وكان قد هجاه هجاء مقذعا . فقاتلهم قتالا شديداً حتى قتل هو وابنه محسد وغلامه مفلح ، وقيل : إنه لما رأى الغلبة عليه هم بالفرار ، فقال له أحد غلمانه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى … والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال : قتلتنى قتلك الله ! وكر راجعا وقاتل حتى قتل سنة ٣٥٤ هـ .

وكان المتنبي بليغ اللهجة، قوي الشكيمة، منبسطا متزيدا، يتشبه بالملوك ولا يمشي ولا يدخل على الملوك إلا وهو متقلد سيفه، وقلما يتقدم إلا وبجانبه، ويركب في موكب من مماليكه متحجبين بالأسلحة. وكان عفيفا قليل المزاح لم يشرب النبيذ إلا مرة واحدة له. وكان مع كل هذه الصفات بخيلا شديد الحرص، ولعله كان ينتظر أن يكون له من ماله دولة تحقق أطماعه.

ولا خلاف بين النقاد في أنه لم ينبغ في الشعر بعد المتنبي من بلغ شأوه أو داناه، والمعري على بعد غوره، وفرط ذكائه، وتوقد خاطره، وشدة تعمقه في المعاني والتصورات الفلسفية، يعترف بأبي الطيب ويقدمه على نفسه وغيره. وإنما الخلاف في أي الثلاثة أشعر؟ أبو الطيب أم أبو تمام أم البحتري؟ والمنطقيون يخرجون البحتري من موضوع الخلاف، كما أخرجه أبو الطيب، ويقولون: إنما هو الشاعر الحقيقي، وإن كلامه أرق من كلامهم وخياله خيال شاعر. ويجعلون موضع الخلاف كلام أبي تمام والمتنبي لأنهما شاعران حكيمان، إلا أنهما غلبا جانب المعنى والحكمة على جانب اللفظ. ولهم في الموازنة والمفاضلة بينهما كلام طويل، والنتيجة التي يرضاها كل من تتبع كلامهما أن أبا تمام ألين كلاما وأقربه إلى الأساليب الشعرية من المتنبي، وأن المتنبي أغزر حكمة وأكثر أمثالا وأدق معنى.

وللمتنبي من الحكمة والأمثال ما يربو به على كل شاعر تقدمه، وقد أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس إلا وله من حكم المتنبي فيها أيما حظ.

ولثقة المتنبي بنفسه في اللغة والنحو، وقلة حفله بعلماء زمانه وتكبره وصلفه جعل غايته من شعره إبراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة، على أي لفظ كان وبأي أسلوب تهيأ له، ولو لم يجر على مشهور القياس أو ينطبق على وجوه البلاغة والأساليب الشعرية السهلة، ولذلك تجد في كلامه كثيراً من الغرابة وشيئاً من التعقيد المعنوي واللفظي، ولكنه طرح التورية والجناس المتكلفين في زمنه جانباً، ولولا شذوذه وميله إلى الغريب، ومخالفته لذوق بعض أهل زمانه، لم يتمكن حساده من الطعن عليه، وقد لا تعدم الحسناء ذاما.

وقد قال المتنبى الشعر فى كل غرض من أغراضه وأجاد فى وصف المعارك والعتاب ، أما مدائحه فهى أكثر بضاعته ، وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه ، والمتنبى ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وشرح بأكثر من أربعين شرحا ، منها شرح العكبرى وهو مطبوع مشهور فى مصر ، وشعره مشهور محفوظ .

وهذه أبيات متفرقة لشاعرنا العظيم من حكمه الخالدة :

وكل امرىء يولى الجميل محبب ... وكل مكان ينبت العز طيب

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

والأمر لله رُبَّ مجتهد ... ما خاب إلا لأنه جاهد

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوا له ما من صداقته بد

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

فإن يكن الفعل الذى ساء واحداً ... فأفعاله اللاتى سررن ألوف

إذا أتت الإساءة من لئيم ... ولم ألم المسىء فمن ألوم

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

ومن الخير بطء سيبك عنى ... أسرع السحب فى المسير الجهام

ذرينى أنل ما لا ينال من العلا ... فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل

تريدين إدراك المعالى رخيصة ... ولا بد دون الشهد من إبر النحل

ومكايد السفهاء واقعة بهم — وعداوة الشعراء بئس المقتنى
تصفو الحياة لجاهل أو غافل — عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه — ويسومها طلب المحال فتطمع
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله — ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
وإذا خفيت على الغبى فعاذر — ألا ترانى مقلة عمياء
واحتمال الأذى ورؤية جانيه — غذاء تضوى به الأجسام

ومن شعره قوله :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة — فلا تظنن أن الليث يبتسم
أعيذها نظرات منك صادقة — أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره — إذا استوت عنده الأنوار والظلم
يامن يعز علينا أن نفارقهم — وجداننا كل شىء بعدكم عدم
إن كان سركم ما قال حاسدنا — فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة — إن المعارف فى أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم — ويكره الله ما تأتون والكرم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا — ألا تفارقهم فالراحلون هم

وقوله :

ذل من يغبط الذليل بعيش — رب عيش أخف منه الحمام

وقوله :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم — بين طعن القنا وخفق البنود

وقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله — وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم
لا يخدعنك من عدو دمعه — وارحم شبابك من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عفة فلعلة لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوي ... عن غيه وخطاب من لا يفهم
ومن العداوة ما ينالك نفعه ... ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وقوله :

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد ... إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

وقوله :

وما أنا منهم بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام
فأشبه الشيء منجذب إليه ... وأشبهنا بدنيانا الطغام
ولو صين الحفاظ بغير لب ... تجنب عتق صيقله الحسام
ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام

ولذيذ الحياة أنفس في النفـ ... ـس وأشهى من أن يمل وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل ... حياة ولكن الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب ... فإذا وليا عن المرء ولى

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا ... وأعيا دواء الموت كل طبيب
سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها ... منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتي تملك سالب ... وفارقها الماضي فراق سليب

وما منزل اللذات عنى بمنزل ... إذا لم أبجل عنده وأكرم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
أزالت بك الأيام عتبي كأنما ... بنوها لها ذنب وأنت لها عذر

ويشكلني لا تقبل المقام لأنه ... قد كان بالسكان ملء أعضائه
وإن أسلمه فداء أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

٣ ـ أبو فراس الحمدانى : (٣٢٠ — ٣٥٧ هـ)

أبو فراس هو الأمير الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبى ، أمير الشعراء ، وشاعر الأمراء ، وأحد صناديد تغلب ، وآخر من مثلت فى شعرهم حماسة العرب ، وهو ابن عم سيف الدولة بن حمدان ، وكان من أكبر قواده ، وأعزهم عليه ، وأقطعه مرة مدينة منبج مكافأة له على إحسانه فى شعر أنشده .

وقد حضر مع سيف الدولة أكثر وقائعه مع الروم فأسر مرتين وأدرك فى إحداها مثخنا بالجراح وحمل إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية ، وبقى بها أربع سنوات . نظم فى خلالها قصائد ومقطعات بليغة يستعطف بها سيف الدولة ورؤساء قومه سميت بالروميات ، حتى وقع الفداء بين المسلمين والروم . ومات سيف الدولة وخلفه ابنه أبو المعالى ابن أخت أبى فراس ، فأراد أبو فراس أن يضم إليه مدينة حمص ، فأهدله أبو المعالى وجرت بينهما موقعة قتل فيها أبو فراس ، وعمره لم يزد على ٣٧ سنة ، وذلك سنة ٣٥٧ هـ غريب وحده حتى المعركة .

وكان أبو فراس آخر أمير بدوى حاكى فى غزله ونسيبه وعتابه وحماسته فصحاء الأعراب وكان بذلك يمتاز عن شعراء أهل زمانه لمكانه من الملك والفتوة . وكان أبو الطيب يجله ويعترف بتقدمه فى الشعر ويهيبه ولا يجترى عليه فى مناضلة ولا مناقضة ، وكان شعره يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة ، ولم تجتمع هذه الخلال إلا لابن المعتز قبله ، وشعر أبى فراس أدخل فى الطبع من شعر ابن المعتز .

ومن شعره فى الشكوى :

أرانى وقومى فرقتنا مذاهب ... وإن جمعتنا فى الأصول مناسب
فأقصاهم أقصاهم من مساءتى ... وأقربهم مما كرهت الأقارب
غريب وأهلى حيث ما كان ناظرى ... وحيد وحولى من رجالى عصائب

نسيبك من ناسبت بالود قلبه وجارك من صافيته لا المصاقب
وأعظم أعداء الرجال ثقاتها وأهون من عاديته من تحارب
وما الذنب إلا العجز يركبه الفتى وما ذنبه إن حاربته المطالب
ومن كان غير السيف كافل رزقه فللذل منه لا محالة جانب

وقال فى طعنة أصابت خده :

لما رأت أثر السنان بخده ظلت تقابله بوجه عابس
خلف السنان به مواقع لثمها بئس الخلافة للمحب البائس
حسن الثناء بقبح ما صنع القنا يوم الطعان بصحن خد الفارس

وقال :

عرفت الشر لا للشـ ـر لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

أخذه من قول عمر رضى الله عنه وقد قيل له : فلان لا يعرف الشر ، فقال : ذلك أحرى أن يقع فيه . . وكتب إلى بعض مواليه من سجنه بالقسطنطينية :

ياليل ما أغفل عما بى حبائبى فيك وأحبابى
ياليل نام الناس عن موجع ناء على مضجعه نابى
هبت له ريح شآمية متت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات حبيب بها فهمتها من بين أصحابى

وقصيدته :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر

مشهورة ، وديوان شعره مشهور مطبوع .

وشعره مثال الشعر القديم متانة وأسلوبا إلا أن عليه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ، وقد تصرف فى أغلب فنون الشعر فأجاد ، إلا أن منزلته فى الفخر والاستعطاف

والعتاب أعلى ، ورومياته أجل وأدل على فضله ، وكان كثير الفخر بنسبه وحسبه ، عزوفا عن اللهو والشراب والمجون ، « وأشعاره كلها أوضاح وغرر وعقود فرائد ودرر »[١] وهو كما يقول الثعالبي : فرد دهره وشمس عصره ، أدبا وفضلا وكرما ونبلا ومجداً وبلاغة. وشعره مشهور سائر بين الجودة والحسن والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة مع رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا فى شعر ابن المعتز[٢]، وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ولا يجترئ على مجاراته .

وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس[٣] ، وشعره كله حسن لتناسبه وعذوبة مشارعه ، ولا سيما الروميات التي رمى بها هدف الإحسان وأصاب شاكلة الصواب[٤] ، وكان الصاحب يقول : بدىء الشعر بملك وختم بملك يعني امرأ القيس وأبا فراس[٥]. وقال الشهاب: قال الأدباء: بدىء الشعر بملك وختم بملك، والأول امرؤ القيس فإنه أول من هلهل الشعر وهذبه ونسج نسيبه ورقه والثاني ابن المعتز فإنه ممن أوتى جوامع الكلام نظما ونثرا وإنشاء وشعراً. والعامة تقول : كلام الملوك ملوك الكلام. وقيل أبو فراس والأول أقرب[٦] .

ويقول الثعالبي : وأبو فراس يعد أشعر من ابن المعتز عند أهل الصنعة[٧]. وهذا رأى ينفرد به الثعالبي وحده. والمنصفون من النقاد لا يوازنون بين ابن المعتز وفنونه وكثرة شعره ومعانيه وجودة صنعته ، وعلى الأخص تشبيهاته ، ولعذوبة أسلوبه وجمال ألفاظه وامتزاج الطبع بالصنعة وشتى ألوانها فى شعره ، ولا يعد أبو فراس ابن المعتز إلا فى متانة أسلوبه وجزالته غالبا ، ولعل الثعالبي إنما فضله من أجل الجزالة والمتانة وحدهما ، على أن أبا فراس

---

(١) ٢٢٤ ريحانة الألبا (٢) ٢٢ : ١ اليتيمة

(٣) ٢٧ : ١ اليتيمة

(٤) ٧٠ : ١ اليتيمة . وقد أسره الروم عام ٣٥١ هـ ، وفودى عام ٣٥٥ هـ وتوفى بعد ذلك بقليل عام ٣٥٧ هـ .

(٥) ١٧٥ : ١ زهر ، ٢٧ : ١ اليتيمة ، ٧٢ : ١ العمدة ، ص ٢ ديوان أبي فراس .

(٦) ٣٢٠ الريحانة . (٧) ١٧ : ١ اليتيمة .

قد ينزل بأسلوبه إلى درجة السوقية والضعف ، فالفخر وهو من الموضوعات التي تستدعي جزالة الأسلوب وقوته، نجد أبا فراس يقول فيه :

[illegible] على [illegible] نساء بني [illegible] يقلن [illegible] رأين وما [illegible]

ألست [illegible] ظلام [illegible] وأوسعهم لدى الأضياف جفنة

إلى آخر القصيدة [5]، حيث تجد أسلوبا بعيداً عن أساليب الفخر الجيدة ، وأبو فراس مقصر في الغزل عن رتبة ابن المعتز ، وليس له شيء من الخمريات ، وطرده جديد جداً وأهم ما له فيها أرجوزته :

ما العمر ما طالت به الدهور ... العمر ما تم به السرور

وليس لشعره في الرثاء ولا الحكمة والزهد قيمة تذكر ، وأقول : إن حكم الثعالبي هذا جائر وغير مقبول .

٤ - أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ)

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري التنوخي الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد ، صاحب التصانيف المشهورة والرسائل المأثورة ، وهو عربي صميم من تنوخ إحدى بطون قضاعة ، وبيته بيت علم وقضاء وفضل . ولد بمعرة النعمان من قرى الشام سنة ٣٦٣ هـ ، وجدر في الثالثة من عمره ، فغشي على عينيه بياض وذهبت اليسرى جملة . نشأ بين أهله بالمعرة فتعلم النحو والعربية على أبيه ، وغيره من أئمة زمانه ، وخرج آية في الذكاء وحدة الحفظ ، وكان يحفظ كل ما سمعه من مرة واحدة ، ولذلك كان يجلس في دكاكين الوراقين فيحفظ كل ما يسمعه ، وكان بطرابلس الشام دار كتب عظيمة موقوفة على أهل العلم ، فقرأ كثيراً منها ووعاه ، وهي دار آل عمار التي حرقها الصليبيون عند استيلائهم عليها [6] ، وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة .

---

(١) راجع ١٤٣ ديوان أبي فراس

دخل المعرى بغداد سنة ٣٩٨ هـ، وخرج منها في سنة ٣٩٩ هـ ، وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، وأقبل عليه السيد المرتضى إقبالاً عظيماً، ثم جفاه وأبعده عن مجلسه ، قيل لأنه جرى ذكر المتنبى بحضرته فغض منه . فقال أبو العلاء : لو لم يكن له إلا قوله :

لك يا منازل فى القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أواهل

لكفاه، فأمر بطرده ثم قال : أعلمتم ما يريد هذا الأعمى ؟ قالوا : لا . قال : يريد قوله فى هذه القصيدة :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

فتعجب الناس من كليهما .

ولما رجع المعرى إلى بلده أقام ولم يبرح منزله ونسك ، وسمى نفسه رهين المحبسين : محبس العمى ومحبس المنزل ، فوفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفة وكاتبه الوزراء والعلماء ، وبقى فى منزله مكبا على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعا بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عقار له إلى أن مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة ، وأوصى أن يكتب على قبره :

هـــذا جناه أبى على ... وما جنيت على أحد

وللمعرى كثير من الشعر يناقض بعضه بعضا فى حقيقة العالم والشرائع والمعبود ، فتارة يجارى المؤمنين ، وطوراً ينحرف إلى اعتقاد الملاحدة والدهريين ، وكان لا يذبح الحيوان ولا يأكل ذا روح ولا ما يخرج منه ، ويكتفى بالنبات والفاكهة ، وسئل فى ذلك فقال : أرحم الحيوان وإنى فقير . وللناس فيه أقوال كثيرة ، فبعضهم يقول : إنه كان لكلامه باطن وظاهر كالصوفية ويتأولون ما يوهم الزيغ منه ، وبعضهم يقول : إن أعداءه وحساده دسوا عليه كل هذه الأشعار بالضلالة ، وبعضهم يقول : إنه كان يرى رأى البراهمة ، وبعضهم يقول : إنه كان شاكا متحيرا .

وكان أبو العلاء أحكم من شعراء العرب بعد أبى الطيب ، وكان يولد معانيه فى التعريب والخيالات الدقيقة ، ويتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع البشرى وعادات الناس وأخلاقهم

ومكرهم وظلمهم ونظام الحكومات والقوانين . فهو من هذه الوجهة يمتاز عن المتنبي ولذلك يفضله متأدبو الفرنجة ومستعربوهم عليه ، وهو في هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم في اللغة أحد غيره فيها وله شعر كثير وعدة دواوين : منها ديوانه سقط الزند ، وفيه أشعاره الأدبية والمدائح ، ومنها ديوان في وصف الدرع ، ومنها ديوان لزوم مالا يلزم في جزأين كبيرين ، التزم فيه حرفا قبل الروي وضمنه « اعتقاداته وأفكاره » فتقيد بقيود حبست أفكاره وأنهكت معانيه ، فجاءت ألفاظه غريبة وأساليبه معقدة

ومن مختار شعره قوله في مرثيته المشهورة :

غير مجد في ملتي واعتقادي ... نوح باك ولا ترنم شاد

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ... ـس بصوت البشير في كل ناد

أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها المياد

صاح هذي قبورنا تملأ الر ... حب فأين القبور من عهد عاد

خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

سر إن استطعت في الهواء رويداً ... لا اختيالا على رفات العباد

رب لحد قد صار لحداً مراراً ... ضاحك من تزاحم الأضداد

ودفين على بقايا دفين ... في طويل الأزمان والآباد

فاسأل الفرقدين عمن أحسا ... من قبيل وآنسا من بلاد

كم أقاما على زوال نهار ... وأنارا لمدلج في سواد

تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب إلا من راغب في ازدياد

إن حزنا في ساعة الموت أضعا ... ف سرور في ساعة الميلاد

خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد

إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشاد

ومنها :

بان أمر الإله واختلف النا … س فداع إلى ضلال وهاد

والذى حارت البرية فيه … حيوان مستحدث من جماد

فاللبيب اللبيب من ليس يغترّ … بكون مصيره للفساد

ومن شعره فى اللزوميات قوله :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة … وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا … زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ومن قوله فى اللزوميات :

كم بودرت غادة كعوب … وعُمّرت أمها العجوز

أحرزها الوالدن خوفا … والقبر حرز لها حريز

يجوز أن تبطىء المنايا … والخلد فى الدهر لا يجوز

٤ — ابن الفارض (٥٧٦ — ٦٣٢ هـ) :

هو أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين عمر بن على بن المرشد بن على ، المشهور بابن الفارض ، أشعر الصوفية وأشهر من كلف بتكلف المحسنات البديعية ، وأصل آبائه من حماة. وولد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ هـ ، وطلب العلم والأدب وحفظ من اللغة ما قل أحد من أهل زمانه أن يحفظه ، ثم دخل فى طريقة الصوفية وأهل الزهد والمواجد فتقدم فيها وفتحت له أسرارها ، فنظمها ووصف مقاماتها بشعر جمع فيه بين صنعة عشاق الجناس والطباق ، وبين معانى القوم الرقاق ورموزهم الدقاق ، ومن العجب اجتماع الحالين ، وشتان ما بين الطريقين . وكان ابن الفارض جميل الهيئة حسن الشارة دقيق الإشارة ، ظريف المحضر محمود العشرة . جاور بمكة مدة ثم رجع مصر ، وبقى مرضى الطريقة حتى مات سنة ٦٣٢ هـ ، ودفن بسفح المقطم وضريحه مشهور مزور . . ومن شعره قصيدته التائية التى جمعت جميع مراتب القوم بطريقة الرمز والكناية عن مقامات التقرب والرضا ، بذكر أحوال العشاق وفتياتهم

وحانات شربهم ، وتبلغ هذه القصيدة نحو ستمائة بيت ، وأكثر شعره على منوالها بل أرق منها ، وأولها :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتي ... فياحبذا ذاك الشذا حين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها ... حديثة عهد من أهيل مودتي

ومن رقيق شعره قوله من قصيدة :

أعد ذكر من أهوى ولو بملام ... فإن أحاديث الحبيب مدامي
كأن عذولي بالوصال مبشري ... وإن كنت لم أطمع برد سلام
طريح جوى صب جريح جوارح ... قريح جفون بالدوام دوامي
صحيح عليل فاطلبوني من الضنا ... ففيها كما شاء النحول مقامي

٦ — ابن النبيه المصري (٥٥٩ – ٦١٩ هـ) :

هو كمال الدين علي بن محمد بن الحسن المصري ، أبلغ مداح بني أيوب وأغزلهم وأطبع عشاق البديع وأمثلهم .

وقد نشأ ابن النبيه في مصر وخدم في ديوان الإنشاء وتأدب بكبار رؤسائه مثل القاضي الفاضل وغيره .

وحين انتزع الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين ملك مصر من الملك المنصور ابن ابن أخيه اتصل ابن النبيه بخدمته ومدحه بعدة قصائد . ولما ملك الشام والمدينة وأرمينية وقسم البلاد بين أولاده ، أعطى ولده الملك الأشرف بلاد نصيبين وأطراف أرمينية فأكمل فتحها ، ولقب بشاه أرمن ، وجعل ابن النبيه في بطانته واتخذه كاتب إنشائه وحظى عنده ومدحه بقصائد قلما مدح بمثلها ملك من بني أيوب .

وقد سكن ابن النبيه نصيبين وبقي بها بقية حياته ، حتى مات سنة ٦١٩ هـ عن نحو ستين سنة .

وكان ابن النبيه ممن مشى تحت لواء القاضي الفاضل في سلوك الطريق البديعية في شعره

ونثره إلا أنه لم يكن يحاكيه فى الجناس ولا التورية ولايتقيد بهما كثيراً ، وأكثر ما كان يولع به فى شعره الطباق بأنواعه والاقتباس والتلميح والاستعارة البديعة . وكان يمتاز فوق هذا كله بالرقة والسهولة والانسجام وتصور المعانى البديعة والتشبيهات الجميلة . وكانت تصل به مبالغته فى وصف ممدوحيه إلى حد الإغراق المذموم .

وابن النبيه يعد من أرق أصحاب الغزليات والخمريات ، وقصائده ومقطعاته فى ذلك كانت علما لمن سلك هذه الطريقة بعده مثل التلعفرى والبهاء زهير وابن نباتة وغيرهم ، كما أنه يعد ممن يجيد المراثى .

ومن خمرياته المشوبة بالغزل قصيدته المشهورة التى مدح بها أمير المؤمنين الخليفة الناصر . ومنها :

باكر صبوحك أهنا العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره
فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبب ... يزرى من الثغر من تهوى جواهره
حمراء فى وجنة الساقى لها شبه ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكوّن من صبح ومن غسق ... فابيض خداه واسودت غدائره

ومن بديع قصائده قصيدته التى مدح بها الملك الأشرف والتى يقول فى أولها :

من سحر عينيك الأمان الأمان ... قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة ... لو لم تكن كحلاء كانت سنان
يزداد إذ أشكو له قسوة ... ولو شكوت الحب للصخر لان

وختم مدحها بقوله :

دمتم بنى أيوب فى نعمة ... تحوز فى الخلد حمد الزمان
وفله ما زالت بين ملوك الورى ... تعرفها غربا وعلى الضمان

والتعبير « على الضمان » عامى مبتذل .

ورثى ولداً لابن الخليفة الناصر بقصيدة تعد من عيون المراثى ، ومنها :

الناس للموت كخيـــل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعـــو إلى داره ... إلا من استصلح من ذى العباد
والمـــوت نقاد على كفه ... جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد أن ... يزول ذلك الظل بعد امتداد
لا تصلح الأرواح إلا إذا ... سرى إلى الأجساد هذا الفساد

ومنها :

دفنت فى الترب ولو أنصفوا ... ما كنت إلا فى صميم الفؤاد

تميم بن المعز الفاطمى (٣٣٧ ـ ٣٧٤ هـ) :

إذا كان تميم حرم مجد الخلافة فقد تبوأ عرش الأدب فكان شاعراً ماهراً لطيفا ظريفا، يشعر بخلجات نفسه ونبضات قلبه ، ويصف حياته اللاهية من حب وعشق وهيام ومجون كما وصف حياته الحزينة بعد عصر الشباب بما فيها من آلام وأشجان وذكريات ، ويمتاز تميم بصدق الشعور ورقة الشعر وسلاسته ، حتى كان فى ذلك أستاذ البها زهير بعده ، كان يمتاز بسمو الخيال وطرافة الشعر وجمال التشبيه وروعة التعبير ، ولا سيما فى أوصافه ، وله ديوان كبير طبع بدار الكتب المصرية ، وفى زهر الآداب كثير من المختارات من شعره [1] .

وقد كانت حياة تميم صورة لحياة ابن المعتز . فكلا الشاعرين نشأ فى أسرة الملك وبيت الخلافة ، وشاهد وذاق فى صدر شبابه شتى ألوان الترف والنعيم ، كما ذاق فى صدر رجولته وما يليه من باقى أيام حياته ألوان الألم والحسرة لحرمانه من الخلافة ومجدها ، وكان التشابه فى الحياة سببا للتشابه فى الروح والشاعرية والحياة الأدبية ، فقد كان تميم أشبه شىء

(١) ١٨٣ ـ ١٩٠ : ٣ زهر ، وفى اليتيمة « ٣٩٠ ـ ٣٩٧ : ١ » ووفيات الأعيان (١٧٢ ـ ١٧٣ : ١) كثير من شعره .

بابن المعتز فى قوة الشاعرية وخصبها ، وكان يعجب بشعر ابن المعتز ويحتذى حذوه ويترسم خطاه ، بل كان يعده إمامه فى الشعر ونظمه ، فكان كما يقول الحصرى : يحتذى مثال ابن المعتز ويقف فى التشبيهات بجانبه ويفرغ فيها على قالبه[1] . هذا مع اختلافهما فى الرأى والعقيدة، فقد كان ابن المعتز سنيا عباسيا يدعو للعباسيين ويرد على خصومهم من شيعة وسواهم، وكان تميم علويا فاطميا يتعصب لأسرته وللشيعة من الفاطميين ويذود عنهم ويناضل من ناوأهم بشعره ، ولو كان هذا الذى يرد عليه أستاذه فى الشاعرية وفى الفن والأدب ، ولو كان ابن المعتز نفسه .

وبين الشاعرين من مظاهر التشابه فى الشعر والشاعرية كثير من السمات :

(١) فقد كان تميم يأخذ كثيرا من معانى شعر ابن المعتز :

قال ابن المعتز :

وكأن الصبح لما ... لاح من تحت الثريا
ملك أقبل فى تا ... ج يفدى ويحيا

فقال الرأواء :

وكأن الهلال تحت الثريا ... ملك فوق رأسه إكليل

وقال تميم :

والبدر منتصف ما بين أنجمه ... فكأنه ملك ما بين موكبه

وقال ابن المعتز :

حتى إذا هزم الإصباح ليلهم ... بعسكر من جنود النور مبثوث

فقال تميم :

وانظر إلى الليل كالزنجى منهزما ... والصبح فى إثره يعدو بأشهبه

وقال ابن المعتز :

أما الظلام فحين رق قميصه ... وأرى بياض الفجر كالسيف الصدى

(١) ١٧٣ : ٣ زهر الآداب .

فقال تميم :

كأن عمود الصبح في غرر الدجى ... صحيفة سيف قد تصدى من المهج

المشبه به عند ابن المعتز وهو السيف الصدى هو نفس المشبه به عند تميم ، وكذلك المشبه عند الشاعرين واحد وهو الظلام المشوب بضياء الصباح ، وفي بيت ابن المعتز لطف جمال وحسن استعارة ، صورت المعنى بصورة أنست لها النفس وطرب بها الفؤاد وذلك قوله (رق قميصه) . ولتميم أيضاً حول هذا المعنى :

كأن سواد الليـــل والفجر طالع ... بقية لطخ الـكحل في الأعين الزرق

وقد أحسن في هذا البيت ما شاء له الإحسان كما يقول الثعالبي[1]

وقال ابن المعتز :

وهلال السماء طوق عروس ... بات يجلى على غلائل سود

وقال :

وكأن الهلال نصف سـوار ... والثريا كف تشير إليـــه

فيقول تميم :

وانجلى الغيم بعد ما أضحك الرو ... ض بكاء السماء فيه بوبل

عن هلال كصولجان نضار ... في سمـــاء كأنها جام ذبل

ويقول :

وانجلى الغيم عن هلال تبدى ... في يد الأفق مثـــل نصف سوار

قال الثعالبي : وأحسن بهذا البيت ما شاء[2]

وقال ابن المعتز في الثريا :

وقد لمعت حتـــى كأن بريقها ... قوارير فيها زئبق يترجرج

فيقول تميم :

كأن الثريا تحت حلكة ليلها ... [illegible] على الأرض مضطرب

---

(١) ٢٥٥ : ١ اليتيمة . (٢) ٣٩٠ : ١ اليتيمة .

خالف ابن المعتز فى المشبه به ، ولكنه لاحظ قصده من الشبه لصور الثريا بصورة مداهن

تضطرب على الأرض من حيث صورها ابن المعتز بقوارير فيها زئبق يترجرج [illegible]

(ب) وفى شعر تميم قصائد تأثر فيها بابن المعتز [illegible]

وذلك كما فى قصيدته [illegible] (٢)

رب صفراء علّلتنى بصفرا [illegible] وجنح الظلام مرخى الإزار (٢)

بين ماء وروضة وكروم [illegible] وروابٍ منيفة ومجارى

فهى تشبه فى روح الشاعرية والفن قصيدة ابن المعتز [illegible]

اسقنى الراح فى شباب النهار [illegible] وانف همى بالخندريس العقار

(٣) وقد عارض تميم بقصيدته [illegible]

إذا نزع الشوق حب القلوب [illegible]

قصيدة ابن المعتز فى الطالبيين [illegible]

الإمام [illegible] من [illegible] القربى [illegible]

(ج) وكان تميم يحتفل بالطبيعة ووصفها فى شعره كابن المعتز ، وله فى ذلك القدرة الفائقة

لم تتح إلا للقليل من الشعراء ، وله خمريات أجاد فيها إجادته فى الفخر والمدح وفى شكوى

الزمان مما اشتهر به جيمه ابن المعتز ، وقصيدة تميم فى المزوّاة [illegible]

[illegible] حلوية المرهفة والشفيف [illegible] منظومة (الخفيف [illegible]) [illegible]

تشبه فى سلاستها وعذوبتها وجمالها الفنى الرائع قصيدة ، ابن المعتز فى مدح المكتفى [illegible]

[illegible] لا ترمان القهوى فوق أغصان القدود [illegible]

(د) وهناك أبيات كثيرة تنسب للشاعرين وتوجد فى ديوانيهما ، وذلك مثل :

الا سقّيانى قهوة ذهبية فقد لبس الآفاق جنح الدجى دعج

كأن الثريا والظلام يحفها قلوص لجين قد أحاطت به سبج

فالبيتان فى ديوان ابن المعتز وفى ديوان تميم أيضا .

(١) [illegible] ٢٠٦
(٢) [illegible] ٢ ص [illegible]
(٣) [illegible] ٢ ص [illegible]

ومثل :

كأن البركة الغناء لما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الدحى مرآة قين قد انصقلت ومقبضها الخليج

فهما فى ديوان ابن المعتز[1] وهما من أبيات أخرى فى ديوان تميم فى وصف بركة الجيش وخليج بنى وائل ، وينسبان لأبى فراس[2] أيضا .

ابن سناء الملك (٥٥٠ ـ ٦٠٨ هـ) :

القاضى السعيد هبة الله ، كان من جلة الرؤساء والكتاب والشعراء والأدباء فى عصره ، كتب فى ديوان الإنشاء المصرى مدة ، وكان بارع الترسل والنظم ، وهو صاحب كتاب الوشحات الذى سماه (دار الطراز) ، واختصر كتاب الحيوان للجاحظ سماه روح البيان[3] وكان ابن سناء مولعا بالخمر والشراب وسوى ذلك من اللذات ، وله نظم فى شتى فنون الشعر تتجلى فيه السلاسة والطبع وحسن التصوير ، وكان كما يقول عن نفسه : « يجرى خلف ابن المعتز ويطلب مطالبه ويحتذى حذوه[4] » ، وكان معجبا بشعر ابن المعتز إلى حد بعيد ، وبلغ من إعجابه به أنه كان يحتج بشعر ابن المعتز ليدفع عن نفسه الخطأ والتقصير؛ فقد عاب القاضى الفاضل عليه قوله :

صاينى وهذا الحسن باق فرعا يعزل بيت الحسن بعد ويكنس

لقوله (يعزل ويكنس) ، فأجابه ابن سناء بأنه ما أوقعه فى الكنس إلا ابن المعتز فى قوله :

وقوامى مثل القناة من الخط وخدى من لحيتى مكنوس

والسيد القاضى يعلم أنى لم أزل أجرى خلف هذا الرجل وأتمثر وأطلب مطالبه فتتعسر على وتتعذر ، ووجدت هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز يقول :

(١) ص ٣٠٥ طبع بيروت . (٢) ٣٠٣ حلبة الكميت .
(٣) ص ٢٠ روضة الأدب فى طبقات شعر العرب لشهاب الدين الأنصارى المصرى .
(٤) ١٩ و ٢٠ ثمرات الأوراق لابن حجة .

وقفت بالروض أبكى فقد مشبهه حتى بكت بصوبى أعين الزهر
لو لم أعرها دموع العين تسفحه لرحمتى لا ستعارتها من المطر

وقال :

قدك غصن لا شك فيه كما وجهك شمس نهاره جسدك

فوجدت طبعى إلى هذا الأمر مائلا فنسجت على هذا الأسلوب وغلب على خاطرى مع على أننى المناوب ، وقد نظمت تلك اللفظة فى الأبيات تقليداً لابن المعتز[١] ، فأجاب القاضى الفاضل بأن ابن المعتز غير معصوم من الغلط ولا يتلد إلا فى الصواب فقط . وقد علم (الأخ) مما ذكره ابن رشيق فى العمدة من تهافت طبعه وتباين وصفه ومخالفة وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغثه ما لا تلبس عليه الثياب[٢] .

من أعلام الشعراء فى العصر العباسى :

تعددت منازع الشعر بحسب نزعاتهم ومواطنهم . فمن شعراء الغزنويين : الفردوسى وهو أشهر شعراء الفرس[٣] ، والأسدى[٤] ، والعسجدى ، والمنصرى ، والفروخى ، والمنصورى ، واليمينى[٥] ، وقد قامت الدولة الغزنوية فى الأفغان والبنجاب (٣٥١-٥٨٢) .

ومن الشعراء فى الدولة السامانية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) التى كانت عاصمتها بخارى : ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) ، ومن شعره قصيدته فى النفس وهى مشهورة .

ومن شعراء مصر : تميم بن المعز الفاطمى ، وعمارة اليمنى ، وابن النبيه ، وابن سناء الملك ، وابن الفارض ، وأبو حامد الأنطاكى .

---

(١) ١٨ وما بعدها المرجع .

(٢) ٢٠ : ١ ثمرات الأوراق ، وليس فى نسخة العمدة المطبوعة شىء من ذلك .

(٣) ظهر الشعر الفارسى . على يدى الرودجى (١٨٥ - ٢٣٦ هـ) وهو أبو الشعر الفارسى . ومن أعلامه عمر الخيام .

(٤) اخترع القصائد الجدلية التى يطلق عليها المناظرة .

(٥) هو مؤلف تاريخ محمود الغزنوى بالشعر الفارسى .

ومن الشعراء في ظلال دولة الأدارسة ، في مراكش وتونس (١٧٢ ـ ٣٨٢ هـ) : ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة ، وابن شرف القيرواني كذلك ، وابن هانئ ، الذي نشأ في المهدية ، ثم انتقل إلى الأندلس وأقام فيها ، وتوفي في برقة عام ٣٦٢ هـ .

ومن شعراء بغداد : الشريف الرضي م ٤٠٦ هـ ومهيار الديلمي م ٤٢٨ هـ وقد أسلم عام ٣٩٤ هـ على يدي الشريف الرضي .

ومن شعراء الشام : المتنبي والمعري وأبو فراس[1] والرفاء والوأواء والخالديان وغيرهم .

وهناك كتاب مشهورون جمعوا بين الكتابة والشعر ، ومن بينهم الصابي (٣٢٠ ـ ٣٨٤ هـ)[2] ، والبديع م ٣٩٨ هـ ، والخوارزمي م ٣٨٣ هـ ، والبستي م ٤٠٠ هـ ، والصاحب ابن عباد (٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ)[3] .

---

(١) ١ : ٢٧ ـ ١٠١ اليتيمة ، و ١ : ٢٢٤ ـ ٢٢٨ وفيات الأعيان .

(٢) ٢ : ٣١٨ اليتيمة . (٣) ٣ : ٢٦٩ وما بعدها اليتيمة .

بعض المؤثرات فى الشعر فى العصر العباسى الثانى

١ – عناية الملوك والأمراء بالشعر :

علمنا مما سبق أن الخلافة العباسية انقسمت إلى دول وممالك، استظل بظلها العالم الإسلامى فى العصر العباسى الثانى، وظهرت بذلك دول ناشئة، وقوميات مختلفة، بل قامت خلافة أموية قوية فى قرطبة عاصمة الأندلس، وصارت هذه الدول وعواصمها المختلفة مواطن يحيا فيها الشعر، ويعيش فى كنفها الشعراء، ويفد إليها من كل مكان الأدباء، وصار كل ملك وأمير وحاكم يتشبه بخلفاء بغداد فى رعاية حركة الأدب والشعر، وفى تقريب الأدباء والشعراء، بل صار لكل ملك شاعر أو شعراء، هم شعراؤه الرسميون يمدحونه فى مختلف المناسبات القومية والسياسية، ويشيدون بدولته وانتصاراته وأعماله. وقد ازدهر الشعر فى العصر العباسى الثانى بتأثير هذه الرعاية، وتلك العناية ازدهاراً كبيراً، وأظهر مثل لذلك هو المتنبى الذى عاش فى عاصمة سيف الدولة الحمدانى وفى رعايته تسع سنوات، كما عاش فى مصر يستظل برعاية حاكمها كافور، ثم قصد عضد الدولة ومدحه. وكذلك كان يفعل كثير من الملوك، يقربون إليهم كبار الشعراء، ويتخذون من شعرهم أداة الدعاية لعروشهم وسلطانهم، مما أثر فى الحركة الأدبية والثقافية عامة، وفى الشعر على وجه الخصوص أكبر التأثير.

وقد ارتفعت منزلة الشعراء عند ملوك البويهيين والفاطميين والأيوبيين والحمدانيين وسواهم أيما ارتفاع. واستمرت النهضة الشعرية فى سيرها فى ظلال الحكم السلجوقى، وإن كانت رعاية الحكام للشعر والشعراء قلت عن ذى قبل، لاستعجام الحكام والألسنة، وكثرة الاضطرابات والفتن، وانصراف الملوك إلى السياسة أكثر من انصرافهم إلى الأدب.

٢ – مجالس الشعر والأدب :

وقد انتشرت مجالس الشعر والأدب فى كل مكان، فى قصور الملوك والأمراء والحكام

والوزراء والولاة ، وفى بيوت الأدباء والعلماء والشعراء ، وفى الرياض والحدائق والمنتزهات وفى حلقات العلم وحجر الدراسة ، وفى كل مكان عام أو خاص ، كانت تقام مجالس تناقش مسائل الأدب ، وتنشد فيها روائع الشعر ، ويتحدث المشتركون فيها فى النقد والموازنة وتفضيل شاعر، أو أديب على أديب، مما أثر فى ازدهار الشعر فى هذا العصر ازدهارا لم يصل إلى مداه فى عصر من العصور .

٣ ـ النقد والنقاد :

١ ـ نشأ النقد منذ نشأ الأدب والشعر ، يدور على ألسنة الفصحاء والبلغاء من الشعراء ومن متذوقى الشعر ، فطرة وطبعا ، وسليقة وغريزة ، فى العصر الجاهلى . ثم ارتقى النقد برقى الثقافة فى عصر صدر الإسلام ، فأصبحت أحكامه الفطرية العامة مشوبة بشىء من التعليل والتوجيه ، كما نرى فى نقد أبى بكر وعمر وعلى بن أبى طالب وسواهم للشعر والشعراء .

وفى العصر الأموى أخذ النقد فى النمو وخاصة بعد أن نشأت طبقات من الأدباء والمؤدبين، تأثرت بالثقافة العربية الإسلامية ، التى أمدهم بها الإسلام ، وأثرت فيهم بلاغة القرآن والحديث النبوى الشريف ، ثم ازداد نمو حركة النقد بتأثير الرواة وعلماء الأدب الذين حفل بهم القرن الثانى والثالث الهجرى ومن بينهم : أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية ، والمفضل الضبى ، وأبو زيد الأنصارى ، وخلف بن الأحمر ويونس بن حبيب والأصمعى وسواهم .

وشارك فى تطوير حركة النقد العلماء والأدباء والشعراء ، وأولو الذوق العربى الخالص، ممن أثرت فيهم بيئة الأدب العربى وثقافاته ، وامتلاء أذهانهم بالجيد المختار من روائعه، بل شارك فى حركة النقد ونموها الخلفاء والحكام العرب الذين تعددت ثقافاتهم، وقويت ملكاتهم العربية والأدبية ، وكان لطبقات الكتاب الذين نشأوا منذ أنشىء ديوان الرسائل فى خلافة بنى أمية أثر كبير فى تنمية حركة النقد .

٢ ـ وفى القرن الثالث ظهرت جماعات كبيرة من الأدباء الذين عرضوا للنقد، أو تناولوا فى تآليفهم بعض مسائله ، ومن بين هؤلاء : الأصمعى أبو سعيد عبد الملك بن قريب

المتوفى عام ٢١٦ هـ ، فى كتابه « فحولة الشعراء »[1]، وابن سلام الجمحى المتوفى عام٢٣١هـ فى كتابه «طبقات الشعراء»، والجاحظ أبو عمرو عثمان بن بحر المتوفى عام٢٥٥هـ ، فى كتابيه: الحيوان ، والبيان والتبيين ، وابن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦ هـ فى كتابه : «الشعر والشعراء»، وإبراهيم بن المدبر المتوفى عام٢٨١هـ ، فى كتابه « الرسالة العذراء» ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى عام ٢٨٥ هـ فى كتابه « الكامل » ، وأبو ثعلب المتوفى عام ٢٩١هـ فى كتابه « قواعد الشعر »[2] ، وعبد الله بن المعتز الخليفة المشهور فى كتابه النفيس « البديع »[3] الذى يعد أول مؤلف فى البديع ، بل فى البلاغة العربية .

٣ ـ وجاء القرن الرابع ، وكان من أشهر الذين وقفوا أنفسهم على الكتابة فيه فى النقد قدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ مؤلف كتابى : « نقد الشعر »، و « نقد النثر »[4] . . ويعد هذان الكتابان أظهر المؤلفات فى النقد ، وبهما تميز النقد كعلم ، وتميزت مباحثه ومسائله عن مسائل الأدب والرواية ، وقد تحدث فيهما قدامة عن الموازين التى يوزن بها الشعر والنثر[4] ، بتفصيل . . وحين أراد أن يضع مقاييس لنقد الشعر، تحدث عن عناصره من المعنى واللفظ والوزن والقافية ، وتحدث عما يكسب هذه العناصر جودة ، وعما يكسبها رداءة وقبحا .. وكان عمل قدامة خطوة طيبة فى تميز النقد وظهوره كعلم من علوم الأدب ، وفى تميز بحوثه ومناهجه ومسائله .

٤ ـ وجاء العصر العباسى الثانى بعد انقضاء ثلث القرن من القرن الرابع ونما النقد ، وازدهرت حركته بتأثير رقى الثقافة ، وازدهار المعرفة ، ونمو الأذواق ، وطول التمرس بالأدب العربى ومأثوراته وثقافاته ، وباللغة العربية وخصائصها ، وبتأثير الثقافات الأجنبية

---

(١) راجع هذا الكتاب بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى وطه الزينى. طبع المطبعة المنيرية عام ١٩٥٣ ـ القاهرة .

(٢) راجع هذا الكتاب بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى طبع مصطفى الحلبى عام ١٩٤٩ ـ القاهرة .

(٣) راجع هذا الكتاب بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى طبع مصطفى الحلبى عام ١٩٤٤ القاهرة .

(٤) راجع ما كتبته عن قدامة وكتابيه ، وتحقيق نسبتهما إلى قدامة أو لغيره فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر العباسى » طبع القاهرة ١٩٥٣ .

الوافدة من هندية وفارسية ويونانية وغيرها . وكذلك ظهرت فى هـذا القرن أمهات كتب النقد والموازنة فى الأدب العربى ، ومن بينها[1] :

ا ــ الموازنة بين الطائيين ــ أبى تمام والبحترى ــ للآمدى البصرى المتوفى عام ٣٧١ هـ .

ب ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى المتوفى عام ٣٦٦ هـ .

جـ ــ كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى عام ٣٩٥ هـ .

٥ ــ وجاء القرن الخامس فرأينا حركة النقد تزدهر أيضا ازدهاراً فيه ، وانفصلت بحوث البلاغة عن مباحث النقد بعد أن كانت مسائل النقد والبلاغة يتداخل بعضها فى بعض ، ومن أمهات كتب النقد التى ظهرت فى هذا القرن :

ا ــ إعجاز القرآن للإمام الباقلانى المتوفى عام ٤٠٣ هـ ، وتختلط فيه مباحث النقد بالبلاغة لأن علم البلاغة لم يكن قد انفصل عن النقد .

ب ــ سر الفصاحة للأمير بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى عام ٤٦٦ هـ .

جـ ــ العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى المتوفى عام ٤٦٠ هـ .

د ــ ثم ظهر كتابا : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ هـ ، وقد فلسف عبد القاهر فيهما أصول علم النقد التى أصبحت هى علم البلاغة العربية ، وإن كان قد سبق عبد القاهر بعض العلماء الذين تناولوا بعض مسائله .

٦ ــ وفى القرن الخامس والسادس استمرت حركة النقد قوية مزدهرة ، وكان خاتمة المؤلفات القيمة فى النقد كتاب « المثل السائر » لابن الأثير المتوفى عام ٦٣٧ هـ .

* * *

وقد أثرت حركة النقد وازدهارها فى العصر العباسى الثانى فى الشعر تأثيراً كبيراً فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه وأخيلته وأوزانه وقوافيه ، وصار الشعراء يتخوفون من تعقب النقاد لهم ، فيطيلون النظر فى أعطاف شعرهم ويمعنون فى معاودة التأمل لقصائدهم ، وينقدون

(١) راجع ما كتبته عن النقد والنقاد فى القرن الرابع فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر العباسى » ، وفى مقدمتى لكتاب « الوساطة » .

أنفسهم قبل أن يتقدم النقاد ، وصارت القصيدة في هذا العصر من حيث شكلها ومضمونها تمثل وحدة فكرية وعضوية ملحوظة ، وتمثل ثقافة واسعة مستقصية ، وتمثل شخصية الشاعر ، وملامح البيئة أدق تمثيل .

وهكذا نجد من آثار حركة النقد في الشعر العباسي ما نراه فيه من رقة العبارة ، وشدة اختيار الألفاظ ، والتفنن في المعاني[2] .

وكان للثقافات الأجنبية من فارسية ويونانية وهندية أثر في النقد والشعر في العصر العصر العباسي الثاني ، وللثقافة الفارسية من بين هذه الثقافات الأثر الكبير في الشعر ، يقول نيكلسون : « لم يدخل الفرس على الشعر العباسي مثل تلك الفخامة التي كانت لأساليبه في الشعر القديم ، ولكنهم أدخلوا عليه الخيال الحي اللطيف ، والتعبير الدقيق أو عمق الإحساس ، وأمدوه بكثير من الآراء والأفكار » .

[illegible]

(١) راجع نيكلسون ص ٢٩٠ .

[illegible]

صور من الأدب الأندلسى

(١) أعلام من شعراء الأندلس

ابن خفاجة الأندلسى (٤٤٠ ـ ٥٣٣) :

وهب ابن خفاجة نفسه للجمال ، وفكره للخيال والطبيعة التى تنقل بين رباها وخمائلها ، وجال بين مروجها وجداولها ، ووقف عند كل مشهد من مشاهد الجمال فيها ، يتأنق فى وصفه ونظم الشعر فيه .

فهو شاعر الطبيعة الذى صور جمالها فى صور مختلفة رائعة الأساليب. وكان ينتقى الأساليب الجميلة والألوان الفاتنة ويدبجها بزخرف البديع ويوشيها بألوان المجاز والتشبيه ، « وكان يوازن بألوان المجاز والتشبيه ، « وكان يوازن بأبى تمام فى شعره ومذهبه ، وبابن العميد أو الهمذانى فى النثر والكتابة »[1] ، وهو يكثر من ألوان التصنيع الحسية فى شعره ويظهر فيها مهارة واسعة ويمزج بينها مزجا دقيقا . وكان يكثر من الرسوم والصور فى شعره حتى قال ابن خلدون : « كان شيوخنا يعيبون شعر ابن خفاجة لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد[2] » يريد كثرة الصور وما يطوى فيها من خيالات معقدة ، ويقول المقرى فيه : « أديب الأندلس وشاعرها وأوحد الناس فى وصف الأنهار والأزهار والرياض والبساتين وكان يلقب صنوبرى الأندلس[3] وقصيدته :

أما والتفات الروض عن أزرق النهر ... وإشراق جيد الغصن فى حلية الزهر

قصيدة حافلة ويتجلى فيها مذهبه وصنعته وروحه .

وابن خفاجة يشبه ابن المعتز فى صناعة الشعر وفى كثرة الصور الشعرية فى البيت وفى الإكثار من التشبيه وفى العناية بأوصاف الطبيعة، وفى كثير من خصائص الشاعرية وسماتها الفنية ، مما هو معروف للباحثين والنقاد .

---

(١) ١٩١ بلاغة العرب فى الأندلس . (٢) ٥٧١ مقدمة ابن خلدون .

(٣) ٣٨٧ و ٣٨٨ : ٥ نفح الطيب نشر فريد رفاعى .

ابن حمديس الصقلي (٤٤٧ ـ ٥٢٧ هـ) :

هو عبد الجبار بن حمديس ولد بجزيرة صقلية والمسلمون يحكمونها ، وتلقى ثقافته في معاهدها وحلقاتها وعلى أيدى أساتذتها ، وشاء الله أن تسقط جزيرة صقلية في أيدى النرماندين ، وأن يدمروا كل معالم الحضارة العربية الإسلامية فيها ، ويذيقوا أهلها من العرب والمسلمين الوبال والنكال فهاجر ابن حمديس إلى إشبيلية بالأندلس عام ٤٧١ هـ ، وقد أثرت الفظائع التي ارتكبها النورماندیون في صقلية في نفس الشاعر ، فكان شعره حزينا باكيا شاكيا : .

وعاش ابن حمديس في حاشية المعتمد بن عباد ، وصار من جملة شعرائه ، وتبعه في المنفى .

اتسع عقل ابن حمديس لشتى الثقافات ، وزادت تجاربه في الحياة وخبرته بها .. وكانت محنته ذات أثر بعيد في نفسه وشعره .

أكثر شعره في الشكوى والبكاء والحنين ، حتى وهو يصف الخمر ويتحدث عن مجالسها . وتظهر عبقريته في شعر الحكمة ووصف عبر الزمان ونوائبه والحديث عن المجتمع ونقد حياة الناس ، وفي الزهد ، ويشتهر بجودة الوصف وروعته . وله في المدح روائع ودرر .

وحين يتغزل يخاطب حبيبته بما في نفسه من ألم ، وما يلاقيه في سبيلها من شماتة الأعداء ، وما يتمناه من الصبر في سبيل ذلك ، ويستحلفها بما لها من الدلال أن تكف عن أسر قلبه ، ويستعطفها ويدل في آن واحد ، فيقول :

عذبت رقة قلبي ظالما بقسوة قلبك
وسمت جسمى سقما وما شفيت بطبك
أسخط كل عدو رضيته لحبك
من لى بصبر جميل على ريانة صحبك
فيا تشوقَ بعدى إلى تنسم قربك
ووجنة غمستها في الورد صنعة ربك

لقد جنحت لسلمى كما جنحت لحربك
فبالدلال الذى زاد فى ملاحة عجبك
شكى من الأسر قلبا عليه طابع حبك
ونعمبى بعتبى فقد شقيت بعتبك

وهو أيضاً يمدح على الأسلوب المعروف من حيث البدء بالنسيب ، وقد يطيل فى ذلك وربما لم يكن له ميزة فى غير الأسلوب ، وربما كان مدحه كغزله ، ولكنه مدح جميل على الرغم مما يشعر به القارىء من الثرثرة ، غير أن المعانى تنهال عليه انهيالا فيعذب الكلام. كما قال :

غيّرته غير الدهر فشاب ورمته كل خود باجتناب
فغدا عند الغوانى ساقطا كسقوط الصفر من عد الحساب
وتولى عنه شيطان الصبا إذ رماه الشيب رجما بشهاب
وكأن الشعر منه سعف يلتظى فيه شواظ ذو التهاب
أيها المغرى بتأنيب شج سلط الوجد عليه هل أناب
هام لاحمت من النيد بمن حبها عذب وإن كان عذاب
لت لا لت عميد قلبه عن سماع اللوم فيها ذو انقلاب
والهوى باق مع المرء إذا كان من عصر الصبا عنه ذهاب
بأبى من أقبلت فى صورة ليس للتائب عنها من متاب
كل حسن كامل فى خلقها ليتها تنجو من العين بباب
فالقوام الغصن والردف النقا والأقاح الثغر والطل الرضاب
ظبية فى العقد إما التفتت ومهاة حين ترنو فى النقاب

(٢) مجالس الأدب

كانت مجالس الأدب فى الأندلس دائمة عديدة، فهى من أكبر مظاهر الفكر والثقافة، ومن أهم مشاهد الجمال والذوق، تصور الحياة العقلية والاجتماعية تصويراً دقيقاً عميقاً، وتدل على حسن الذوق، ورقة الطبع، وصفاء الموهبة .

وكانت هذه المجالس تقام فى قصور الخلفاء والأمراء، والوزراء والولاة والحكام والكتاب والعلماء . .. إذ كان أهل الأندلس نابغين فى فنون الأدب والشعر، بارعين فيها براعة تشهد لهم بها جلة الناس . وكانت مجالسهم تحكى رفيع أذواقهم، وجليل مواهبهم، وللفكاهة فيها حظ، وللمرح من نفوسهم نصيب ؛ وكان الشعراء كثيرا ما تحملهم هذه المجتمعات وما فيها على الارتجال والابتكار . . . وكان للشعر فى هذه المجالس الحظ الأوفى والقدح المعلّى .

وفى شتى مصادر الأدب الأندلسى روايات كثيرة عن هذه المجالس وأثرها فى ازدهار الأدب ونهضة الشعر .

ومن أمثلة هذه المجالس ما روى من أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بن أبى عامر وعنده صاعد اللغوى البغدادى، فأنشده وهو بالموضع المعروف بالعامرية :

فالعامرية تزهى على جميع المبانى
وأنت فيها كسيف قد حل فى غمدان

فقام صاعد وكان مناقضا له . فقال : أسعد الله الحاجب الأجل ؛ ومكن سلطانه ، هذا الشعر الذى قاله قد أعده ، وأنا أقول أحسن منه ارتجالا . فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دعواك ، فجعل يقول فى غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمانى
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

إلى أن قال :

انظر إلى النهر فيها ينساب كالثعبان
والطير يخطب شكراً على ذُرا الأغصان
والقضب تلتف سكراً بميس القضبان
والروض يفتر زهواً عن مبسم الأقحوان
والنرجس الغض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
فدم مدى الدهر فيها في غبطة وأمان »

ومن مجالس الأدب ما روى أن المعتمد بن عباد جلس يوما للشرب ، وبين يديه ساقية جميلة قد تقابل وجهها بشهاب الكأس ، واتفق أن لمع البرق فارتاعت ، فقال بديها :

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

ثم قال لعبد الجليل بن وهبون : أجز ، فقال :

ولن ترى أعجب من آنس من مثل ما يمسك يرتاع

ويروى أن صاعد الأندلسي كان بين يدي المنصور يوما فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها ، فقال صاعد مرتجلا :

أتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

فسر المنصور أيما سرور .

(٣) النقد والنقاد

— ١ —

ذاع النقد فى الأندلس لسمو الأذواق ، واستحكام الثقافة العربية والأدبية ، ولوضوح المواهب والملكات ، وإن كانت حركة النقد لم تبلغ فى الأندلس من القوة والازدهار مابلغته فى الشرق وكان من أشهر الذين كتبوا حول النقد: ابن عبد ربه الأندلسى وابن شهيد صاحب رسالة « التوابع والزوابع » التى كتبها أبو عامر بن شهيد إلى صديقه ابن حزم .

ورسالة « التوابع والزوابع » هى عرض صورة عامة للأدب والأدباء ، ونقد شعرهم نقداً بيانيا مبنيا على مايعطيه اللفظ والديباجة من الجمال ، وما توحيه معانى هذه الألفاظ من الروعة والإعجاب .

ورسالة « التوابع » تحاكى « رسالة الغفران » للمعرى ، ولعل ابن شهيد تأثر فيها بالمعرى ورسالة غفرانه .

ومن آراء ابن شهيد فى النقد قوله :

« إقامة البيان لايقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع من وزنه من هذين ، ومقدار طبع الإنسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه . فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانياً يطلع صور الكلام والمعانى فى أجل هيآتها . . . ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه والغالب عليه جسمه ، كان ما يطلع فى تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى فى التمام والكمال وحسن الرونق ، فمن كانت نفسه المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن النظام صور رائقة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه ، وهذا هو الغريب : أن يتركب الحسن من غير الحسن . كقول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عال

فهذه الديباجة إذا تطلب لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى » .

ويقول ضيف فى كتابه[1] : « بلاغة العرب فى الأندلس » معلقا على كلام ابن شهيد :
إن هذا شىء طريف فى النقد الأدبى عند العرب ، وكأنه يشير إلى مذهب النقاد الذين يأخذون صور الكتاب من كتاباتهم ، ويقولون : إن البلاغة من نثر ونظم تدل على نفوس البلغاء . وفى هذا الكلام إشارة إلى مذهب علمى فى النقد : وهو الأعضاء « ووظائفها » واتصالها بالإدراك ، وذلك وإن كان ليس مبنياً على تجارب علمية أو على دراسة فنية فهى أفكار جالت فى نفسه تدل على قوة الفكر لديه . وهو يميل إلى أن الافتنان فى الكلام ، أو البراعة فى النظم والنثر ، أو ما يسمونه بالبلاغة ، نوع من الإلهام ، أو شىء من النبيات أو سر من أسرار النفوس . وهذه الآراء هى أصول مذاهب النقد الأدبى ، وأصول معرفة الكلام البليغ كما قال .

« وقال الجاحظ : إنا إذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى الشهر . ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف درهم . ولم يقل هذا إلا وقد ألف كتاب « البيان » ، ولو كشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج ، لأرى كيف وضع الكلام وتنزل البيان ، وكيف التوصل إلى حسن الابتداء ، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع بأنها معانى الصنعة ، ومواضع مفاتيح الطريقة » . . فمذهبه فى النقد وسط ، لأنه يرى أن البلاغة شىء روحانى كما قال : « فمن كانت نفسه من أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطالع صور الكلام والمعانى فى أجمل هيئاتها . إلخ » .

ويقول ابن شهيد : إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام . فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت للناظر وطابت المخابر ، وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمست قوانين من الكلام ، من طلب بها أدرك ، ومن تنكب عنها قصر ، وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ، فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب عن قبيحه .

(١) •• بلاغة العرب فى الأندلس .

وكان ابن شهيد يميل إلى القول بأن الأذواق تتفاوت وتختلف[١]. وهذه قاعدة عامة فى كل الفنون، بل هذا أساس الفنون جميعا. وقال ابن شهيد : وربما لاذ بنا المتطاعم باسم الشعر ممن يخبط العامة والخاصة بسؤاله ، فتصادف منه حالة لاتتسع له فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له، وربما أنشدناه بأبيات يتمدد بها البقالين و شايخ القصابين، فإذا قارعت أسماعهم ومازجت أفهامهم وانحلت عقدهم، جل شخص ذلك البائس فى عيونهم، فما شئت إذ ذاك من خبز وميرة يحشى بها كمه ،ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ومن كوز نقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسدبها حلقومه.. فلا يكاد البائس يتمم ذلك حتى يأتينا ، فيكب على أيدينا يقبلها وأطرافنا يمسحها ، راغبا أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ماعندها له ، وبادرت برفدها إليه ، وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه ، لأن هذا الذى يريد منا هو تعليمه البيان ، وبين فكره وبينه حجاب ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان .

— ٢ —

ولقد فطر الأندلسيون بحكم طبيعتهم وبيئتهم على دقة الإحساس ورقة الشعور ، وسلامة الذوق ، فكان لهم بصر أى بصر بنقد الشعر والأدب ، وتذوق الفن والإحساس المرهف بدقائقه ، وكيف لا وقد وَهبتهم الطبيعة من رقتها ودقتها ما أرهف آذانهم وجلا بصائرهم ، ورقق أذواقهم. وحسبك أن تقرأ مثل كتاب: «الذخيرة» لابن بسام الأندلسى، لترى كيف يوازن الرجل بين معنى ومعنى ، وكيف يرجع معنى إلى معنى، وكيف ينقد ويحلل ويستطرد ؟، فى دقة وإحاطة ، وبصر نافذ ، وذوق حساس .

— ٣ —

وهذه أمثلة تريك بعض ما كان لهم فى هذا المجال :

١ ــ تباحث المعتمد بن عباد مرة مع جلسائه فى بيت المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

(١) ص ٥٦ المرجع السابق .

فقال ما قصر فى مقابلة كل لفظة بضدها ، إلا أن فيه نقداً خفيا ، ففكروا فيه ، فلما أطالوا التفكير، قالوا: ماوقفنا على شيء ، فقال: الليل لايطابق إلا بالنهار، ولايطابق بالصبح، لأن الليل كلى والصبح جزئى ، فتعجبوا من حسن نقده .

٢ ـ ولما بلغته قصيدة ابن عمار التى كتبها إليه من سجنه يستعطفه كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يزرى على قوله فى هذه القصيدة :

وبين ضلوعى من هواك تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلح

ويقول: ما أراد بهذا المعنى ؟ فقال المعتمد : لئن سلبه الله المروءة والوفاء ماأعدمه الفطنة والذكاء ، إنما نظر إلى بيت الهذلى من طرف خفى :

وإذا المنية أنشبت أظفارهــا ألفيت كل تميمة لا تنفع

٣ ـ قال القاضى منذر بن سعيد البلوطى : أتيت مجلس أبى جعفر بن النحاس بمصر ، وهو يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون حيث يقول :

خليلى هــل بالشام عين حزينة تبكى على نجــد لعلى أعينها ؟

قد اسلمها الباكون إلا حمــامة مطوقة باتت وبات قرينها

فقلت له : يا أبا جعفر ماذا ـ أعزك الله ـ باتا يصنعان ؟ ، فقال لى : وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقلت له : (بانت وبان قرينها) فسكت ، وما زال يستثقلنى بعد ذلك حتى منعنى كتاب العين .

العرب فى الأندلس

تمهيد :

— ١ —

حكم العرب الأندلس طيلة ثمانية قرون نشروا فيها لغتهم ودينهم ، وأذاعوا الثقافة الإسلامية العربية فى أرجائها . وبنوا فى كل قرية من قراها ، ومدينة من مدنها ، المساجد والمدارس على مختلف مراحلها ، وأقاموا فيها المدنية والحضارة سوقا لا تبور ، وجعلوا من مدن الأندلس مراكز للمعارف والعلوم والآداب يحج إليها الناس من كل مكان ، واحتلت قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغرناطة وسواها فى العالم القديم منزلة تضارع منزلة بغداد ودمشق والفسطاط والقاهرة .

— ٢ —

وشهادات المستشرقين المنصفين تدل على تاريخ الأندلس العظيم ، وعلى ماضى العرب العريق فى هذه الجزيرة النائية ، جاء فى صحيفة جامعة – أدنبرج : « نحن مدينون للعرب كثيراً فإنهم الحلقة التى وصلت مدنية أوروبا قديما بمدنيتها حديثا . وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف ، واستفاقوا من نومهم العميق فى العصور المظلمة ، ونحن مدينون لهم بترقية العلوم والفنون المختلفة النافعة ، والكثير من الصناعات والمخترعات التى نفعت أوروبا علماً ومدنية » .

ويقول استانلى بول « بقيت إسبانيا قرونا فى حكم العرب ، وهى مركز المدنية ومنبع العلوم والفنون ، ومثابة العلماء والطلاب ، ومصباح الهداية والنور ، وقد بقيت حضارة العرب حتى بعد خروجهم من إسبانيا لامعة وضاءة » .

وكانت عوامل تأسيس الحضارة ممكنة للعرب فى الأندلس ، فمن امتزاج العناصر ، وتوحد الأجناس ، واختلاط الدماء ، إلى جمال البيئة وجودتها واعتدال الجو فيها ، وورنق الطبيعة وتبرجها وسحرها ، إلى تأثير الإسلام واللغة والثقافة العربية فى نفوس المجتمع الجديد فى الأندلس لذلك رأينا العرب بعد قليل من مقامهم هناك يأخذون فى بناء المدن والقصور وإنشاء المدارس والجامعات والمكتبات ، وتشجيع العلوم والثقافات والفنون والآداب .

بيئة الأندلس :

ولقد وهب الله بيئة الأندلس[1] كل مظاهر الجمال ومشاهده ، فمن أنهار جارية ، إلى مراع ومزروعات واسعة ، إلى جـــو جميل ساحر ، إلى طبيعة فاتنة آسرة ، إلى مظاهر تفتن العقول وتأسر الألباب ، ففى رباها المشرقة ، وأوديتها المنبسطة ، وأنهارها الدافقة ، ومغانيها الباسمة ، وآفاقها الحالمة ، وأجوائها الناسمة ، وخمائلها الجميلة ، وأدواحها الظليلة ، وفى رفيف المروج كالأهداب على عيونها العذاب ، والتفاف أنهارها كالأساور على معاصم الهضاب ، فى كل ذلك وفى بعض ذلك كما يقول بعض الباحثين ما يفتح مغالق النفس . . ويبعث فيها البهجة والأنس ، ويشيع فيها بسمة الأمل ، ويقظة الشعور . وفى كل ذلك وفى بعض ذلك ما يستوقف الشاعر فيقول له : أنا الخيال والجمـــال ، والسحر والإلهام ، فاستوحنى ، وما يمسك بغير الشاعر فيقول له : أنا الشعر فـكن شاعراً .

لهذا لا نعجب إذا سمعنا أن بعض هذه البلاد قـــد عرف جميع أهلها بالشعر يقولونه ويتغنون به .

إن عظمة الطبيعة هناك أنطقت الرجال والنساء على حد سواء ببليغ الـكلام وروائع القصيد . كانوا إذا هب نسيم أو دارت كأس فى كف ظبي رخيم ، أو ابتسم عن شماع ثغر نهر ، أو ترقرق بطل جفن زهر ، أو خفق بارق ، أو ألم طيف طارق : أرسلوا الشعر بين رقة الهواء ، وجزالة العروبة ، فجاء كما قال شاعرهم ابن وهبون :

رقيق كما غنت حمامة أيـكة وجزل كما شق الهواء عقاب

الفتح العربى للأندلس :

وفى عام ٩٢ هـ ـ ٧١١ م فى حكم الخليفة الأموى الـكبير الوليد بن عبد الملك فتح

---

(١) الأندلس ـ كما سماها العرب . أو إيبيريا كما سماها اليونان ، أو أسبانيا كما سماها الرومان ـ شبه جزيرة فى الجنوب الغربى من أوربا ، لايفصلها عن إفريقيا سوى مضيق جبل طارق ، وقد أطلق عليها العرب اسم (الجزيرة) ، كما أطلقوه على جزيرة العرب . والرومان هم الذين أطلقوا على شبه الجزيرة اسم هسبانيا . أما اسم أندلس فهو مأخوذ من مملـكة فندلس التى أسسها الفندال فيها .

موسى بن نصير وطـارق بن زياد الأندلس ، وضماها إلى بلاد الخلافة الإسلامية . وإلى حكم العرب وسلطانهم .

ودخل العرب الأندلس فاتحين ، وهاجروا إليها مستوطنين ، فنزل بها بعد الفتح من قبائل العرب ، وسلالاتهم جماعات كثيرة من العدنانيين ، وتبعهم بطون من اليمانيين .

واتصل العرب بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم ، ونشروا بينهم لغتهم ودينهم ، ونشأت ناشئة جديدة ورثت صفات العرب من غيرة وكرامة ، وصفات الأسبانيين القدماء من دقة إدراك وسعة خيال .

وقد مال أهل البادية من العرب المهاجرين إلى بوادى الأندلس ، فخالطوا أهلها ، وصاهروهم وأفادوا واستفادوا منهم ، أما أهل الحواضر من العرب فنالوا فى وطنهم الجديد إليها ، وقد أكسبوا مدن الأندلس جوا عربيا وذوقا إسلاميا جديداً طبعها بطابع فريد .

الحكم العربى فى الأندلس :

ليس فى تاريخ الإسلام صفحة أبعث على الأسف ، وأدعى إلى الأسى والحزن من تاريخ الأندلس ، فقد نهضت بها أمة عربية قوية ، وازدهرت فيها حضارة إسلامية عظيمة وعاشت دولة الإسلام بين ربوعها زهاء ثمانية قرون ، تشرق على الدنيا بأنوار الحضارة والعلم والأدب ، وتمتد أشعتها الوهاجة إلى جنوب أوربا المظلمة ، ثم بادت هـــذه الأمة ، وامحت تلك الحضارة ، وطويت تلك الصحيفة ، وجلا المسلمون عن هـــذه الأرض بعد ما عمروها ، وصارت الأندلس بعد ذلك فى قلب كل عربى وكل مسلم ، ذكرى تثير اللوعة وتوقظ الحسرة ، وتعيد إلى الأذهان قول أبى الحزم بن جهور :

قلتُ يوما لدار قـوم تفانوا	أين سـكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنـا أقاموا قليلا	ثم ساروا ، ولست أعلم أينا

عهد الولاة :

ثم فتح العرب الأندلس سنة ٩٢هـ ، وصارت ولاية من ولايات الدولة الإسلامية ، يرسل

إليها خلفاء بنى أمية فى المشرق ولاة يتولون أمورها ، وقدامتد عصر الولاة إلى سنة ١٣٨هـ. وفى هذه الفترة لم تكن للأندلس طابع متميز فى العلم أو الأدب ، لانصراف الولاة إلى توطيد الملك، وإخماد الفتن، وتأسيس الدولة ، ولتبعيتهم التى صرفتهم عن التفكير فى تشجيع العلماء، وتقريب الأدباء والشعراء ، فذلك شأن الملوك ، ولعدم تمتعهم بطول مدة الحكم . فقد بلغوا فى هذه الفترة نحو العشرين واليًا.

عهد الدولة الأموية :

ثم آل الأمر إلى الأمويين (١٣٨ هـ ـ ٤٢٢ هـ) على يدى عبد الرحمن بن معاوية (صقر قريش) ، وتتابع الملوك من بعده من الأمويين ، وفى هذه الفترة استقل الملوك بالبلاد دون تبعية ، وأصبحوا يصرفون أمورها ، ويديرون سياستها ، بكل قوة وعناية ، حتى كان هذا العصر أزهى عصور الحكم العربى فى الأندلس ، راجت فيه سوق العلوم ، ونهض الأدب ، وازدهر الفن ، وارتقت الحضارة ، وهم عرب فى طبعهم تذوق الأدب والشعر ، ولأكثرهم ملكات شعرية وأدبية، فلاعجب إذا رأينا قرطبة فى عهدهم تنافس بغداد ، ولاعجب أن تكون المدينتان كعبتى العلماء ، ومنبعى العلوم والفنون .

ويصف المقرى قرطبة بأنها كانت ينبوع متفجر العلوم ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر[1] .

عهد ملوك الطوائف :

ثم انتثر سلك الخلافة ، وجاء عصر ملوك الطوائف (٤٢٨ ـ ٤٨٤ هـ) الذين اقتسموا البلاد ، وتغلب كل ملك منهم على بلد، فكان بنو عباد بإشبيلية، وبنو جهور بقرطبة ، وبنو الأفطس ببطليوس وبنو ذى النون بطليطلة، وبنو حمود فى مالقة(٤٠٧ـ٤٤٩هـ) وهكذا. وبالرغم من توزع السلطان ووهن السياسة فى هذه الفترة ، فقد كانت فترة تقدم للعلم والأدب ، لاتقل عن تقدمها فى ظلال الأمويين إن لم تزد عليها . وذلك يرجع إلى عروبة أكثر هؤلاء الملوك ،

(١) ١ : ٢١٧ نفح الطيب .

وتنافسهم على تقريب العلماء والأدباء تمكيناً للملك ، وتثبيتاً للسلطان ، وتفكيرهم فى صرف الناس عما عرفوه للأمويين من مجد ، وما يذكرونه لهم من عناية بالعلم والأدب .

عهد المرابطين والموحدين وبنى الأحمر :

انتهى أمر الأندلس إلى يد المرابطين والموحدين (٤٨٤ ـ ٦٢٩ هـ) بعد انقراض الأسر القوية من ملوك الطوائف ، ففقدت البلاد استقلالها ، وحكمها نواب عن ملوك من البربر ، لا علم لأكثرهم بالعربية ، ثم كان لتعصب ملوك هاتين الدولتين لآرائهم فى الدين ، وتشددهم فى اضطهاد مخالفيهم ، أثر فى انقباض العلماء وخوفهم على أنفسهم . ولهذا كله فتر نشاط الأدب ، وركدت ريح العلم .

وظلت الحال على هذا الفتور حتى حكمت البلاد أسرة عربية تعرف للأدب قدره وخطره ، تلك هى دولة بنى الأحمر (٦٢٩ ـ ٨٩٧ هـ) فانتعش حاله ، واهتزت روابيه ، ولكن ما لبثت الريح العاصفة أن هبت هبتها الأخيرة فطوحت بتلك الثمار فى أخريات أيامهم ، وانتهى الأمر بطاردة العربية ، وغلبة الفرنجة على آخر بلاد المسلمين ، وطردهم منها ، وهكذا طوى بساط العرب ، وانطوت صفحة الإسلام فى هذه البلاد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

طبيعة الأندلس

امتازت بيئة الأندلس كما أسلفنا بطبيعة ساحرة فاتنة ، انتظمت الكثير من الجبال والأنهار والأودية الفسيحة ، والحقول المديدة ، والمدن الجميلة ، وشواطىء البحار المترامية الأطراف . وقد أفاض الكتاب العرب القدامى فى وصف محاسن هذه الطبيعة ومفاتنها فى رسائلهم ومؤلفاتهم ، وتحدثوا عن خصائص كل مدينة ، ومميزات كل إقليم من أقاليمها أحاديث طويلة .

وزاد من جمال هذه البيئة الطبيعية الرائعة ، ما أضفاه عليها العرب من جمال وروعة وسحر ، بما أنشأوا فيها من مدن وقلاع وحصون وقصور ، وسدود وجسور ، وبما حلوا به مدنهم من شوارع منسقة ، وحدائق ألفاف ، ومتنزهات جميلة واسعة .

وقد افتن عبد الرحمن الداخل فى تجميل قرطبة . فبنى فيها جامعها الأعظم ، واجتهد فى تزيينه وتجميله إلى أن بلغ فى الإنفاق عليه حد السرف والترف ، وقد بقى من جمال هذا المسجد ماهو مائل فى أطلاله الدارسة حتى اليوم، فإن السائحين يقفون كما يقول استانلى بول: حتى الآن مذهولين أمام هذه الغابة من السوارى ، فيروعهم منظر لايكاد ينتهى من كل جانب . ويحدثنا المؤرخون عن أعاجيب قصور الداخل ومفاتنها . أحاديث نقرؤها فى كتاب « نفح الطيب » وسواه . وقد اتصلت العمارة بقرطبة ، حتى ازدحمت بالدور الفخمة ، وحتى قيل إنه كان بها أكثر من خمسين ألف قصر للأدباء ورجالات الدولة وأكثر من مائة ألف للعامة ، ونحو سبعمائة مسجد ، وتسعمائة حمام ، عدا الحدائق والمتنزهات والشوارع الجميلة . ويقول المقرى : ومن أفقها طلعت أعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر[1] .

وبنى الناصر مدينة الزهراء التى تعد من عجائب الدنيا ، وافتن فى تشييدها وتزيينها وتجميلها ، حتى صارت أروع مدن العالم ، التى بناها الملوك ، واتخذوها مركزاً رسميا للحكم والسلطان ، وقد أضاف فيها المنصور بن أبى عامر إضافات كثيرة .

ولقد أثرت هذه الطبيعة السمحة ، وما استتبعته من ثراء ورخاء وسعة فراغ ، فى الأدب الأندلسى نثره وشعره . فألهمت الشاعر الأندلسى بأروع ماابتكر من أدب الطبيعة ، وبأبلغ ما أثر من روائع الخيال ، وأثرت فى الأدب تأثيراً واضحاً تجلى فى رقة ألفاظه ، وسهولة أسلوبه ، وبدائع معانيه ، وغرر تشبيهاته وكناياته ومجازاته .

لهذا نجد كتاب الأندلس وخطباءه يشعرون حين ينثرون ، فعباراتهم تسيل رقة ، وتفيض عذوبة ، وأساليبهم تلمع سلاسة وإشراقا، وخيالهم يحلق فى أفق جميل. وأما الشعراء، فقد هذبوا الشعر ، وتأنقوا فى ألفاظه ، وتصرفوا فى معانيه ونوعوا فى قوافيه ، وتفننوا فى خياله ، وزادوا فى أغراضه ، ودبجوه تدبيج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر .

وهكذا يبدو أثر الطبيعة فى أدب الأندلسيين .

---

(١) ١ : ٢١٧ نفح الطيب .

بيئة الأدب فى الأندلس

منذ فتح العرب الأندلس ، واستوطنوها وأخـــذوا ينشرون فيها لغتهم وثقافتهم وعلومهم وآدابهم ، بدأت تظهر بيئة جديدة للأدب العربى، فى أقصى جنوب أوربا الغربى. أثرت تأثيراً واضحاً فى ظهور الأدب الأندلسى جملة .

وإذا كانت الأندلس فى عهد الولاة لم تتضح لها شخصية أدبية ، ولم يكن لهـــا كيان ظاهر فى الأدب . شأنها شأن الأقطار التى دخلت من جديد فى حكم العرب ونفوذهم . فإن البيئة الأدبية فيها قد بدأت فى الظهور والوضوح فى عهد الأمويين . والذين مكنوا للأندلس أن تتبوأ مكانها من تاريخ الأدب . فقد استقلوا بالبلاد ، وأصبحوا مسئولين عن كل شئونها . والأدب من أهم هذه الشئون . فاتجهوا بكل عنايتهم إليه . مدفوعين بدوافع قوية .

فهم عرب ، فى طبعهم تذوق الأدب ، والكثير منهم ملكات أدبية تسلكهم فى عداد الخطباء أو الكتاب أو الشعراء ، وهم يعرفون كما عرف آباؤهم ما للأدب من أياد بيض فى تحصين الدولة والدعوة لها ، وهم فى منافسة شديدة مع العباسيين تقتضيهم ألا يكون حظ قرطبة فى إنعاش الأدب أدنى من حظ بغداد .

على أن البيئة الأدبية فى الأندلس كانت قـــد نمت وظهر أثر العوامل المختلفة فيها فى إنعاش الأدب وازدهاره .

ولذلك سلكوا مسالك العباسيين ، فأجزلوا العطاء للأدباء واقتصروا فى اختيار الوزراء والأعوان على النوابغ منهم ، فألهبوا بذلك الهمم وحفزوها على التجويد والإتقان ، بل لقد حاولوا التفوق على العباسيين فاجتذبوا بعض علماء الأدب من الشرق إلى الأندلس ، كما صنع عبدالرحمن الناصر مع على أبى القالى، والمنصور بن أبى عامر مع أبى العلاء صاعد، وكلاهما من بغداد وضحوا بالمال الكثير ليرسل المؤلفون كتبهم الأدبية إلى الأندلس قبل أن يظهروها فى الشرق ، وقد ذكروا أن الحكم المستنصر أرسل إلى أبى الفرج الأصبهانى ألف دينار ثمنا لنسخة من كتابه الأغانى .

وكان ظهور ملوك الطوائف أروج للأدب وأنهض به ، فكثرت بكثرتهم أسواقه ، وزادت فرص الظهور أمام الأدباء ، وتعددت لهم سبل الكسب كالذى حدث عن انقسام الملك العباسى إلى دول وإمارات ، فبعد أن لم يكن للأدباء متحول عن قرطبة وبنى أمية ، ظهر لهم من العواصم مع قرطبة : إشبيلية . وبطليوس وسرقسطة . وطليطلة . وشاطبة وغرناطة . والمرية وغيرها من مسارح الأدب الجديدة ، واستعد للترحيب بهم من الملوك : بنو جهـــور ، وبنو عباد ، وبنو الأفطس ، وبنو هـــود ، وبنو عامر ، وبنو ذى النون ، وبنو صمادح وغيرهم من أصحاب الملك . وكثرة هؤلاء عرب خلص وقلتهم متعربة ، ولكنهم جميعا يحسنون ذوق الأدب لرسوخ أقدامهم فى الثقافة العربية . بل لقد كان لبعضهم مشاركة فى الأدب ، كالمتوكل العامرى والمعتمد بن عباد ، ثم إنهم وقد اغتصبوا ملك الأمويين ، يهمهم أن ينسى الناس ما كان لهم من أمجاد ، فلتكن عنايتهم بالأدب — إذن فوق ما عرفه الناس للأمويين ، ذلك كله إلى ما كان بين الملوك أنفسهم من تنافس فاق فى شدته وحدته ما كان بين الأمويين والعباسيين[1] .

أما عهد المرابطين والموحدين فقد كان أنمد بالأدب ، لم تنفق له منه فى الأندلس سوق ، ولم ترج له تجارة ، لانعدام تشجيع الملوك له ، لأن لهم ضلعا من العجم ونشأة فى العى والكنة البربرية الموروثة ، ولأنهم لم ينشأوا فى بيئة أدبية مزدهرة ، إذ لم تكن فى مراكش التى نشأوا فيها مثل هذه البيئة. ولما قامت دولة بنى الأحمر بدأت نهضة الأدب نثره وشعره تسترد ما كان لها ، لعراقة أصول الحاكمين فى العربية والعروبة ، ولتذوقهم للأدب وحبهم له ، وتشجيعهم إياه .

على أنه يمكننا أن نلخص العوامل التى أثرت فى أدب الأندلس فيما يلى :

١ — امتزاج العناصر والثقافات ، مما كان له أثره فى الأدب الأندلسى وفى عقلية العرب الذين نزلوا بهذه البلاد ، فقد توالى على الأندلس منذ فجر التاريخ أجناس مختلفة ، فحكمها الإغريق ، ثم الرومان ، ثم القوط ، وجاء العرب فصادفوا البلاد وقد انطبعت فيها مزايا هذه

(١) ص ١٩٣ دراسات فى الأدب العربى .

الأمم التى امتزجت من قبل، فأحدثوا كذلك أثرهم ، وكان من أثر هذا الامتزاج الذى تسرب فى العقول كما تسرب فى الدماء نضوج العقلية العربية ، واستمرار النهضة الأدبية ، ونشأة جيل جديد يجرى فى عروقه الدم العربى ، ويتصف بصفات العرب من الغيرة والكرامة وصفاء القريحة ، ويكتسب صفات الجنس الآرى من دقة الإدراك وسعة الخيال ، وقوة الفكر والتمحيص .

٢ ـ طبيعة الأندلس الساحرة ، التى أثرت فى عقول الأدباء وأخيلتهم وأفكارهم ، وساعدت على ظهور شعراء تغنوا بجمالها وفتنتها . كابن خفاجة الأندلسى وغيره ، وعملت على تنمية الأدب وفنونه ، وعلى ظهور أدب الطبيعة فى صورته المتكاملة .

٣ ـ وهناك عامل المنافسة للمشارقة ، وهو عامل قوى ظهر أثره فى عناية الخلفاء باقتناء الكتب وتأليفها لهم ، وتشجيع الأدب والأدباء ؛ وفى مناهج المؤلفين أنفسهم ، ثم فى الصبغة الأدبية بوجه عام . وقد بلغت خزائن الكتب بالأندلس نحو سبعين مكتبة تحوى نحو أربعمائة ألف مجلد ، وكان من مفاخر الأندلسيين اتخاذ المكاتب للمنفعة والزينة ، ورحل العلماء من المغرب إلى المشرق طلباً للعلم والكتب ، كما كان علماء الشرق وأدباؤه يرحلون إلى المغرب طلباً للمنفعة والجاه ، فكان الطريق من بغداد إلى قرطبة لا ينضب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء ، وتأثر الأدباء فى الأندلس بأدب المشرق وأدبائه ، فهؤلاء المؤلفون يحذون حذو المشارقة فى التأليف الأدبى،فابن عبد ربه يؤلف «العقد الفريد» محاكيا ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » وابن بسام فى « الذخيرة » يحاكى الثعالبى فى « يتيمة الدهر » وهكذا .

ويعارض الشعراء فى الأندلس المشارقة فى أسلوب الشعر وصيغته ، كالوزن والقافية . وفى كثير من المعانى والأخيلة ، حتى يخلع النقاد على كثير من الشعراء أسماء شعراء المشرق. كما قالوا « ابن زيدون بحترى المغرب » ، و « ابن هانىء متنبى المغرب » وهكذا نجد الأندلسيين لهم ولع شديد بمنافسة الشرقيين وتقليدهم فى العلم والأدب ، وقد أثرت هذه المنافسة . فى ازدهار العلوم والآداب بالأندلس ؛ وفى اصطباغ كثير من الفنون الأدبية فى

الأندلس بالصبغة الشرقية ، وفى اتجاه الشعر إلى الطريق التى اتجه إليها الشعر فى الشرق ، من حيث الصناعة الشكلية ، وإلى حد كبير فى المعانى والأفكار .

ومع ذلك ، فقد كان لبيئة الأدب فى الأندلس طابع خاص صنعته الظروف المتباينة والبيئة المستقلة ، فميزته عن أدب المشارقة ، فقد أوحت البيئة إليهم بكثير من مظاهر التجديد فى أسلوب الشعر وفى معانيه ، فابتكر الشعراء كثيراً من المعانى والأفكار الجديدة بجانب ما أسبغوه على الأسلوب من رقة وسلاسة . وكانوا فى تقليدهم للمشارقة يخلعون على ما قلدوه فيه أزياء جديدة ، ويضيفون ويحورون ، حتى يبدو ما أخذوه وكأنه من صنعهم واختراعهم .

وعلى الجملة فإن الأندلسيين لم يتابعوا المشارقة فى الثقافات والفلسفات الدخيلة التى راجت بالمشرق . فقد ظلت الأندلس بمنأى عن المذاهب المتعددة والنحل المختلفة والفرق المتطاحنة . بعيدة عن معترك الآراء وفتن العقائد . حريصة على أن تظل ثقافتها عربية إسلامية . ولهذا نفر الأندلسيون من الفلسفة . وشنوا على من اشتغل بها الحرب . وتوعدوا كل من يصبو إليها . ولتمكن هذه العقيدة الدينية وسلطانها من نفوسهم نجد الأدب الأندلسى قد خلا من التفكير العقلى . والاتجاهات الفلسفية التى راجت بالمشرق . ومع أن الفلسفة قد أبيحت فيما بعد . فى نهاية عهد العرب بالأندلس ، واشتغل بها كثير من الفلاسفة . ونبغ فيها أمثال ابن ماجه وابن رشد وابن طفيل ؛ إلا أنها مع ذلك لم تؤثر فى الأدب الأندلسى . ولم تجد فيه مجالا كما وجدت فى المشرق .

تلك هى العوامل العامة التى أثرت فى أدب الأندلسيين . وهى عوامل تجمع بين العقلية الممتزجة . والطبيعة الشاعرة والمنافسة والأدب والثقافة .

عناية الأندلسيين باللغة والأدب

— ١ —

انتشرت اللغة العربية فى الأندلس وذاعت بين سكان البلاد الأصليين واتخذوها لغتهم ، وحببهم فيها عذوبتها وجمالها، وقد حظر هشام بن الداخل (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ) على المسيحيين أن يتكلموا بغير العربية ، فأقبلوا عليها وتركوا لغتهم الأولى. وازداد انتشار العربية فى عهد بنى أمية ، وملوك الطوائف حتى ترجم القسس بها التوراة واعتبروها من الكتب الدينية ، وصقل أسلوبها واتسعت أغراضها . . وإذا كان الوهن قد دب إليها فى عهد الرابطين والموحدين فإن القدر تداركها ببنى هود ثم ببنى الأحمر وهم عرب خلص ، فأعادوا لها شيئا من مجدها التالد ، وعزها الغابر .

وكانت الفصحى هى اللغة السائدة فى الكتابة والخطابة والشعر ، والتخاطب . ثم ظهرت « العامية » فى لغة التخاطب لبعد العهد بالعرب عن مهد ملكتهم الأصيلة ، وسليقتهم السليمة ، فلانت لغتهم ، ووهنت ملكاتهم ، وانتشرت العامية سلطانها على العامة والخاصة ، وإن كانت عامية مقبولة يغلب فى كلماتها العنصر العربى ، ويقل الدخيل ، ولا يشتد التحريف كما ترى الوشحات والأزجال التى هى أدب عامتهم . ومهما كان فقد ظلت العربية سليمة مزدهرة بالأندلس ، لفرط عناية الملوك والشعب بها ، وحرصهم عليها ، ولم تنافسها العامية إلا فى لغة التخاطب وحدها ، وفى الآداب الشعبية من مثل الوشحات والأزجال .

— ٢ —

أما الأدب فقد كانت العناية به كذلك شديدة ، وفى مثل عنايتهم بلغة القرآن . فى عهد الولاة أقبل العرب الفاتحون على نشر الأدب وإذاعته فى الأندلس لأنه مظهر لغتهم ، ومجلى حياتهم ، وصورة عقلهم وفكرهم .

وفى عهد الأمويين ازدادت عنايتهم بالأدب شعره ونثره، لعروبتهم الخالصة ، وأذواقهم الموروثة ، ولأنهم ينافسون العباسيين فى كل شىء . حتى فى شدة العناية بالعلوم والآداب .

وكان ملوك الأمويين أدباء وشعراء ، فهم يتذوقون الأدب ويقرضون الشعر ، ويتنافسون في تمهد الأدباء ، وإثابة الشعراء . ومن اهتمامهم بالأدب كان اهتمامهم بثقافاته ، فكان الناصر يرسل إلى القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية من يشترى له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة[1] ، وأربى خلفه المستنصر على الغاية لجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك . حتى بلغ عدد الفهارس التى فيها أسماء الكتب أربعة وأربعين فى كل واحد عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، وبعث فى كتاب (الأغانى) بألف دينار ذهباً ، ويتجلى حبه للعلم والعلماء فى استقباله العظيم ـ وهو ولى عهد ـ لأبى على القالى ، واحتفائه به . وقد اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده ، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة كانت تحفل بأربعمائة ألف مجلد[2]، وكان هو نفسه واسع الاطلاع . قلما يوجد كتاب فى خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن .

وهكذا كان الخلفاء والأمراء ورعيتهم ، حتى صار من مفاخر الأندلس اتخاذ المكاتب للمنفعة والزينة معاً ، وربما غولى فى الكتاب لجلده ونقشه وحسن خطه . أرادوا أن تظهر قرطبة على بغداد ، فرحل العلماء من المغرب إلى المشرق طلباً للعلم والكتب . كما كان علماء المشرق وأدباؤه يرحلون إلى المغرب طلبا للمنفعة والجاه . فكان الطريق من بغداد إلى قرطبة لا يغيب عنه ضوء العلم ، ولا تنقطع عنه قدم العلماء . على مثل هذا كانت عناية الخلفاء بالعلم والعلماء . وعلى مثل هذا كانت عنايتهم بإنشاء المدارس والمساجد .

وقد ظلت هذه العناية بالعلم والأدب فى عصر ملوك الطوائف ، فإنه بالرغم من انحلالهم السياسى كانت تثور فى نفوسهم نوازع للنافسة ، وإن كانت قد تحولت من منافسة عامة بين الشرق والمغرب إلى منافسة داخلية بين هؤلاء الملوك بعضهم مع بعض . بيد أنها كانت أشد عنفاً وأحمى وطيسا. فقد كان كل منهم يعد دويلته الصغيرة مملكة كبيرة أو يحاول أن يجعلها كذلك ، وقد ظفر العلم والأدب من ذلك بأوفى نصيب . حيث كان من مباهاة هؤلاء الملوك أن فلانا العالم عند فلان الملك وفلانا الشاعر مختص بفلان الملك[3]. ولقد بذل مجاهد العامرى

(١) النفح ج ١ ص ١٧١ . (٢) النفح ج ١ ص ١٨٤ . (٣) النفح ج ٢ ص ١٣٩ .

ملك دانية لأبي غالب اللغوي ألف دينار ومركوبا وكساء على أن يضع اسمه في صدر كتاب ألفه. فأبى ذلك أبو غالب وقال : « كتاب ألفته لينتفع به الناس وأخلد فيه همتي . أجعل في صدره اسم غيري؟ » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته ، وضاعف له العطاء .

وقد كان الكثير من هؤلاء الملوك أنفسهم يعكفون على التأليف ، ويتفرغون للتصنيف . كما كان المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس. حيث كان كثير الأدب، جم المعرفة ، وله كتاب التذكرة ، والمشتهر أيضا باسم (الكتاب المظفر) في خمسين مجلداً ، يشتمل على علوم وفنون ومغاز وسير ومثل وخبر . . وكان من فرط عناية بعض هؤلاء الملوك بالأدب واعتدادهم بالشعر ألا يستوزر وزيراً إلا إذا كان شاعراً أديبا كما كان يفعل المعتمد ، ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد والمعتمد هذا . فقد كان بحضرته مثل ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم .

ولم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها ووزرائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع لأسباب الأدب . قوي التذوق لغة العرب .

وقد ضعفت العناية بالأدب في عهد المرابطين والموحدين . ثم رجع الأمر إلى ما كان عليه في عهد بني الأحمر الذين شجعوا الأدباء ، وأثابوا الشعراء .

— ٣ —

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الأفكار ، وأفخم مظاهر الجمال ، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية ، وكانت تحفل بأنواع الأدب ، وألوان الطرب ، وأفانين اللهو والسمر ، وكان الشعر فيها نشوة الشارب ، وغناء الراقص ، ولذة الكؤوس ، وأدب النفوس ؛ وكانت مظهراً جليلا من مظاهر عنايتهم بالأدب .

وكان للمنصور بن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم للمناظرة بحضرته[1] ، وكان للمعتمد دار مخصوصة بالشعراء ، وديوان تقيد فيه أسماؤهم . وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه . فلا يدخل عليه غيرهم[2] .

(١) المعجب للمراكشي . (٢) النفح ج ٢ ص ٤٦٨ .

ومن مجالس الأدب ما يروى عن المعتمد بن عباد أنه جلس يوما للشرب . وبين يديه ساقية جميلة قد تقابل وجهها بشهاب الكأس واتفق أن لمع البرق فارتاعت . فقال بديها :

روّعها البرق وفى كفها   برقٌ من القهوة لمّاع

عجبت منها وهى شمس الضحى   كيف من الأنوار ترتاع

ثم قال لعبد الجليل بن وهبون : أجز فقال :

ولن ترى أعجب من آنس   من مثل ما يمسك يرتاع

— ٤ —

ولقد فطروا بحكم طبيعتهم وبيئتهم على دقة الإحساس ، ورقة الشعور ، وسلامة الذوق .[فكان لهم بصر أى بصر بنقد الشعر والأدب، وتذوق الفن ، والإحساس المرهف بدقائقه . وكيف لا وقد وهبتهم الطبيعة من رقتها ودقتها ما أرهف آذانهم، وجلا بصائرهم، ورقق أذواقهم . وحسبك أن تقرأ مثل كتاب : « الذخيرة » لابن بسام الأندلسى ، لترى كيف يوازن الرجل بين معنى ومعنى ، وكيف يرجع معنى إلى معنى وكيف ينقد ويحلل ويستطرد ، فى دقة وإحاطة ، وبصر نافذ ، وذوق حساس . . ومن مثل ذلك ما روى عن المعتمد بن عباد أنه تباحث مرة مع جلسائه فى بيت المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فقال : ما قصر فى مقابلة كل لفظه بضدها ، إلا أن فيه نقداً خفيا ، ففكروا فيه ، فلما أطالوا التفكير ، قالوا : ما وقفنا على شىء ، فقال : الليل لا يطابق إلا بالنهار ، ولا يطابق بالصبح ، لأن الليل كلى والصبح جزئى ، فتعجبوا من حسن نقده .

ويروى عن القاضى منذر بن سعيد البلوطى قال : أتيت مجلس أبى جعفر بن النحاس بمصر وهو يملى فى أخبار الشعراء شعر قيس المجنون ، حيث يقول :

خليلى هل بالشام عين حزينة   تبكى على نجد لعلى أعينها

قد أسلمها الباكون إلا حمامة   مطوقة باتت وبات قرينها

فقلت له : يا أبا جعفر ماذا ـ أعزك الله ـ باتا بصدمان ؟ ، فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت له : « بانت وبان قرينها » فسكت ومازال يستثقلني بعد ذلك حتى ملمنى كتاب العين .

— • —

وعلى الجملة فقد امتاز الأندلسيون بالذكاء وجودة القريحة والبصر ببلاغة الكلام وبقوة الحافظة ، ولقد أكثر ملوك الأندلس من اقتراح حفظ كتب بعينها وخصوا من يفعل ذلك بجوائز مالية ، ومما كان يحفظ من الكتب كتاب سيبويه وديوان للتنبي وكتاب الأغانى وسواها ، وقد أدى ذلك إلى نهضة الأدب وذيوعه وانتشاره .

اللغة العربية بالأندلس

— ١ —

منذ فتحت الأندلس والقبائل العربية تتدفق إليها تدفق السيل ، وتنزح إليها نزوح المشوق ، وتنثال عليها من كل فج عميق ، ولم تمض فترة قصيرة حتى كان لكل قبيلة عربية فروع بالأندلس، وبطون متصلة النسب بها ، بل لقد فقدت بعض الأنساب بالمشرق، واتصلت بالأندلس .

وهكذا كثرت الجالية العربية بهذه البلاد ،وانبثوا فى نواحيها، وتبعتها لغتهم الفصيحة حيث حلوا. ولم يكن بد من أن تسود هذه اللغة فى البلاد وأن تنطى على ماعداها : أولا لكثرة أهلها وتغلب لسانهم على الألسنة الأخـــرى ، وثانياً : لأن أهلها هم الفاتحون الظافرون ، والحكام القاهرون الذين دخل الناس فى دينهم ولغتهم أفواجا يستظلون بعدالة الإسلام ، ويحتمون بإنصافه وسماحته ، واللغة ظله الذى لايفارقه ، وثالثا : لأن الحكام الأولين من بنى أمية كانوا ذوى عصبية ونعرة عربية يمتون بمفاخر آبائهم، ويحرصون على تراثهم ويشدون بالأدب ، ويحضون على تحصيله ويشجعون روايته ، وكانوا مع ذلك خطباء مصاقع ،وشعراء مجيدين ؛ ولسنا مقاول ، ومن كان هذا شأنهم لابد أن تحيا اللغة على أيديهم، وتبقى حصينة منيعة ، لايتطرق إليها وهن أو فساد، وتستطيع أن تضيف إلى هذه الأسباب منافسة هؤلاء الحكام والملوك للمشارقة ، بل طمعهم فى أن يفوقوهم ،مما دفعهم إلى العناية بلغتهم ،والتشجيع عليها ، واستدراج العلماء والأدباء من المشرق إليهم ، وإغداقهم الأموال عليهم ، مما حفلت به كتب التاريخ كما ترى فى كتاب (نفح الطيب) الذى استغرق جزء منه ذكر الراحلين إلى الأندلس وبيان مانالوه من إكرام .

والتاريخ يحدثنا أن هشام بن الداخل حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية ، فلم يكتف بجعلها لسان الدولة الرسمى فى أعمال الدواوين والمحافل العامة ، بل جعلها كذلك لغة الأسواق ، وحديث التعامل ، وحوار الناس . ومن هذا ندرك كيف كانت عناية هـؤلاء الحكام بلغتهم وتعصبهم لها وحرصهم عليها .

هذا شأن المسلمين بالأندلس ومن دخلوا فى دين الله من أهلها ، أما من بقى منهم على دينه فإنه اضطر إلى العربية لأنها لسان الحاكم ، وهو محتاج إلى أن يتصل به وأن يستدر خيره ، وأن يتملقه جلبا لنفع أو اتقاء لضر ، أو تقليدا لمظهر .

وهكذا سادت اللغة العربية بالأندلس ، وأصبح لها هذا السلطان ، وصارت لها تلك الغلبة ، وأضحت لسان العرب والعجم والمسلمين ، والنصارى واليهود . حتى سمعنا هذه الصيحة المريرة يطلقها كاهن قرطبة ، وهو يشكو مر الشكوى من أنه لا يجد من بنى جنسه وديانته من يعرف اللاتينية ليدرس بها الإنجيل ، وسير الأنبياء والحواريين . وأنه يأسف جد الأسف لأن الشبان المسيحيين ذوى المواهب لايعرفون إلا العربية . حتى اضطر القساوسة إلى ترجمة كتب الدين لهم بالعربية .

ومن هنا ندرك سر تأثر اللغة العربية إلى اليوم فى ألفاظها واتجاه أدبها . فكلمات : البر والضاحية . والمخزن . والبروق . والساقية . والجبل . والمصطبة . ونحوها ألفاظ نجدها فى اللغة الأسبانية وأصلها عربى حرف إلى لغتهم .

— ٢ —

وقد كانت الأندلس فى ظلال حكم العرب لها تتألف من هذه العناصر :

١ — العرب الذين فتحوها وحكموها ونزحوا إليها . وكانوا هم العنصر الذى غلب بها .

٢ — البربر الذين ظلوا يمكرون ويراوغون حتى ثبتوا أخيراً على الإسلام .

٣ — سكان البلاد من اليهود والنصارى الذين قبلوا الإقامة فى كنف العرب .

ويمكننا أن نقول إن اللغة العربية ـ فصيحة أو محرفة ـ كانت هى لغة التخاطب العام بين هذه العناصر جميعها . وليس أدل على ذلك من الحكم الذى أصدره هشام بوجوب التخاطب بالعربية على جميع اليهود والنصارى . فلولا ثقته باستطاعتهم ذلك لما أوجب هذا الأمر .

فأما العرب فكانوا يتخاطبون بالفصحى لا يشوبها إلا شوائب هينة من اللحن .

لأن الملكات كانت على عهدها من السلامة والأصالة، ولم يبعد بها الزمن عن مصدرها الصحيح .

وأما البربر فقد أسلموا وتعبدوا بالقرآن الكريم. وكان اختلاطهم بالعرب منذ اختط عقبة ابن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ . فلا بد أنهم تعلموا لغة القرآن واستطاعوا التخاطب بها وهم لا يزالون على ذكر للغتهم البربرية ، فلغتهم إذن عربية محرفة مدخولة . وخطبة طارق بن زياد وهو منهم ، وما أثارته فيهم من الحماس، وما حركت فيهم من الهمم، دليل على تمكنهم من اللغة العربية ، أو على الأقل معرفتهم لها ، وتمرسهم بها .

وأما أهل البلاد من النصارى واليهود فقد كانوا قلة مستضعفة جرفها تيار اللغة العربية، حتى صارت لغتهم التي بها يتخاطبون .

— ٣ —

وقد ظلت اللغة العربية سليمة قوية بالأندلس في الوقت الذي أخذت تضعف فيه وتهن بالمشرق ، وذلك لغلبتها بالحكم ، وسيادتها بالعصبية ، وبعدها عن تيارات اللحن والدخيل ، والعناصر السائدة في المشرق ، ولكثرة معاناة القوم لعلوم اللسان، وامتلائهم من المحفوظات اللغوية ، وحرصهم على منافسة المشرقيين وفوقهم . ولهذا كان سريان الفساد إلى اللغة في الأندلس أبطأ منه بالمشرق .

وهكذا نجد اللغة في عهد الولاة الفاتحين ، وهو ما يقرب من نصف قرن ، كانت حالها في المغرب أشبه شيء بحالها في المشرق ، فإن القوم هم القوم ، ولم يجد في أمرهم ما هو جدير بأن يؤثر في حال اللغة، ولا استحداث جديد لها، فاللغة قوية فطرية، أساليبها مرسل وألفاظها جزلة بريئة من تكلف البديع، ومعانيها بعيدة من تعمق الفلاسفة وترتيب الحكماء ، وأغراضها دائرة حول أحوال المعيشة والحث على إعلاء كلمة الله ، وبذل النفوس لحماية البلاد والحفاظ عليها .

وفي زمن بني أمية وملوك الطوائف انتشرت اللغة بين أهل البلاد على اختلاف أجناسهم وملهم . حتى ترجم بها القسس التوراة وغيرها من الكتب الدينية وذلك دليل على أنها أخضعت كل شيء لسلطانها هنالك ، وقد دخل على اللغة كثير من التجديد في شتى نواحيها .

فأما أسلوبها : فقد سقل بجمال البلاد ورقتها ، وجد فيه كثير من الصقع القبول . ولا سيا السجع والسلاسة المستعذبة . وأما المعانى : فقد كانت واضحة بعيدة عن التعمق ، متعددة الصور ، لطيفة المنزع ، كثيرة الطرف ، جذابة النكات ، لاعل للتأمل فيها لخفة روح القوم وميلهم نحو كل جميل خلاب من الأفكار والتصورات ، وحسبك خيالهم البديع الذى كانت الطبيعة الأندلسية من بعض مصادره . وأما الأغراض . فقد اتسعت رقعتها وتعددت منازعها فجالت فى شئون الملك ودواوين الحكم ومرافق الإمارة ثم صنوف الصناعة والتجارة ، وقطعت شوطاً كبيراً فى تصوير العلوم والمعارف ، وتجلت فى معارضها الجميلة ، وصافة لكل مظاهر الطبيعة وصنعة الحضارة ومشاهد النهضة ، ونبغ الشعر الأندلسى فى الوصف ، مع دقة الخيال ، ورقة العبارة .

وقد كان حظهم من الترجمة بخساً ضئيلا لتفانيهم فى حب لغتهم وبغضهم للأجانب وبعدهم عن مؤثرات عملت فى الشرق عملها ، من سلطان الفرس وسيطرة الدخيل .

ولكن الوهن دب إلى اللغة فى زمن المرابطين والموحدين لكثرة الفتن ، ولأن السلطان إذ ذاك فى أيدى البربر وهم بعيدون كل البعد عن فهم اللغة العربية وجمالها ، وسحرها ، فانحطت بانحطاطهم ، وعادت متقهقرة إلى الوراء .

ولكن القدر تداركها ببنى هود ثم ببنى الأحمر . وهم عرب خلص . فأعادوا لها شيئاً من مجدها التالد ، وعزها النابر . واستطاعت اللغة أن تقوم من كبوتها ، وكادت تصمد لعادية الزمان ، لولا أن الفتن والقلاقل كانت متغلغلة فى داخل البلاد ، والعدو رابض لهم ، متربص لخطاهم ، يشمل الفوضى بين صفوفهم ، حتى هزمهم واستولى على بلادهم . فمحيت اللغة العربية من الأندلس بعد خروجهم ، وعادت البلاد إلى لغتها الأصلية ، ودينها القديم .

وظلت الفصحى مدة طويلة هى اللغة السائدة فى الكتابة والخطابة والشعر والتخاطب . إلى أن بعد العهد بالعرب عن مهد ملكتهم الأصيلة ، وسليقتهم السليمة ، ولانت جلودهم ، ونعم عيشهم ، ورقت طباعهم ، وجنحوا إلى الترف والنعيم ؛ فأخذت لغة تخاطبهم وأحاديثهم تنفصل عن لغة كتابتهم وشعرهم ، وسرى إليها التصحيف والتحريف وإهمال الإعراب ،

وخالطها الدخيل ، وجرى عليها الاشتقاق بلا قياس . فاضطربت ألسنة خلطائهم من البربر وأهل البلاد ، بين لغاتهم الأصلية واللغة العربية . وكان من هذا الخليط ما نشأ من لغة عامية صارت لسان الخاص والعام فيما بعد ، وغلبت على الألسنة في التخاطب لا في الكتابة ، حتى كان العالم النحوي لا يستطيع أن يقيم لسانه .

ومع ذلك فقد كانت هذه العامية مقبولة ، يغلب في كلماتها العنصر العربي ، ويقل الدخيل ، ولا يشتد التحريف ، كما نرى في الموشحات والأزجال التي يقل فيها الدخيل ، وإن كان إهمال الإعراب يشيع فيها .

وإذا كانت لغة الموشحات والأزجال تعد عامية الخاصة ، لأن معظم قائليها كانوا من الشعراء الفصحاء ، فإنها على كل حال تدلنا على اتجاه العامية في بلاد الأندلس ؛ لأنها كانت تقال للعامة فيفهمونها . فهي عامية مقبولة سائغة غير موغلة في البعد عن أصول العربية .

النثر الأدبى فى الأندلس

١ ـ الخطابة

١ ـ عرفت الأندلس فن الخطابة منذ دخلها العرب فاتحين ، وصار لها بعد قليل منزلتها، وصار للخطيب احترامه ، وأصبح لقب الخطيب من ألقاب الشرف والتعظيم ، وأضيف القضاء إلى الخطابة ، فنبه شأنها ، وعظم أمرها ، وزادت الحفاوة بها .

وقد انقسمت الخطابة فى الأندلس إلى عهدين : عهد قوة وازدهار ، وعهد ضعف ووهن .

٢ ـ فأما العهد الأول فيشمل : عهد الولاة الأولين ، وحكم الجيل الأول من الأمويين إلى نهاية القرن الرابع الهجرى .. وقد توافرت فيه للخطابة أسباب القوة وعوامل الازدهار والنهوض .

فتاريخ الأندلس منذ الفتح يموج بالدم ، ويشتمل بالحروب ، ويضطرم بالصراع ، ويصطدم بالقلاقل والفتن . فهناك الصراع بين المسلمين والفرنجة ، والفتن والأحقاد بين المسلمين أنفسهم ، والعصبية العربية بين المضرية واليمنية والمطامع السياسية على الملك ، وغير ذلك مما كان يؤرث الحروب ، ويشهر السيوف ، ويشرع الرماح . وكل هذه مقامات تستدعى الخطابة ، وتستلزم الدعاة للتحريض على الأعداء ، والتذكير بالأحقاد ، واستمالة الأنصار ، والحث على الاستشهاد فى سبيل الله ، والتحميس عند القتال ، أو الدعوة إلى السلام . ثم أضيف إلى هذه المظاهر مظهر آخر حرص عليه الملوك لإصلاح شئون الرعية ، وهو مظهر الوعظ يكلونه إلى أعاظم قضاتهم وكبار علمائهم ، وكان هذا المظهر قوياً جريئاً أشبه شىء بالصحافة الجريئة الحرة ، يواجه الأحداث فى قوة ، ويندد بالمنكرات فى صراحة . حتى إن المنذر بن سعيد قاضى قضاة عبد الرحمن الناصر وإمام مسجد قرطبة لما رأى انهماك الخليفة فى العناية بالزهراء وزخرفتها ، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد ، خطب الناس فى هذا المعنى ، واستهل خطبته بقوله : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم

تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون . . . » إلى آخر الآيات . ثم استمر فى هذا المعنى حتى تلا قوله تعالى : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وللمنذر خطبة مشهورة أمام الناصر فى استقبال وفد الروم ، وقد دعى القالى للخطابة فى هذا الموقف فحصر ، فقام المنذر مقامه مرتجلا بليغاً . .

هذه مقامات استدعت الخطابة ، وعوامل نهضت بهـــا ، وحرية مكنت لها من القوة والظهور ، ويضاف إليها ما كان للقوم فى هذا الطور من ملـكات عربية قوية ، ولغة سليمة نقية ، وفصاحة بارعة بدوية ، وتحصيل لـكلام العرب ومدارسة للعلم وحرص عليه . فلم يكن الفساد قد دب بعد إلى اللغة ، ولم يكن الوهن قد سرى إلى الملـكات .

لذلك شاعت الخطابة فى هذا العهد ، وأثمرت ثمارها ، وغزر نتاجها ، ودوت بهـــا ميادين قتالهم ، واهتزت منابر محافلهم ، ومجالس ملوكهم ، وسفر بها السفراء ، وقدموها على الشعر فى الحفل الجامع والمقـــام المشهور ، كما فعل الناصر فى يوم ملاقاة رسول ملك القسطنطينية من تقديمه الخطباء على الشعر . وهكذا كان اهتمامهم بالخطابة حتى تلقب علماؤهم بالخطيب كما تلقبوا بالفقيه .

أما سماتها الفنية فى هذا العهد فتتجلى فى بدويتها الجزلة ، وألفاظها النقية البريئة من التـكلف والغرابة ، المرتفعة عن السوقية والابتذال ، تساق فى أسلوب متلاحم النسج ، متماسك التركيب ، قوى الديباجة ، يغلب عليه الإيجاز ، وتظهر فيه ملامح البداوة التى لا تعرف الزخرف البديعى . ولا تـكلف بالزينة ، إلا ما جاء عفو الخاطر واقتضاه المقام . ثم أدركها فى القرن الرابع لين المدنية وغلبت عليها الحضارة برقتها ، وأثر فيها الترف بوشيه وزخرفه . فازدانت بالسجع المقبول الذى يعتمد على الملـكة ، ورقت ألفاظها ، وعذب أسلوبها ، ودقت إشاراتها ، وعمقت معانيها ، وغزرت أفـكارها من أثر الثقافة والحضارة . وظهرت الخطابة السياسية والاجتماعية . .

وترى فى معانيها الصبغة العربية الأصيلة التى لا تعرف المبالغة والتهويل ولا العمق فى التفكير . فهى معان فطرية بسيطة تساوق الطبع ، وتقرب من الواقع وتتسم بالصدق والصراحة ، وتحلق فى خيال شمرى جميل لا يوغل فى الطيران .

ومن أشهر خطباء هـذه الفترة : طارق بن زياد ، ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وعبد الرحمن الداخل والمنذر بن سعيد البلوطى ، والمنصور بن أبى عامر .

٣ ـ وأما العهد الثانى ، عهد الوهن والضعف فيبدأ من القرن الخامس إلى نهاية الحكم العربى للأندلس ، فقد انتهى الأمر بالخطابة ـ بعد أن التاثت الملكات، واضطربت الألسنة، واختلت السلائق بالعجمة ، واستغنى بتنظيم الجيش عن الخطابة ، وبأقلام الكتاب عن ألسنة الخطباء ـ إلى الضعف والركود لفتور الهمم عنها ، وتضاؤل العناية بالعلم ، وفساد الأذواق والملكات .

وفترت الدواعى القوية التى تدعو إلى الخطابة . وتبعث فيها الحرارة وتثير الخواطر للقول وتطلق الألسنة بالكلام فهان أمرها وضعفت منزلتها ووكلت إلى صغار العلماء الذين لا يستطيعون الارتجال . فكانوا يعدون الخطب أو تعد لهم . ولذلك ظهرت كتب الخطب كما ظهرت بالمشرق . ورتبوها على مدار العام . وكان همهم فى حفظها وإلقائها فى مناسباتها على نحو ما نسمع اليوم من بعض خطباء المساجد.وأخذت الخطابة تميل إلى هلهلة الأسلوب وتشتيت الأفكار . والتكلف والسجع المرذول . واقتصرت موضوعاتها على المناسبات . كالوفادة والتهنئة والأملاك . وعلى الموضوعات الدينية وفى الوعظ والإرشاد .

وإن كان ذلك لم يحل دون ظهور الخطباء الأفذاذ وخاصة فى دولة بنى الأحمر مثل لسان الدين بن الخطيب . . وقد اشتهر بالخطابة فى هذا العهد : ابن أبى الخصال . وسهل بن مالك فى القرن السابع . وأحمد بن الحسن الزيات . وأبو الربيع الكلاعى من القرن الثامن . وقد جمع الأخير الخطيب فى دواوين على نحو ما حدث بالمشرق .

٢ — الكتابة

ا ـ لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين فى الأندلس . والجيل الأول من الأمويين . لأن الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد . فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة فى الموضوعات الاجتماعية أو الخيالية أو الفنية فاقتصرت فى القرن الأول من دخول العرب فى الأندلس على ما تقتضيه الحال من الرسائل السياسية والإدارية ؛ لبث الحماسة فى نفوس الجند ، وضبط أمور البلاد ، مما كان يلقيه الولاة ، ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم . وكان كل ذلك تمليه الرغبة فى تأييد الملك ، ويسوده الروح العربى الذى كان يسيطر على العقول فى دمشق مدة الأمويين ، فكانت الكتابة إذ ذاك عربية فى موضوعاتها ، وفى أساليبها ، وعباراتها الجزلة الرصينة ، خيالية من الصنعة والتكلف .

ومن صورها آنذاك ما كتبه الداخل من كتاب أملاه على كاتبه إلى أحد الخارجين عليه : « أما بعد فدعنى من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ، لتمدنّ يداً إلى الطاعة ، أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالا بما قدمت يداك ، وما الله بظلام للعبيد » . وكان الداخل أشهر رجال هذا العهد فى فن الكتابة .

ب ـ ولما جاء عهد الخلفاء وملوك الطوائف نهضت الكتابة منذ بدء القرن الرابع نهضة فنية فذة ، وسلكت مسلكا جديداً فى أغراضها ومعانيها وأسلوبها :

فأما معانيها : فقد ظهر فيها الخيال الفسيح من آثار ذلك الجمال الإقليمى البديع الذى ينبت الخيال ثم يغذيه فينميه ، وإنا لنراه متجليا فى كل شىء ، حتى فى بيان الحقائق ، يقربونها من العقول ، فى تصوير ممتع رائق ، كما فى رسالة التوابع لابن شهيد . وكان لزهدهم فى علوم الفلسفة أثر فى كون كتابتهم واضحة بعيدة عن التعمق ، ولكنها كانت تظهر فى ثوب مهذب تهذيباً عربياً خالصاً من تلك الشوائب .

وأما الأسلوب . فحدث ولا حرج ، عن ألفاظ كأنها نسمات الأسحار عذوبة ورقة فى تعابير لا يشبهها إلا قائلوها فى خفة أرواحهم وصفاء أذواقهم قد اشتملت على تشبيهات

واستعارات حالفها التوفيق . لا تشعر فيها بشيء من النبو مها فتشت ورددت . ولقد كانوا يؤثرون السجع القصير لجمال وقعه . ولم تكن لهم تكلفات للشارقة فى التهالك على سائر أنواع البديع كالتورية والجناس ، بل يتركون ذلك لعفو الخاطر .

ولكثرة المحفوظ عندهم وعنايتهم بجمع العلوم الإسلامية ظهرت فى كتاباتهم الاقتباسات من الكتاب الكريم والسنة النبوية ، والتضمينات من الشعر العربى والأمثال ، وقد بالغ بعضهم فى هذا النوع ، وابن زيدون هو فارس هذه الحلبة ، فى رسالتيه : الجدية والهزلية العجب العجاب ، مما أطال بعض الألسنة بأنه لم يفعل فى ذلك أكثر من جمع شتات أمثال وحكم . وكذلك كثرت الإشارة إلى الحوادث التاريخية والأيام العربية ، وغلا بعضهم فيه غلوا شديداً . . ومن محاسن كتاب هذين المصرين : عـــدم الحفل بقيود البدء والختام ، ولا ألقاب التعظيم التى كان يحرص عليها المشارقة تقليداً للفرس .

كما أنهم لم يحفلوا بأنواع الدعاء وتنويعها ، ولا صيغ التعظيم وتفخيمها ، وإنما كانـوا أقرب شيء إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها . ولم يكونوا على مذهب واحد فى السجع ، بل كان منهم طائفة تلتزمه كابن بسام وابن خاقان ، وأخرى تسجع وتزاوج كابن زيدون وابن شهيد .

وعنى أدباء الأندلس بمحاكاة أدباء المشرق واتباع طرقهم أولا ، ثم دب الترف فى النفوس والعقول ، كما دب فى الاجتماع ، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية وتهذبت الأفكار ، ونضجت العقول ، بما نقل من علوم وفنون ، وانتشرت مظاهر الحضارة فى المجالس والمجامع ، فامتلأت نفوس الكتاب بشتى الموضوعات التى وسعت من أخيلتهم ، وهذبت من إدراكهم ، وأكسبتهم صبغة فنية . فكان ذلك من العوامل الجديدة فى نمو ملكة الكتابة ونشأ عن ذلك : النثر الإنشائى الفنى ، الذى اشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية ، فكتب الكتاب رسائل فى المراسلات والأوصاف والسياسة والمناظرات الخيالية ، والمقامات الصوفية ، والقصص الاجتماعية والخيالية ، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحكم والأمثال ، والرسائل الفكاهية ، وكتبوا على ألسنة البلدان والحيوان . وكتبوا فى الدعوات والإرشاد والتوسل

إلى الله وَفى شعائر الحج . كما كتبوا فى الزهد والتصوف، وكما كتبوا فى المجون . . . وبرعوا فى النثر كما برعوا فى أساليب النظم .

وممن كتب فى الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون ، وممن كتب فى القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد. وممن كتب فى المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر، كما كتب أبو بحر بن صفوان بن إدريس فى المناظرة بين بلدان الأندلس، وكتب ابنُ خفاجة فى وصف الطبيعة ، وممن أطال فى الرسائل واشتهر فيها ابن بسام: فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربى كالشعر سواء بسواء ، بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها ، التى كان من أشهرها القصص الخيالية .

وكما كتبوا فى الموضوعات الخيالية كتبوا فى الزهد والتقوى والتصوف والتوسل إلى الله وإلى الرسل .

وهكذا وجدنا الكتابة فى هذا العهد تتنوع إلى :

١ ـ كتابة الدواوين ، وتصدر عن الخلفاء والأمراء والولاة وكتابهم فى تصريف شئون الدولة وأعمالها .

٢ ـ كتابة الرسائل الخلقية والاجتماعية ، وتتناول البحث فى شئون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكونوا عليه من خلق فاضل وعدل ، ومحبة وسلام .

٣ ـ الرسائل الأدبية : تصدر من الكتاب والأدباء متناولة أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها ، ومصورة عـــواطف الناس وأهواءهم فى حياتهم الخاصة والعامة .

٤ ـ النثر الخيالى : ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءته من القصص الموضوعة ، وهو مانسميه الآن النثر الروائى . وهـــو أنواع : فمنه مايتناول شرح الحقائق فى أسلوب قصصى خيالى ، كرسالة ابن شهيد المساة بالتوابع والزوابع ، تناول فيها جمهرة من الأدباء ، فعرض صوراً من شعرهم ونقدها ، ومنه مايتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، والمناظرة بين بلدان الأندلس ، ومنه مايتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصى .

ه ـ النثر العلمى : وإن كان الأدباء لايعدونه من النثر الفنى . ولكن الأندلسيين لما أبدعوا فى التفنن فى أساليبه ، ونمقوا عباراته ، صح أن يعد عندهم من النثر الفنى ، وكتب: قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، تؤيد ذلك .

جـ ـ وبعد عهد ملوك الطوائف يبتدىء الطور الثالث للكتابة ، وذلك منذ صارت الأندلس ولاية تابعة لشمال أفريقية فى عهد المرابطين والموحدين إلى عهد بنى الأحمر الذى زال مع زوال سلطانهم كل سلطان للغة العربية سنة ٨٩٧ هـ . وفى هذا الطور ظل الأندلسيون يتابعون المشارقة فى النثر الفلسفى كما فى رسالة حى بن يقظان لابن طفيل ، ثم انحدروا إلى ما انحدر إليه كتاب المشرق . الضعف . الشيخوخة . وإن ظلت كتابتهم متماسكة بعد أن انهارت الكتابة تماما بالمشرق .

ولقد كان من أسباب هذه الشيخوخة ضياع شخصية البلاد وانتهاء استقلالها ، وذهاب مظاهر التشجيع التى تحرك النشاط الأدبى بعد ملوك الطوائف ، وانتهاء الأمر إلى المرابطين وغيرهم ممن لم يهتموا بالأدب ، أو يولوه أية رعاية ، ثم ما كان من متابعتهم المشارقة فى الطريق التى أنهكت الكتابة بالمشرق . وهكذا شاخت الكتابة الأندلسية ، واستبدبها الضعف والهزال ، وصارت تدب دبيب الكتابة فى العهد السلجوقى .

وأقبل الكتاب على بعض البديعيات التى جفاها أو تخفف منها أسلافهم كالطباق والجناس ، وأغرموا بالمصطلحات العلمية يحشدون بها كتاباتهم على سبيل التورية ، وخاصة مصطلحات النحو والعلوم العربية وتكلفوا السجع بعد أن تناوله السابقون فى بساطة ويسر ، وعقدوا فيه كل التعقيد كأن يدخلون فيه بعض السجعات فى بعض أو يبنون الرسالة كلها على سجعة واحدة ، مهما طالت تلك الرسالة ، ومثل ذلك الحشد وهذا التكلف خليق أن يذهب بنضارة الأسلوب ، وروعة الأداء وجمال الصورة ، وأن يجعل رسائلهم كالحجارة المبعثرة لا ينتظمها بناء ولا تدب فيها روح . ومن كتاب هذا العهد : ابن خاقان ، وابن سهل ، وأبو عامر بن عقال وسواهم .

الشعر الأندلسى

تمهيـــد :

دخل العرب الأندلس ، واستراحوا من الفتح والجهاد ، فرجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم ، وإلى الملكة التى نشأوا عليها ، وورثوها فى دمائهم ، وهى قرض الشعر ، وخاصة أن الشعر هـــو غذاؤهم الروحى ومتعتهم النفسية ، ومرآة لحياة العربى الاجتماعية والعقلية والسياسية ، يتغنى به فى حله وترحاله ، ويصور فيه مايجيش بخلده من حب وبغض . ويرسم فيه ما يحيط به من جمال الطبيعة ، وما تلهمه به هذه الجنة الساحرة من روائع القصيد .

ولـــا أقام العربى فى هذه البيئة ، وعاش عيشة فراغ واستقرار ، ظهر الشعر العربى متشحاً بمطارف الخيال البديع ، وخاصة لما رآه العربى من جمال طبيعة هذه البلاد ، وإن كان يعيش بعقله وخياله فى البادية ومرائيها ، فكانت معيشته تمثل حياتين : حياة الحضر التى يحياها ، وحياة البادية التى يتمثلها فى خياله وأحلامه ، وكان شعره منبعثا من هذين الأثرين ، فظهر فيه جمال الفطرة وجزالة البداوة ، ونضارة الحضارة ، ورقة الخيال ، وكان فى صور الطبيعة ما يلهم قريحته بأجمل صور الوصف ، وأروع قصائد التصوير ، حيث رسموا فى شعرهم كل شىء وقع عليه نظرهم ، ومر بخاطرهم .

وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهوراً فى هذه البيئة الجميلة ، وذلك لأن الشعر مظهر الثقافة العربية ، ولأنه مرآة لحياة العربى العقلية والاجتماعية ، يشدو به حيثما نزل ، وأيان ارتحل ، ولأن ذلك جزء من كيان طبيعة العربى لا يمكنه الاستغناء عنه ، أو اطراح الشدو به على أن العرب حـــين امتزجوا بسكان البلاد ، واعتنق الإسلام كثير من سكان البلاد الأصليين ، وتعلموا العربية وآدابها وبلاغتها،نشأ جيل جديد من المولدين أخذ الشعر صناعة لا طبعاً ، ولكنه أقبل على قرض الشعر إقبال العربى الأصيل لتعلق الطبع دائمـــاً بالشعر وحنين الخيال إليه . ولقد ذاع الشعر بين جميع الطبقات ، وأقبل الناس على نظمه ، سواء منهم الخلفاء والأمراء والوزراء والفقهاء والحكماء والأدباء والنساء .

مدى عناية الأندلسيين بالشعر :

١ ـ لم يكن للشعر فى أوائل الفتح مجال، لأن العرب كانوا جد مشغولين بالجهادوالغزو، وتوطيد دعائم الأمن وتنظيم الملك والدولة ، فلم يتح لهم ذلك فراغا يهدأون فيه لنظم الشعر وقرضه .

٢ ـ ولما قام ملك بنى أمية ، فتح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء فى مجالس الأدب والغناء ، وأفاضوا عليهم الأموال ، واتخذ الشعراء الشعر وسيلة للتقرب إلى الحكام وكبار القوم ، بمدحهم والزلفى إليهم ، ووصف مجالسهم وقصورهم ومعالم الحضارة فى بلادهم ، حتى كان الشعر وسيلة إلى الثراء والجاه والنفوذ . وظهر فى عصر الأمويين العديد من الشعراء ، من أمثال ابن هانىء الأندلسى ، وابن دراج القسطلى ، وأحمد بن شهيد،وسواهم. وكان تشجيع الملوك والأمراء والوزراء للشعراء بالغا الغاية ، فلا عجب إذا ازدهر الشعر على أنواعه ، وأخذت حاشية الشعراء ترق ، وإحساسهم الفنى يرهف ، وبلغ من زيادة مكانة الشعر أن نظمه الملوك والأمراء والوزراء ، فمن ذلك قول الداخل من أبيات بعث بهـا إلى أخته بالشام :

قـــدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى

قـــد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

٣ ـ وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب فى الأندلس ، ظهر فيه كثير من فحول الشعراء، كابن زيدون، وابن خفاجة وابن وهبون وابن عمار، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية . وصار الشعر يجرى على كل لسان ، حتى إنه كان ـ كما يقول ابن حيان ـ باستطاعة الفلاح الذى يحرث الأرض أن يرتجل الشعر فى أى موضوع يعن له ، وأخذ ملوك دول الطوائف وأمراؤها، ووزراؤها يحتفون بالشعراء ويتنافسون عليهم ، وعلى ضمهم إلى بطانتهم ، فينظمون لهم المدائح ويسطرون ما يفعلون من مآثر ومحامد ، فلا بدع إذا كثر شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح . وجرى حتى على ألسنة الملوك والأمراء والوزراء، وكان

المعتمد شاعراً مجيداً ، ينظم الشعر ويتذوقه وينقده ، ولم يكن يستوزر إلا من كان أديباً أو شاعراً .

٤ ـ وفى عهد المرابطين ظهر ابن قزمان ، واستحدث فى الشعر فن الزجل . . و ظهر فيه وفى عهد الموحدين الكثير من الشعراء وفى مقدمتهم : ابن خاقان وابن سهل ، وسواهم.

٥ ـ وقامت دولة بنى الأحمر، وهى من أصول عربية سليمة، فشجعت الأدباء والشعراء، وعنيت بسماع صوت الشعر فى كل مناسبة وكل حـــدث ، وفى كل انتصار لبنى الأحمر على المسيحيين الأسبانيين ، وكثر الشعراء فى عهدهم ، ومن أشهرهم لسان الدين بن الخطيب . . ثم انتهى الحكم العربى فى الأندلس عام ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م ، فانتهت العربية وآدابها فى هذه البلاد ، وإن بقى تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوربى فى أسبانيا وفرنسا وجنوبى إيطاليا زمنا طويلا ، فالطابع الذى اتسم به الشعر الفرنجى من وصف مناظر الطبيعة، وتصوير جمالها ، ومن الشعر الغنائى ، والمقطوعات الشعرية المقفاة التى تحـــاكى الشعر العربى فى أفكاره وأخيلته ، لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسى ، مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسى ، وكان الشعر الفرنسى يحاكى الشعر الأندلسى ، ويأخذ عنه صناعة الشعر والقوافى بل إن الملاحم القشتالية احتوت ألفاظا عربية مثل الدليل والقاضى والطلائع والغارة وسواها ، مما يشير إلى أثر الأدب الأندلسى والشعر الأندلسى فى صميم هذه الملاحم ومعظم ما جاء به دانتى الشاعر الإيطالى مأخوذ عن محيى الدين بن عربى ، سواء فى الصور أم فى الأمثال والاصطلاحات والأساليب الفنية ، وقد اصطبغ الشعر الأسبانى بصبغة أندلسية اعترف بها النقاد والباحثون .

أسباب ازدهار الشعر فى الأندلس :

١ ـ روح الشاعرية الموهوبة المتأصلة فى نفس العربى أينما كان وحيثما ارتحل .

٢ ـ تعدد البواعث التى كانت تلهم الشعراء الشعر ، وتدفعهم إلى قرضه .

٣ ـ كثرة جمهرة العرب فى الأندلس ، وتمكن السلطان فى أيديهم ، وشدة عنايتهم باللغة العربية وآدابها .

٤ ـ طبيعة بلاد الأندلس ومافيها من المناظر المختلفة والأمصار المتصلة والأدواح الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة والمروج الموشاة بألوان الزهــــر. والقصور الشاهقة والرياض الغناء. كل ذلك أكسب المواهب انطلاقاً والوجدان لطفاً والمعانى دقة. والألفاظ جمالا وروعة.

٥ ـ عناية الملوك والأمراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالا لكل عالم. أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة، والرياضيون، والأطباء، والمؤرخون. كما أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه، وبارين الرجال، وقلن الجيد الممتع منه، من مثل حمدونة الأندلسية، وسواها.

خصائصه الفنية :

وقد تميز الشعر الأندلسى بميزات واضحة فى ألفاظه وأساليبه، وفى معانيه وأخيلته :

١ ـ فأما من حيث الألفاظ والأساليب، فقد تمـــيز بسهولة فى اللفظ، وسلاسة فى التراكيب، وذلك أثر لسهولة طباعهم، ولين أخلاقهم، ورقة الطبيعة الأندلسية وجمالها، ولإرسالهم القول من غــــير تكلف ولا تصنع ولا تحميل للألفاظ مالا تطيق من المعانى المزدحمة. حتى جاء شعرهم جارياً مع الطبع، متساوقا مع الفطرة، فضلا عن أنهم لم يبالغوا فى الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها، وما كان يقع لهم من ذلك فى عباراتهم كان أكثره جيلا مقبولا، لأن الشعراء كانوا لا يأخذون من هذه الأنواع البديعية إلا ما كانت تجود به قرائحهم من غير تعمل ولا إجهاد خاطر، وإن كان ابن هانىء الأندلسى يكاد وحده يتميز بطابع البداوة فى ألفاظه وأساليبه، فقد أحيا القعقعة البدوية فى شعره، وتناول من الألفاظ الغريب الممعن فى البداوة من مثل شيظم وما شابهه.

٢ ـ وأما فى المعانى فإنك تجد معانى الشعر الأندلسى واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء، لقلة المشتغلين منهم بالفلسفة واضطهاد علومها فى الأندلس، وبغض العامة لها، وكثيراً ما كان الشاعر الأندلسى يطرق المعانى المرونة. ولكنه يحـ[illegible]ـلها وركب ويغرب ويبدع فى الصناعة يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر، وإنما المبتكر

التوليد والخيال ، والمعانى الجزئية . وهذا كان سمة لابن هانىء ، وإن كان له أحياناً من المعانى الجديدة ما يسلكه فى عداد الشعراء المبتكرين المجددين ، انظر إلى قوله :

قمن فى مأتم على العشاق ولبسن السواد فى الأحداق
ومنحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق

ومن المعانى الطريفة التى كان يلم بها الشاعر الأندلسى أحياناً قول ابن برد فى وصف انبلاج الصبح ، مع ما حلاه به من غريب التشبيه المبتكر :

وكأن الليل حين لوى ذاهباً والصبح قد لاحا
كحلة سوداء أحرقها عامد أسرجها مصباحا

٣ ـ وقد غلب على الشعر الأندلسى الخيال البديع ، الذى نماه فى ملكات الشعراء ضروب الجمال المنتشرة فى شبه جزيرتهم ، وساعدهم ذلك على أن يجودوا التشبيه ، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية فى شعرهم . ولا بدع فقد كانت الأندلس مباءة الخيال ومسرحه، بما ركب الله فى طبيعتها من فنون السحر والجمال ، لذلك أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجاب فى أشعارهم ، فلهم التشبيهات البديعة ، والاستعارات الفاتنة ، والتوليدات العجيبة ، والأخيلة الرائعة . انظر إلى قول حمدونة بنت زياد تصف وادياً :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه ، فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

ومن إمعانهم فى الخيال فشا فى كلامهم هذا النوع البديعى المعروف بحسن التعليل، فقل أن نجد شاعراً لم يستعمله . ومن أمثلته قول أبى بكر بن زهر :

وموسدين على الأكف خدودهم قد غالهم نوم الصباح وغالنى
مازلت أسقيهم ، وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالنى
والخمر تعرف كيف تأخذ ثأرها إنى أملت إناءها فأمالنى

أغراض الشعر الأندلسي :

طاب للعرب العيش في الأندلس، وتمكن سلطانهم هناك، وأخذوا يعنون بنظم الشعر في شتى الأغراض المطروقة في الشرق، من مدح وهجاء ورثاء وفخر وحماسة وتهنئة ووصف وغزل وخمر وندمان ونساء وغلمان وعبث ومجون وزهد وتصوف، غير أنهم فاقوا المشارقة في أغراض أخرى لأسباب اقتضتها طبيعة بلادهم ونظام معيشتهم وطريقة تثقيفهم :

(ا) فمن الأغراض التي قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة ولم يجاروهم فيها :

١ ـ شعر الزهد والحكمة .

٢ ـ شعر الآراء الفلسفية بألوانه المتعددة، من نقد النظم، وأساليب الحكم وأخلاق الناس، وذلك لضعف ثقافة الفلسفة وعلومها في إقليمهم، ومحاربة آرائها هناك، ولأن عقلية الشاعر المشرقي كانت على العموم أوسع نطاقا من عقلية أخيه الأندلسي .

(ب) ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشارقة . الوصف، ولاسيما وصف المناظر الطبيعية وجمال الكون، حيث وصف الشاعر الأندلسي الرياض والبساتين والأشجار والأزهار والثمار والطيور، ووصف السحاب والرعد والبرق والمطر وقوس قزح والبرك والأنهار والبحار، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور القصائد، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو، وسير الجيوش، ونشوب المعارك، والقصور والتماثيل والفوارات، ومجالس اللهو وآلاته والطرب والسمر، وكل ذلك أثر لجمال طبيعة بلادهم وسحر مناظرها وتعدد مشاهدها البديعة .

(ج) ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها :

١ ـ رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم : كقول صالح بن شريف الرندي يرثي الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

٢ ـ الاستغاثة والاستنجاد بالنبي صلى الله عليه وسلم وكبار الصالحين، وترغيب ملوك

الإسلام فى إنقاذ البلاد ، وقد كثر ذلك فى القرنين : الثامن والتاسع ، حين توالت عليها غارات الأسبان ، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا

٣ ـ نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها .

أشهر الشعراء الأندلسيين :

نبغ فى الأندلس كثير من الشعراء، منهم : ابن عبد ربه الأندلسى (٢٤٦ ـ ٣٢٨ هـ)، وابن هانىء (٣٢٦ ـ ٣٦٣) ، والغزال يحيى بن حكيم الشاعر المطبوع (١٥٦ ـ ٢٥٠ هـ)، وابن زيدون (٣٩٤ ـ ٤٦٣ هـ) وابن خفاجة (٤٥٠ ـ ٥٣٣ هـ) ، وابن وهبون المتوفى قبل عام ٥٣٣ هـ ، والأعمى التطيلى المتوفى قبل عام ٥٤٢ هـ ، وابن برد الأصغر الذى قتل عام ٤٣١ هـ ، وأبو حفص الأكبر المتوفى عام ٤٢٨هـ ، وابن دراج القسطلى (٣٤٧ ـ ٤٢١ هـ) ، وابن الحداد المتوفى عام ٤٨٠ هـ ، والفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩ ، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ) .

فن الموشحات الأندلسية

تمهيد :

الموشحة من الظباء والشاء والطير : التي لها طرتان من جانبيها أي خطوط في الجانبين. وديك موشح إذ كان له خطتان — أي خطان — كالوشاح . وثوب موشح إذا كان فيه وشي. وسمي الموشح موشحا لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له .

والسبب الأول في اختراع الموشحات هو الغناء[1] ، لأن أوزانها أحفل بالغناء والتلحين، الذي كان ضروريًا عند شعراء الأندلس من أوزان الشعر[2] ، واتخذ في أول الأمر أداة للهو والمجون ، ثم استعمـ . . . ـت في أغراض الشعر الأخرى .

والموشحات فن جديد من فنون الشعر الأندلسي ؛ يمتاز بجماله الفني ، وكثرة صوره الشعرية ، وكثرة قوافيه وأدواره وأوزانه الكثيرة التي تلائم الموسيقى والغناء .

وتنسب لابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) أول موشحة من الموشحات الفنية المعروفة ، وهي : أيها الساق إليك المشتكى . . الخ .

وإذا كانت صحيحة النسبة لابن المعتز تكون أول موشحة عرفت في الأدب العربي ، والباحثون يختلفون في ذلك اختلافا كثيراً .

على أن من الباحثين من ينكر أنها لابن المعتز ، ويقول : إن الموشحات فن أندلسي خالص سبق الأندلسيون إلى ابتكاره ، وموشحة « أيهـــا الساق » هي لابن زهر لا لابن المعتز[3]، ويذكر ابن معصوم في كتابه : « السلافة »[4] أن الموشحات من ابتداع مقدم بن معافر .

أوزان الموشحات :

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزناً واحداً ، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن ، ومن أجل ذلك كان الموشح تابعاً

---

(١) ١٦٣ : ٣ تاريخ آداب لغة العرب للرافعي . (٢) ٣١٢ : ٣ المرجع .
(٣) معجم الأدباء لياقوت ترجمة ابن زهر . (٤) ص ٢٤٣ السلافة .

لما تقتضيه الأنغام ، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل ، وتارة يخالفها.
ويقول ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ في كتابه « دار الطراز » المخطوط بدار الكتب المصرية : الموشحات تنقسم إلى قسمين :

١ ـ ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان : أحدهما مالا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري ، وما كان من الموشحات على هـــذا النسج فهو المرذول المخذول ، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء ، وذلك نحو قول القائل :

يا شقيق الروح من جسدي أهــوى بي منك أم لــمم ؟

فهذا من المديد ، وكقول الآخر ، وهو ابن المعتز :

أيها الساقي إليك المشتـكى قــد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل . . والثاني ما تخللته كلمة أخرجته من الوزن مثل قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقــل للمطيل هجراني معذبي كفاني

٢ ـ والثاني هو ما لا مدخل فيه لشيء من أوزان الشعر ، وهو القسم الكثير ، والجم الغفير ، والقدر الذي لاينحصر ، وأوزانه كثيرة منها : « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين، ومنها : « فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن » مرتين .

أسلوب الموشح وأغراضه :

١ ـ أما أسلوبه فعربي ، في ألفاظه وتراكيبه ، وقد تـكون بعض ألفاظه غير معربة ، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه وإن كان لايخرج في جملته عن الأسلوب العربي ، وذلك عدا الخرجة وهي آخر قفل من الموشح ، وهي غالبا تـكون فـكاهة عذبة ونادرة حلوة ، ملحونة اللفظ ، جارية على لسان ناطق أو صامت ، ويرى بعض النقاد خلو الموشح من اللحن ، وأنه كالشعر في إعرابه ، وقال ابن سناء : اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة ، ويقول أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » نقلا عن بعض المتأخرين : إن الموشحة كالشعر في إعرابه، وإن كانت تخالفه في أوزانه .

٢ ـ وأما أغراض الموشحات فقد كانت تنظم أولا للغناء ، والمعانى الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف ، ولما شاع الوشح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه فى شتى أغراض الشعر ، من الفخر والرثاء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر ، وسواها .

شعراء الموشحات فى الأندلس :

أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يرى هو مقدم بن معافر القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى[1] فى القرن الثالث الهجرى وهـــو الذى نوع أوزانها وأدوارها ، وعنه أخذ أحمد بن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) المتوفى عام ٣٢٨هـ ، وكان ذلك فى القرن [illegible] الهجرى ، ومن هذين أخذ الناس ، ثم سال سيل الموشحات فى الغرب والشرق ، فبرع بعدهما عباقرة الوشاحين فى الأندلس ، ومقدمهم : عبـادة القزاز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية من ملوك الطوائف ، ومن موشحاته قوله :

بدر تم شمس ضحى　　غصن نقـــا مسك شم
ما أتم ما أوضحا　　ما أورقا ما أنم
لا جـــرم من لمحـــا　　قد عشقا قـــد حرم

وزعموا أنه لم يسابق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمن ملوك الطوائف ، ثم جاء بعده ابن رافع رأسه ، شاعر المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة من مـــلوك الطوائف ، ثم جاءت الحلبة التى كانت فى زمن الملثمين ، وعلى رأسهم الأعمى التطيلى م عام ٥٢٠ هـ ثم يحيى بن بقى ، وابن باجة الفيلسوف م عام ٥٣٣ هـ ، وابن اللبانة م عام ٥١٧ هـ ؛ واشتهر بعد هؤلاء فى فجر دولة الموحدين : ابن شرف ، وابن زهر الفيلسوف ، وبعد هذه الطبقة طبقات جاءت بالغرائب ، ومنهم : ابن سهل الإسرائيلى الإشبيلى م عام ٦٤٩ هـ ، وأبو حيان النحوى ، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦ هـ .

---

(١) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ) .

طريقة نظم الموشحة :

ذكر ابن سناء الملك فى كتابه (دار الطراز) عـــدة طرق فنية لنظم الموشحات ، وترتيب أبياتها :

ا ـ وأظهر طريقة فى نظمها هى كما ذكرها ابن سناء وابن خلدون وسواها أن تتألف الموشحة من أقفال وأبيات ، فالأقفال هى ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية ، والأبيات هى ما اتفقت وزنا وأجزاء واختلفت قافية غالباً ، وينقسم الموشح باعتبار جزأيه إلى :

١ ـ تام وهو ما تألف من ستة أقفال وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأقفال .

٢ ـ أقرع وهو ما تركب من خمسة أقفال وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأبيات .

فثال الأول قول ابن التلمسانى :

قمر يجلو دجى الغلس بهر الأبصار مذ ظهرا

آمن من شينة الـــكلف

عذت من حبه بالـكلف

لم يزل يسعى إلى تلفـــى

بركاب الدل والصلف

فالقفل[1] « قمر الخ » ، والبيت هـــو « آمن » إلى « الصلف » ، والموشح تام لأنه مبتدأ بالقفل .

ومثل الثانى قول الآخر :

سطـــوة الحبيب أحـلى من جنى النحل

وعلى الـــكئيب أن يخضع الذل

أنا فى حـــروب مـــع الحدق النجل

---

(١) القفل الأخير من الموشح يسمى خرجة ، وهى أساس الموشحة ،وعليها تنبنى ، كما أنها جماع سر جمالها وبلاغتها عند الأدباء ، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الخروج إليها وثباً واستطراداً ، وأن تـكون قولا مستعاراً على بعض ألسنة الناطق أو الصامت، ويكثر أن تـكون على ألسنة النساء والصبيان، والسكرى. ويجب حينئذ أن يكون فى البيت الذى قبلها : قال أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت أو نحو ذلك.

ليس لى يدان ـ بأحور فتان ـ من رأى جفونه ـ فقد أفسد دينه .

فمن قوله « سطوة » « إلى النجل » بيت ، ومن « ليس لى » إلى « دينه » قفل ، والوشح أقرع لأنه بدىء ببيت .

٢ ـ والطريقة الثانية فى نظم الوشح ، هى أن تجعـــل الوشح أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، وتلتزم عدد الأغصان التى فى كل سمط وأحرف قوافيهـا إلى آخر الوشح ، ومن أمثلة ذلك قول عبادة القزاز :

٤	٣	٢	١
مسك شم : سمط	غصن نقا	شمس ضحا	بدر تم
ما أنم : «	ما أورقا !	ما أوضحا !	ما أتم !
قد حرم : «	قـد عشقا	من لمحا	لا جرم

فـكل سطر من هذا الوشح يسمى سمطا ، وهو يشتمل على أربعة أغصان والأغصان التى تحت كل رقم متحدة القافية فى جميع الأسماط .

٣ ـ ومن طرق نظم الوشح كذلك : أن تأتى ببيتين تسميهما اللازمة . يتفق الحرفان اللذان فى صدريهما « عروضيهما » كما يتفق الحرفان اللذان فى عجزيهما « ضربيهما » ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات ، ثلاثة منها تتفق الحروف التى فى صدرها كما تتفق الحروف التى فى أعجازها ، أما البيتان الأخيران فيكونان مثل بيتى اللازمة ، ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سهل الإسرائيلى :

دور :

أيهـــا السائل عن جرى لديه ... لى جزاء الذنب وهـــو المذنب

أخذت شمس الضحا من وجنتيه ... مشرقا للشمس فيـــه مغرب[1]

ذهب الدمـــع بأشواق إليه ... وله خـــد بلحظى مذهب

---

(١) المعنى : حمرة المشرق قبـل طلوع الشمس فى الأفق وحمرة شفقها بعد الغروب ، مستعارة من وجنتيه الحراوين .

لازمة :

فهو عندى عادل إن ظلمـا وعـذولى نطقه كالخرس
ليس لى فى الأمـر حكم بعدما حل من نفسى محل النفس

دور :

منـه للنار بأحشائى ضرام تتلظى كل حـين ما تشا
هى فى خـديه برد وسـلام وهى حـر وحريق فى الحشا
أتقى منه على حـكم الغرام أسداً وردا وأهـواه رشا[1]

لازمة :

قلت لما أن تبدى معلما وهى من ألحاظه فى حرس
أيهـا الآخذ قلبى مغنما اجعل الوصل مكان الخمس[2]

ومن الطرق كذلك أن تأتى بموشحة تجعل أولها بيتا تلتزم فيه التقفية فى صدر الشطر الأول وعروضه ، وصدر الشطر الثانى وضربه ، وتسمى هذا البيت قفلة أو مذهبا ، ثم تأتى بثلاثة أشطار أخرى تلتزم فيها التقفية أيضا لكن على حرف آخر ، وتسمى هذه الأشطر دوراً ، ثم تعود وتأتى ببيت متفق كالأول ومتحد معه فى حرف التقفية ويسمى قفلة ، ثم تأتى بدور وقفلة أخرى ، وهكذا إلى سبعة أدوار فى الأكثر . . ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سناء الملك ، ومنها :

قفلة :

واحل لى : حتى ترانى عنك فى معزل قلل : فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور :

من ظلم : فى دولة الحسن إذا ما حكم فالسدم يجـول فى باطنه والنـدم[3]
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

---

(١) ورد : بين الكميت والأشقر . الرشا : الظبى إذا قوى واشتد .

(٢) يريد خمس الغنيمة وهو يصرف على الدولة ، وباقيها يصرف على الجيش .

(٣) السدم : الهم .

قفلة :

من ولى : فى دولة الحسن لم يعدل　　يعزل إلا لحاظ الرشأ الأكحل

دور :

لا أريم : عن شرب صهباء وعن عشق ريم　　فالنعيم : عيش جديد ومدام قديم[1]

لا أهيم : إلا بهذين فقم يانديم

---

(١) لا أريم : لا أعدل ، والريم : الظبى .

فن الزجل

نشأة الزجل :

الزجل لغة التطريب ورفع الصوت ، زجل فهو زاجل وزجل ، والزجل كذلك فى اللغة الصوت . . وسمى هذا اللون من ألوان الأدب زجلا لرفع الصوت فيه وترجيعه به فى الإنشاد ، ويسمى الشعر العامى ، والأندلس بيئة الزجل الأولى كالموشح ، وإن كان قد تأخر عن الموشحات فى النشأة الأدبية قليلا ، وهو نوع من الشعر العامى . . . وقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التى نشأ بها ، واشتمل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف ، وكثيراً ما كان الزجل أصدق فى التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة ، واشتماله على عباراتهم المألوفة وعدم احتياجه للتكلف فى الصناعة واختيار الألفاظ .

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه ، وترصيع أجزائه . نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا بذلك فنا سموه بالزجل . والتزموا النظم فيه فجاءوا فيه بالغرائب ، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة ، وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية : أبو بكر بن قزمان . فلم تظهر حلاها ، ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها ، إلا فى زمانه وكان فى عهد الملثمين ، وتوفى عام ٥٥٥ﻫ وهو إمام الزجالين على الإطلاق ، وجاء بعد ابن قزمان : مدغليس ، وابن جحدر ، وسهل بن مالك ، وابن الخطيب ، والألوسى .

أمثلة للزجل :

١ ـ يقال : إن أبا بكر بن قزمان القرطبى حين كان صغيراً فى المكتب ، دخل عليه صبى صغير مثله ، فناداه وأجلسه بجانبه ، وصار يحييه ، فرآه الفقيه على ذلك فضربه . فكتب فى أعلى اللوح هذا المطلع :

للـــلاح أولاد إمارة	والوحاش أولاد نصاره
وابن قزمان جا ينفر	ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح ؛ فرأى هذا المطلع ، فقال : هجوتنا بكلام مزجول — يعنى مقطعاً يترنم به — فسمى زجلا .

٢ — وقال قاسم بن عبود الرياحى فى ختام زجل له :

ما أعجب حديثى إش هذا الجنون ؟
نطلب وندبر أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهون أمراً لا يهون ؟
واش مقدر ما نصبر لبعد الحبيب ؟

فهرست

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٢٩ / ١٩٧٥